

# الأداب

www.adabmag.com

AL ADAB 2003

العدد ١٠/٩ أيلول (سبتمبر) - تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣ - السنة ٥١

Al-Adab vol. 51 # 9-10/2003

الجدور الأصلية للإرهاب • الاحتلال الإسرائيلي والأميركي: الشبه والاختلاف • حوار مع روائي تونسي

ملف الرقابة العربية (٣)

## المغرب الرقابة في



Per.  
306

روایت

# دروب و غبار



جناب جاسم حلاوي

دار الآداب



## دع المزاح جانباً... يا رفيق!

بُشِّرْ إلى كلِّ أنصار اليسار والتقدم في العالم.

بشِّرْ إلى البائسين والفقراء واغنيطين، وبخاصة في الوطن العربي والعالم الثالث.

لقد انتصرت الشيوعية في العراق.

وأيّن تحديداً؟ أو أين... فقط؟

في الثقافة.

الله أكبر، وليخسر الخاسرون!

فلقد عبَّ شيرعي وزيراً للثقافة في جمهورية العراق اُخْرُو. وهذه سابقة مجيدة في التاريخ، المعاصر على الأقل. ففي حين تراجعت غالبية الحركات القومية والتقدمية واليسارية عبر العالم، فُقرت الشيوعية العراقية إلى سُدّة السلطة، ومن أبهى أبرهاها: الثقافة.

لكنّ المفارقة العظمى ليست هنا يا حبيبي، بل أن يتمّ ذلك بفضل قوات التحرير الأميركية التي ليست مغرومة بالشيوعية ولا بليتين ولا بالرفيق فهد نفسه.

فما عدا ما بدأ؟

على كلّ حال، نحن نريد أكلّ العنب لا قتلّ الطيور. ولهذا نرجو الرفيق وزير الثقافة في جمهورية العراق أن يبادر فوراً إلى إغراق السوق العراقية اُخْرُو بالكتب الماركسية والشيوعية. وإذا تعلَّز ذلك فليُطلب من القوات الحليفة أن تؤمّن للسوق العراقية، ومن السوق الأميركية أو البريطانية تحديداً، أربعة كُتب، بعضها مترجم إلى العربية ومنتشر في أسواق مجاورة للعراق:

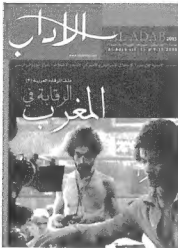
١ - كتاب هاورد زين، تاريخ الشعوب من وجهة نظر الولايات المتحدة (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٨٠، والرابعة عام ١٩٩٩). وهو كتاب من ٧٠٣ صفحات يتحدث فيه كاتبه الأستاذ الجامعي منذ أكثر من ثلاثة عقود عن المعاملة الممتازة التي تلقّاها الأميركيون الأصليون (الهنود الحمر)، والأميريكيون الأفارقة، والأميريكيون اللاتينيون، والأميريكيون الفقراء عامة، واليابانيون، والعرب، والأفارقة... منذ تأسيس الولايات المتحدة عام ١٤٩٢ إلى مطلع قرننا الجديد.

٢ - كتاب نوم تشومسكي، الذرة الإنسانية العسكرية الجديدة (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٩، وتُرجم إلى العربية). وهذا كتاب يفصّل في الدوافع الأميركية والناشئة النبيلة وراء قصف يوغوسلافيا، رغم علم القاصفين بأنّ فعلهم سيستبّب في خروج الكوسوفيين من ميوتهم. كما يَسرّد قصة تحالف النظام العراقي البائد مع الدول المتورّدة أثناء قصف الأكراد بالغازات السامة وقتل الناشئين العراقيين.

٣ - كتاب ويليام بلوم، الدولة المارقة (صدرت طبعة منقّحة عام ٢٠٠٢، وتُرجم إلى العربية منذ بضعة شهور). مؤلّف هذا الكتاب عمل في وزارة الخارجية الأميركية حتى عام ١٩٦٧، ثم غادرها بسبب اعتراضه على أعمال بلاده الإنسانية العظيمة في فيتنام. والكتاب يتوسّع في تاريخ الولايات المتحدة الحديث، ويخصّص عشرات الصفحات للحديث عن التزامها الفاتح بحقوق الإنسان وبالرفائيق الدولية كافة... ومن هنا، طبعاً، تسميتها بحسب عنوان الكتاب، «دولة المارقة». (التتمة ص ٩٦)

لبنان ٥٠٠٠ ل.س. - سوريا ١٠٠ ل.س. - مصر ٧ جنيهات - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٣٠٠٠  
مليماً - الأردن ٢٥٠٠ فلس - البحرين ٢٠٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١٥٠٠ فلس.

# الفهرس



١	الافتتاحية دع المراح جالدا... يا رقيقا..... سماح إدريس
٤	الأبحاث والمقالات الاحتلال الأميركي للعراق والإسرائيلي لفلسطين ١٧، أوجه الشبه والاختلاف..... رائدة المصري
١٠	الجنون الأصلية للأرهاب، عاصمان على أحداث أيلول..... جورج حماد
٢١	دراسة أدبية رضوى عاشور تلعب حاكماً متخيلاً يملأ الحقيقة..... يمتنى العيد
١٨	قراءات الملف الماضي من الأرباب ماذا لو سألونا هجاء ما الذي فعلتموه بأناشيدنا ٩..... إبراهيم نصر الله
٨٩	مناقشات الوحيقات، رندوم وملاحظات..... أحمد الخميسي، عادل سمارة، نجيب عوض، بسام شفيق أبو غزنا إبراهيم مكاوي، محمد هرييد
٢٧	حوار مع الروائي التونسي صلاح الدين بوجاه..... أجراه ماجدا الصامرائي
٣٢	الملف ملف الرقابة العربية (٢)، الرقابة في المغرب..... إهداء وتقديم: عبد الحق لبيض
٣٤	جريدة سرية بالمشورات والأنشطة الثقافية المتنوعة والمراقبة..... ع.ل.
٤٣	الرقابة في زمن الانفتاح قراءة في المجالات المغروبة المتنوعة خلال الثمانينيات..... عبد الحميد عقار
٤٨	الرقابة الصحفية في المغرب، الصراع بين مسكوكين..... عبد الرحيم أزوري
٥١	الرقابة ومصادرة حق الصراع الحضاري..... عبد القادر الشاوي
٥٢	رقابة الصورة..... مصطفى السنائي
٥٧	السينما المغربية: شهادة على تجربة المصادرة..... عبد القادر لقطع
٦٠	حوار مع الكاتب عبد الصمد الجعبر، لهذا أريدنا منع لحظة ظلال..... ع.ل.
٦٥	تأملات في مقاس الممارسة الثقافية ومضغاتها بالمغرب..... عبد الحميد عقار
٦٩	رقابة بصفة الجمع..... خنانة بنونة
٧٣	إن ترى العالم بأعينهم..... زهرة زرواي
٧٦	الغصن تداعى الظل..... ياسين حداد
٧٨	قصّة ذرع ضريبة..... جاليت وينترسون
٨٠	(ترجمة: هناء سليمان)
٨٤	أصمات البحري
٨٦	مصحفات من رواية مخطوطة امرأة الغالب..... مهدي عيسى الصقر

# الاحتلالان الأميركي للعراق والإسرائيلي لفلسطين ٦٧

أوجه الشبه والاختلاف

. رانديّة المصري \*

«نحن لا نُخصّصهم. لا اعتبار لهم. ليسوا مهمين». ذلك كان جواب مؤلف في وزارة الدفاع الأميركية عن سؤال هيلين توماس «كم عراقياً قُتل في هذه الحرب؟»<sup>(١)</sup> وكما في حالة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، قُتل عراقيون عند الصواجز الأميركية وداخل بيوتهم أثناء غارات ليلية شُنت عليهم<sup>(٢)</sup>.

فرح فاضل، العراقية البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعاً، قتلته قنبلة قذفها جندي أميركي عبر نافذة بيتها. وأما مروان حسن فقد أُطلق عليه الأميركيون النار وهو اعزل من السلاح حين كان يُركض بحثاً عن أخيه؛ إذ توّعت قوات الاحتلال الأميركية أن هناك عناصر من فدائيي صدام في المبنى.

والحكاية نفسها في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧. فقد قُتل ثائر صبيوي، وهو في الحادية عشرة، حين طُردت قوات الاحتلال الإسرائيلية مبنى سكناً مؤلفاً من ثمانين طبقات وأمطرته بالنييران، زاعمة أن عناصر مسلحة فلسطينية كانت تخفي فيه<sup>(٣)</sup>.

يوماً بعد يوماً. بل إن الاحتلال متراپطان أيضاً.

كيف يتشابه الاحتلالان؟

وجه الشبه الأبرز بينهما هو الاحتلال للمدني نفسه؛ فثمة ١٤٠ ألف جندي أميركي (مضلساً عن ١١٠,٦٠٠ جندي بريطاني، وقوات مبعثرة أقل عدداً من بلدان أخرى) يحتلّون العراق؛ وهناك عشرات الآلاف من الجنود الإسرائيليين يحتلّون الضفة وغزة (ناهيك عن الاحتلال الإسرائيلي لموتفعات الجولان السورية ومزارع شعبا اللبنانية). (ملاحظة: لم تُكّلف الحكومة الإسرائيلية عن العدد الحقيقي لقوات الاحتلال الإسرائيلية). وجميع القوات، من الطرفين، تأتي مع تجهيزاتها الكاملة وببائنها ومروحياتها وجنودها المتأقنين بسهولة فائقة للضغط على الزناد.

• المؤلّي العراقيون/والمؤلّي الفلسطينيون لا اعتبار لهم - بحسب المحتلّ في العراق المحتلّ، كما في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧. لا اعتبار للناس، وبخاصة لوتهم، في عين المحتلّين.

جنود يمزّجون الجنودان بالرصاص، فيفترقون اللبناني ويقتلون العائلات بحثاً عن «الإرهابيين». جنود يُقبضون على الرجال لأسابيع بل والشهور من دون الاتصال بعائلاتهم، ومن دون تهمة ولا محاكمة. عائلات ترقف طويلاً أمام الصواجز، أو تُنقذ من العبور لوجود أسلحة رشاشة أو عرائق إسميتية أو باقيات، فيُسجون داخل مدنها نفسها. صحفّيون يتمرّسون للمضايقة، والتهديد، والقتل أيضاً. وسائل الإعلام الأميركية تتجاهل الأتوات... إلّا أن يكونوا جنوداً. ملايين الناس يقترون إلى الخدمات الأساسية، والمستقبل يبدو أشدّ حلكاً. وفي الحالات جميعها يصفّ المحتلون العنف ضدّهم وكلّهم منفصل عن الاحتلال نفسه. وفي الحالات جميعها أيضاً يتلعّم فاتورة الاحتلال للمواطنين الأميركيين عن أموال ضرائهم.

أما العراق ما تتحدث عنه، أم الأراضي الفلسطينية المحتلة؟ يصعب التمييز. فالاحتلال الأميركي للعراق، والاحتلال الإسرائيلي للفلسد الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة، بيدوان أكثر تشابهاً

\* كاتبة لبنانية. مديرة مركز الأبحاث التابع لمعهد الدراسات الجنوبية في كارولاينا الشمالية (الولايات المتحدة).

١ - Helen Thomas, "Who's Counting the Dead in Iraq?" *Miami Herald*, September 5, 2003.

٢ - Peter Beaumont, "Farah tried to plead with the U.S. troops but she was killed anyway," *The Observer* (UK), September 7, 2003.

٣ - Palestinian Committee on Human Rights, "Hebron: Israeli military operation leaves one child dead and two wounded," (PCHR), Report, September 9, 2003.



المدنيون والمراسلون لا اعتبار لهم عند الجنود الإسرائيليين والأميركيين: ضحايا مجزرة جنين ٢٠٠٢، والشهيد طارق أيوب مراسل الجزيرة، في العراق

يُعتقلون، ويشتجرون، ويُعدَّبون، وشُءاء معاملتهم في معتقلات سرية، وفي أماكن سرية، ولا يُسمح لهم بزيارة محامين ولا بمراجعات قضائية ولا حتى بالاتصال بعائلاتهم.

في العراق الآن، مركزُ الاعتقال الأبرز هو في الطابق السفلي من المطار، وكان أيَّامَ صدام حسين أكثرُ السجون رعباً. لا يُسمح للزَّوار بدخوله؛ وحذمهم موظفو اللجنة الدولية للصليب الأحمر هم الذين يستطيعون زيارة المعتقلين، شرط ألا يُشغفوا عمَّا رآوه.<sup>(٦)</sup>

وفي إسرائيل، هناك مركزُ رقم ١٣٩١، وهو قاعدة عسكرية سرية يُحتجز فيها عددٌ لا يُعرف من الفلسطينيين والمثمنين. في هذا الصدد كتبت «اللجنة العامة المناهضة للتعذيب» في رسالة مفتوحة إلى الحكومة الإسرائيلية ما يلي: «إنَّ وضعاً يكن فيه الأشخاص مستجزيين في موقع سرّي، وإنَّ مكاناً لا تُشرف عليه السلطات المعنية ولا منظماتُ حقوق الإنسان ولا

وسائل إعلام أجنبية كثيرة، كما قُتلَت قواتُ الاحتلال، وويلامبالاة، مارن دانا حين أطلقت النارَ عليه ظانَّةً - على ما زعمت - أنَّه آلة تصويرية قاذفةُ صواريخ.

وفي المناطق الفلسطينية المحتلة عام ٦٧، ضُرب الصحفيون وهُكِّدوا وتعرَّضوا للمضايقات والمنع؛ واستُهدِفَت مقرَّاتُ الإعلام وبُثِّرت، وصُولتِ الآن البثُّ.<sup>(٧)</sup> وأُطلقت قواتُ الاحتلال الإسرائيلية النارَ على نزيه دروزه وجايمس ميلر فقتلتهما، وتمَّ تجاهلُ مقتلهما كما حصل مع أيَّوب وپيرتسيوك وكوسو ودانا.<sup>(٨)</sup>

فإذا كان قتلُ الصحفيين (الذي هو في أحسن الأحوال ناجمٌ عن الإهمال) يرمِّ دون عقاب، فكيف سيُشعر الصحفيون بالأمان؟ لم أنَّ المحتلَّين - إسرائيليين وأميركيين - يُثَقِّلون عمداً مناحاً من الخوف من أجل منع وسائل الإعلام من تغطية انتهاكات المحتلَّين لحقوق المدنيين؟

● لا محاكمات، لا تهمة، توقيفات فحسب، منبات، بل آلاف من الرجال والغيتيان،

وكما يتمُّ تشجيعُ وسائل الإعلام الأميركية على إحصاء كلِّ ضحية أميركية، تقوم هذه الوسائل نفسها بتجاهلِ الموتى المدنيين العراقيين «الذين لا يجري إحصاؤهم مثلاً لا يُعرف باسمائهم»<sup>(٩)</sup> ويتجاهلِ الموتى المدنيين الفلسطينيين أيضاً الذين يُضرب صُنفاً عن نِكرهم ولا يُعتبر موتهم عنفاً.<sup>(١٠)</sup>

● والمراسلون لا اعتبار لهم أيضاً، ثم إنَّ السياسة اللئيمة حيال المراسلين في العراق المحتلَّ والمناطق الفلسطينية المحتلة عام ٦٧ هي: أطلقِ النارَ أولاً، ثم اسألِ ثانياً... إنَّ كان ثمة ضرورةٌ للسؤال أصلاً.

ففي العراق تمسَّدتُ قواتُ الاحتلال الأميركية استهداف المراسلين، كما حصل حين أمرت وزارة الدفاع الأميركية بتنفيذ ١٠ ضربيات ضدَّ «وسائل إعلامية»<sup>(١١)</sup> فقتلت طارق أيَّوب في مكتب «الجزيرة» في بغداد، وهو مكتبٌ معروفٌ للجميع. وقُتلَ أيضاً تاراس پروتسيوك وخوسيه كوسو في فندق فلسطين، الذي هو مقرُّ

١. Peter Beaumont, op.cit. ٢. Media Advisory, August 22, 2003. ٣. Mark Forbes, "Dumb" bombs used to topple Saddam," The Age (Australia), June 3, 2003. ٤. International Press Institute, "IPI Releases Updated Report on Press Freedom Violations in Israeli/Palestinian Conflict," June 13, 2003. ٥. "Reporters Without Borders, "Israeli army's attitude: Regret, but no real enquiries and certainly no one punished," July 30, 2003. ٦. Sarah Smiles, "Status of detainees remains unclear," Baghdad Bulletin, June 24, 2003.

المحاكم ولا يُسمح للمحامين الذين يمثلون المحتجزين بالدخول، إن ذلك كله أمرٌ خَبَرْتاه من الأنظمة الديكتاتورية حيث يُخبرُ المستبثون الجبابرةُ خصوصهم في مسمكات اعتقال مجهولة<sup>(١٤)</sup>، وهو أيضًا ما خَبَرْتاه من قوات الاحتلال التي تنقُص بخطاب «التحرير» و«الأمن».

● **والناس يعانون:** البطالة المنتشرة (التي تصل إلى ٦٠٪ من مجموع القوة العاملة في العراق والمناطق الفلسطينية المحتلة عام ٦٧)، وقلّة المياه النظيفة، وصعوبة الوصول إلى المستشفيات، والنقص في اللوازم الأساسية كالطعام والدواء، وعُشُر التثقل ما بين المدن والجوار... كلُّ هذه الأمور، وكثيرٌ غيرها، هي من التبعات المباشرة للاحتلال في كلِّ من العراق والأراضي الفلسطينية عام ٦٧.

وفي الوقت ذاته يُنظر إلى المقاومة الفلسطينية والعراقية بوصفها «إرهابًا»، وإلى المحتلّين أنفسهم بوصفهم ضحايا.

وفي الوقت ذاته أيضًا يواصل المحتلون خلقَ «مقائع على الأرض»، فسيبتي الإسرائيليين مستوطنات إيهودية صرفة، وهاغانمًا عسكريًا عازلةً، وتُسرقون الأرضَ

ومصادر المياه من الفلسطينيين. وتبني الإدارة الأمريكية نظامًا جديدًا في العراق - قوانينَ جديدةً، مصرفًا جديدًا، عقودًا جديدةً - من أجل خصخصة الموارد العراقية، خالفةً بذلك حاجزًا اقتصاديًا بين العراقيين ووطنهم<sup>(١٥)</sup>.

وفي الاحتلالين معًا يقوم دافعوا الضرائب الأميركيون بتفطية الأكلاف: فيُدفعون ٦,٣ بليون دولار سنويًا لتمويل الاحتلال الإسرائيلي<sup>(١٦)</sup>، وأكثر من ٧٣ بليون دولار - حتى الآن - لتمويل الاحتلال الأمريكي. بل إن بوش طلب من الكونغرس السماح له بصرف ٨٧ بليون دولار إضافية على الأمور الحربية.

#### مشاهد من داخل الإمبراطورية

● **أرباح من دون أكلاف:** كِلا الاحتلالين يُترك أثره في الخطط التنموية المستقبلية للمحتلّ. ففي حالة الولايات المتحدة ستكون للسيطرة على هذه الرقعة الواسعة تبعاتٌ هامةٌ على الإمبراطورية الأميركية. ومنذ عام ١٩٤٥ والولايات المتحدة في سباقٍ للسيطرة على موارد العالم قبل أن يسيطر عليها الإمبرياليون الآخرون -

وكُلهم يستعزّون إلى إحكام هيمنتهم الكاملة عبر منع الشعوب الأصلية من التصرف بمواردها. ويكون هذا غالبًا عبر استخدام وسائل «التجديد العنيف».

إنَّ السيطرة الأميركية على العراق ستُشكّل رافعةً للولايات المتحدة في سياقها مع اللاعبين العالميين الآخرين - أي الصين وروسيا وأوروبا - للتحكّم بالأرض والنفط والمكاسب الجيوسياسية. كما أنَّ الولايات المتحدة بعد احتلالها لافغانستان والعراق قد ضاعفت من قوة ضغطها على إيران وسوريا، وقوّت من تأثيرها في المنطقة بأسرها.

غير أنَّ وجود خطة أميركية على هذا النحو لا يعني ضمانَ تحقيقها الفعلي. فبسبب الأكلاف المالية المتزايدة (التي قد تصل إلى ١٦٠ بليون دولار إنَّ حصل بوش على مطالبته)، وبسبب الخسارة المتزايدة في أرواح الجنود الأميركيين نتيجةً للاحتلال، وكلِّ ذلك في خضمِّ بطالةٍ داخليةٍ (أميركية) متفاقمة وتقليصٍ في الميزانية الأميركية المخصّصة للأمور الداخلية، فقد يُنقُص احتلالُ العراق بوش إلى خسارة الانتخابات الرئاسية القادمة في أدنى تقدير، وقد

١ - Letter from the Public Committee Against Torture to the Israeli Government, September 4, 2003.

٢ - رانية لصصري، «إعادة بناء، أمّ تقص البناء؟» مجلة الأكراب ٨/٧، ٢٠٠٣.

Corporate Invasion of Iraq, Institute for Southern Studies, www.southernstudies.org

Stop U.S. Tax-Funded Aid to Israel Now!

٢ - SUSTAIN (Stop U.S. Tax-Funded Aid to Israel Now!). www.sustaincampaign.org





الغالبية تدفع لتزويد الفلسطينيين الإسرائيليون وشركات السلاح الأميركية

الإسرائيليون. فضلاً، وبحسب تقرير منظمة «السلام الآن» الإسرائيلية عام ٢٠٠٢، يقل عن ٥٢٢.٦ مليون دولار للمستوطنين (الذين يشكلون ٢.٩٪ فقط من كل سكان إسرائيل) والمستوطنات، منها ٤٤٠.٥ مليون دولار على الأقل مكرسة لصواريخ فائضة ما كانت ستُشترى لو لم توجد المستوطنات. وهذه الأرقام لا تعبر إلا بشكل جزئي عن الأموال المخصصة للمستوطنين. ويصير أكثر تحديداً، يتلقى المستوطنون الإسرائيليون فوائد عبر الإسكان المدعوم الذي ما كانوا سيحصلون عليه من تلقاء أنفسهم. وبحسب «المؤسسة من أجل السلام في الشرق الأوسط»<sup>(٣)</sup> فقد صنفت أكثر المستوطنات كمناطق ذات أولوية قومية - أ. وهذا يتيح لها أسس المساعدات. أو كمناطق ذات أولوية قومية - ب. ويومئذياً تحصل هذه المناطق على مساعدات أقل. وتتضمن لأحد الحوافز التي تطبق على مستوطنات الأولوية القومية ١ والأولوية القومية ب ما يلي: إعانات لبناء المساكن (٥٧.٠٪ دولار إلى ٨١.٠ دولار هبة عن كل مسكن إضافة إلى عروض ميسرة: ٧٥٪ - ١٠٠٪ إعانات لإيفاء ائلاف التعمية). والتدريب (١٠٪ إعانات لروضات الأطفال)، والمعلمين (٧٥٪ إعانات لاقساط

● الغالبية تُدفع لتزويد الفلسطينيين الإسرائيليون وشركات السلاح الأميركية. من المستفيدين الكثير من احتلال العراق والأراضي الفلسطينية عام ٦٧ للشركات العسكرية الأميركية والمصانع التي تُدعمها. فمنذ عام ١٩٩٥ اشترت إسرائيل ما قيمته ٨٧٤.٠٩١٢.٤٢٧ دولار من الأسلحة من الولايات المتحدة. كما حُصِّصت ٤.٥٩٥.٣٥٠.٠٠٠ دولار إضافية لبيع أسلحة إلى إسرائيل. وبالإجمال فإنّ الجُمع الصناعي الحربي الأمريكي كسب، خلال السنوات الثماني الأخيرة وحدها، أكثر من ١٣ بليون دولار نتيجة العقود والبيعات إلى إسرائيل<sup>(٤)</sup>. أما الـ ٧٣ بليون دولار التي صرفتها الولايات المتحدة على حربها في العراق، والـ ٨٧ بليوناً التي يُلقبها بوش إضافياً، فسُتقسم أساساً بين دعم للقوات المسلحة الأميركية وإعطاء ملايين الدولارات أرباحاً مباشرة إلى الشركات الأميركية من أجل «إعادة بناء» مزعومة للعراق. ولكن ماذا يجني الفاس في إسرائيل والولايات المتحدة، إذا وضعت الشركات جانباً، من يستفيد في البلدين من احتلال أراضي الآخرين؟ بالنسبة إلى الإسرائيليين، يتلقى المستوطنون معونات أكبر، وبشكل غير متوازن، مما يتلقاه بقية السكان

يُضعف الإمبراطورية الأميركية في أقصى تقدير بما يُؤلف توسُّعها بل ويقلصه. والأمر مماثل في حالة إسرائيل. فاحتلال الأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧ قَرَّبَ الكيان الصهيوني من حلمه بإنشاء إسرائيل الكبرى ومن إعلانه شأنه كقوة إقليمية عظمى. غير أنّ تحقيق مثل هذه الغبطة ليس سهلاً. وثمة أصوات داخل البنية الصهيونية تُدَّعي بأن احتلال الأراضي الفلسطينية يُكلف ثمناً داخلياً باهظاً. وما إنَّ السراهم بورغ، رئيس الكنيست الإسرائيلي بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٣ والرئيس السابق لـ «الوكالة اليهودية» من أجل إسرائيل، يقول في واحدة من افتتاحياته الواسعة التداول إنَّ إسرائيل اليوم تجلس على «سيقالة من الفساد، وعلى أسس من القمع والظلم». وتحدث بورغ عن خيارين فقط: إمّا إسرائيل الكبرى، وإمّا الديمقراطية، لا الاثنان معاً<sup>(٥)</sup>. ليس بإمكان الاحتلال، إذن، أن يستمرَّ ما دون استنزاف المحتلَّين استنزافاً كبيراً على الصعيدين المالي والبشري. وعلى المدى الطويل فإنَّ كلا الاحتلالين لا يُمكن أن يستمرَّ من دون تحويل داخلي كبير للمحتلَّين أنفسهم.

١ - Avraham Burg, "A Failed Israeli Society is Collapsing," *International Herald Tribune*, September 6, 2003.

٢ - "Arming the Occupation," Report by the Institute for Southern Studies, May 2003. [tnnie@southernstudies.org](mailto:tnnie@southernstudies.org)

٣ - <http://www.fmep.org/1197.html#settlements>

الدراسات العليا): ٨٠٪ إغاثات لاستئجار البيوت، وللمعامل الاجتماعية (٧٥ - ١٠٠٪ إغاثات للتأثلات)، ٥٠ - ١٠٪ تخفيضات على شرائب الدخل، ٣٥ - ٤٠٪ إغاثات لإفناء أكلاف الخيم الزراعية المخصصة للفخار والزهور.

وبالنظر إلى الأزمة الاقتصادية التي تعيشها إسرائيل منذ سنوات، فإن لهذا البذخ على قسم صغير من السكان الإسرائيليين (الا وهم المستوطنون)، حتى في رأي الإسرائيليين «في التيار السائد»، تبعات سياسية على بقية السكان الإسرائيليين... ناهيك عن تبعاتها على الفلسطينيين، وهي أسوأ بلا حدود طبعاً.

أما في الحالة الأميركية فيمكن القول إن أحدًا من الفقراء لا يستفيد من الاحتلال الأميركي للعراق. كما أن الطبقات الوسطى والفقيرة هي التي تُثَقِّل أساساً فاتورة الاحتلال من جيوبها، بل ومن أرواحها أيضاً. وفي حين تزداد الميزانيات الحكومية المخصصة للحرب والأعمال العسكرية، تعاني هذه الميزانية أزمات مالية كارثية، ويتم تقليص الخدمات الاجتماعية والسياسية في الأمور التربوية والصحية، والنضريون الكبار: أصحاب الدخل المنخفض، والمثليون (أي الأقارقة

الأميركيون، والأميركيون الأصليون أو ما يسمّى بالهنود الحمر، والأميركيون من وسط أميركا ومن أميركا الجنوبية).

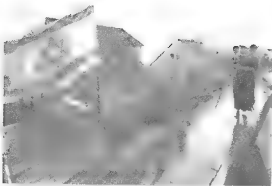
وحتى داخل الجيش الأميركي نفسه، فإن أصحاب الدخل المنخفض والمثولين هم الذين يُثَقِّلون الثمن، فالحق أن الزيادة في الموازنة العسكرية، والزيادة في المصاريف على الحرب في العراق، لم تُترجموا زيادة في الصرف على الجنود عند خطوط المواجهة أو على المحاربين الذين عادوا إلى أوطانهم من ساحة الحرب. علاوة على أن القوات المسلحة الأميركية، يرغم وصفها بأنها جيش من «المثوليين» لكون الخدمة العسكرية غير إيجابية، تتكاثف على نوع غير متوازن من أصحاب الدخل المنخفض الذين ينخرطون في الجيش لعدم توفر وظائف أخرى أو فرص تعليمية، ويتكاثف من المثولين أيضاً. كما أن وزارة الدفاع، ولأول مرة في تاريخها، نهبت إلى أبعد من حد الفقراء على الالتحاق بالجيش. فهي اليوم تعمل بنشاط على انضمام مجموعة إثنية محددة إلى الجيش. تقول جريدة إنديبندينت البريطانية في هذا المجال إن «ممثلين كباراً في وزارة الدفاع الأميركية حَسَنُوا الأميركيين من وسط أميركا وأميركا الجنوبية بأنهم أكثر مجموعة إثنية يشر أنضمائهم إلى الجيش بدورهم حسنة: ذلك

لأن أعدادهم تزداد بسرعة في الولايات المتحدة، ويُصَوِّفون مخزوناً كبيراً من الرجال ذوي الدخل المنخفض وفي عمر الجندي ولا يُمكن إلا إمكانيات توظيفية وتعليمية ضئيلة أخرى. ثم إن جهود ضم الناس إلى الجيش امتدت إلى من لم يتجنسوا بعد، وكانت إدارة بوش قد أبلغت هؤلاء أن بمقدورهم تقديم طلب للحصول على المواطنة في اليوم الذي يلتحقون فيه بالجيش، بدلاً من أن ينتظروا السنوات الضمنية المحددة لتقديم الطلب عادة عقب حصولهم على البطاقة الخضراء، وحالياً هناك أكثر من ٢٧ ألفاً من غير المتجنسين، أغلبهم تقريباً من أميركا الجنوبية ووسطها، وقد سجلوا أسماءهم للانضمام إلى الجيش... (وهؤلاء) يقسمون الآن باخطر أعمال القتال، وأعدادهم لا تتناسب [والمجموعات الأخرى]»<sup>(١)</sup>

حين نقارن بين من يُثَقِّلون بأرواحهم شرن هذا الاحتلال لقاءً معاشرة زمنية من جهة، ومن يستفيد من الاحتلال من جهة ثانية، ستكون النتيجة واضحة: الفقراء يُثَقِّلون ويُثَقِّلون لسلسلة الأغنياء في الولايات المتحدة، فمثلاً «معدت هالبرتون، المرتبطة بنائب الرئيس الأميركي (لا غيروها)، بأرباح تبلغ ٤٩٠ مليون دولار من أموال الضرائب عن عقير واحد قُدم لها ل «بناء العراق»»<sup>(٢)</sup>

١ - Andrew Gumbel, "Pentagon targets Latinos and Mexicans to man the front lines in war on terror," *The Independent* (UK), September 10, 2003.

٢ - [www.southernstudies.org/campaignpage.asp](http://www.southernstudies.org/campaignpage.asp)



الاحتلال الأميركي كروانيائي من طراز قديم، وأما الاحتلال الإسرائيلي فيعود إلى حلم خلق وطن لليهود ورحمهم

اهدانر بما يجري حالياً أن تتذكر هدف الحلم الصهيوني نفسه: ألا وهو خلق وطن لليهود، لهم وحدهم دون غيرهم، على أرض فلسطين.

وأهل مقارنة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين بالاحتلال الأوروبي للأميركيين هي التي تستشغل مقارنة أكمل بين أي احتلالين

#### خلاصة

بغض النظر عن أوجه الشبه والخلاف بين الاحتلال الأميركي للعراق والاحتلال الإسرائيلي لأراضي ٦٧، فإن كلا الاحتلالين يبغي وأحدهما الآخر ويدهمه. فاحتلال العراق - أو محاولته احتلاله حتى الآن - واحتلال الأراضي الفلسطينية لعام ٦٧ منذ ٣٦ عاماً يُعَدّمان خطط المحتلين الأميركيين والإسرائيليين من أجل المزيد من الهيمنة والإخضاع. وبغض النظر عن أوجه الشبه والخلاف بين الاحتلالين أيضاً، فإن المطالب واضحة في الحالتين: إنهاء الاحتلالين، وإنهاء الطبيعة العنصرية التي تغذي هذه السياسات، وإنهاء الصمت الذي يملكه كثيراً من الشعوب (عرباً وغير عرب) ويسمح لهذه السياسات بالاستمرار.

كارولينا الشمالية

• اختلاف في الهدف: على أن وجه الخلاف الأهم بين الاحتلالين هو في الهدف نفسه. فالاحتلال الأميركي للعراق هو احتلال كولونيالي ومن طراز قديم: إفرض الاحتلال على السكان: غَير القوَّات: شدَّة من السيطرة الأجنبية على مواردهم: بأن مستقبلهم: شيء بنامم التحتية بحيث تلائم المصالح الأجنبية لا الوطنية: عيَّن حكومة وأرسم خطاً لقيادة في المستقبل تعمق الشروع بين الناس: ثم أرحل عن البلاد، مسلحاً قواعده عسكرياً متناثرة وأثاراً طويلة المدى.<sup>(٣)</sup> هذا النوع من الاحتلال تكرر في العالم في السابق: من الاحتلالين الفرنسيين والبريطانيين للعالم العربي، إلى الاحتلال الأوروبية للكثيرة لأفريقيا، والاحتلال البريطاني للهند، وهلم جرا.

أما في فلسطين المحتلة عام ٦٧، فالهدف مختلف وأشدَّ هوياً. ذلك أن القواعد العسكرية الإسرائيلية والقوة العسكرية الإسرائيلية ليست مضمَّنة فقط لاحتلال السكان الأصليين في حد ذاته، بل مضمَّنة أيضاً للرد والهمم والتفويض (من غيتو). فالحق أنه لا يُمكن، ولا يجيبه النظر إلى الاحتلال الإسرائيلي لأراضي ٦٧ معزولاً عن تاريخه: وألسنا علينا من أجل فهم

#### أوجه الاختلاف بين الاحتلالين

ولكن برغم أوجه الشبه العديدة بين الاحتلالين تبقى هناك بعض الاختلافات الهامة

• خلاف في تصوير الاحتلالين داخل الولايات المتحدة، فمع أن الصحافة السائدة في الولايات المتحدة تصوِّر المحتلين الأميركيين والإسرائيليين ضحايا للمقاومة، وتصور المقاومة من عمل رجال غير عقلانيين ومتطرفين دينياً، فإن وسائل الإعلام الأميركية السائدة تسمي الاحتلال الأميركي للعراق «احتلالاً»، ولكنها لا تسمي احتلال إسرائيل للضفة وغزة «احتلالاً»، فمن بين المقالات المنشورة في الصحافة الأميركية السائدة في الفترة الممتدة من ٢ أيلول (سبتمبر) إلى العاشر منه لعام ٢٠٠٣، فقط ٢٨٪ من المقالات التي تتحدث عن قطاع غزة و١٦٪ من تلك التي تتحدث عن الضفة الغربية استُخدمت كلمة «احتلال». في حين أن ٩٣٪ من المقالات عن العراق استُخدمت تلك الكلمة<sup>(٤)</sup>

فهل ستواصل الصحافة الأميركية وصف الاحتلال الأميركي للعراق بأنه احتلال؟ أمْ عرض مبادرات سلام زائفة، إضافةً إلى مرور الزمن، سيسبِّحُران من ذلك الوصف كما حدث في حالة فلسطين؟

١ - اعتمدتُ على بحث سريع في اكسيس - تكسي. شكراً لجويس كرم على مساعدتها.

٢ - رائية المصري، مصدر سابق

# الجدور الأصلية للإرهاب

عــامــان على أحدات ١١ أيلول

. جورج حــداد \*

التي كان يجسدها المالكين وأحمد باشا  
الجزار وأضرابهم. وقد فشلت حملة  
نابوليون الشرقية في حينه، إلا أنها  
أسهمت في زعزعة نظام الاستبداد  
العثماني، الأمر الذي كان ولا يزال يضلُّ  
الكثيرين حول الحقائق الأساسية للتعامل  
الإمبريالي الغربي مع الشرق. ولكنَّ  
التاريخ يُبَيِّن أنَّ سياسة العزو  
الاستعماري كانت دائماً تُؤَدِّي إلى شيء  
غير «التنوير» والتحرير... وأنها كانت  
تُؤَسِّس للسيطرة والنزاعات الدولية،  
وتؤَسِّس أيضاً لردِّ الفعل التاريخي  
المتطوِّر في الثورات وحروب التحرير.

## المسؤول

من الطبيعي أنَّ اهتمام العالم كلّ قد  
تركّز منذ البدء على محاولة معرفة الطرف  
الذي قام بمجزرة ١١ أيلول. وبعد مضى  
كلّ هذا الوقت منذ ذلك التاريخ، يبدو أنَّ  
الامر ليس بهذه البساطة، فإما أنَّ الإدارة  
الأميركية لا تُعرف بعدُ العنوان النهائي  
الصحيح، وإما أنها تُعرف ولكنّها لا تقول  
كلّ ما تُعرف لاعتبارات تخرّصٍ مرمّكتها  
ضدَّ «الأعداء الحقيقيين» أو المفترضين،  
وإما أنَّ العملية والتعمية عليها هما مظهر  
لصراع أميركي داخلي تُعَشِّقُ (أو)

وحركة طالبان. وقامت الحربُ على  
أفغانستان، واحتلَّت إلى أجل غير مسمى  
بموجب هذه اللوائح وتحت عنوان  
«مكافحة الإرهاب». ثم بدأت تتوالى لوائح  
وتعميمات جديدة، لأطراف وبلدان جديدة،  
في مقبّلتها ما سُمِّي دول «محور الشر»:  
العراق (العربي) وإيران (الإسلامية)  
وكوريا الشمالية (الشيوعية). وقد تمت  
مهاجمة واحتلالُ العراق أيضاً تحت  
العنوان ذاته، أي «مكافحة الإرهاب»،  
الذي أعطى مداخلات جديدة، منها  
التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي  
لم يتمّ بعدُ (أو لا يراد) «اكتشافها»،  
وتحرير العراق من نظامه الدكتاتوري  
السابق.

هذه السياسة الاستعمارية بشعارات  
تحريرية وتخليصية ليست شيئاً جديداً  
على التعامل الاستعماري الغربي مع  
الشرق. ففيما مضى جاء الصليبيون  
بجهة تخليص قبر السيد المسيح من  
«الكفار الاتحاس»، بمن فيهم المسيحيين  
الشرقيين. كما قام نابوليون بغزو الشرق  
العربي، وجُشِّمَتْ نغمته عناء لبس الجبّة  
والعمامة، كنّى شمع دجال، لأجل غاياته  
الاستعمارية. وتحت شعارات «التنوير»  
و«التحرير» من أنظمة الاستبداد الشرقي

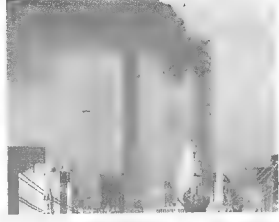
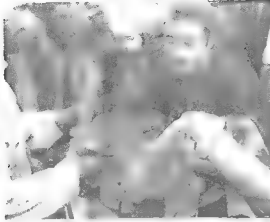
لا تزال الولايات المتحدة الأميركية تعيش  
أجواء الصدمة التي تعرّضت لها تحت  
وقع مجزرة ١١ أيلول ٢٠٠١. وحسب  
الملقّب، فإنّ هذه العملية لحقت في  
«إرهابيتها» عملية إحقاق الراضين  
اللائني التي قام بها الهنريون عام ١٩٢٣  
من أجل القضاء على الديمقراطية  
وإحكام قبضتهم على ألمانيا مهدداً  
للحرب. كما لحقت في «غفريتها» ومدن  
ضحاياها البشرية الهجوم الياباني  
للفاجي الذي حطّم الأسطول الأميركي  
في بيرل هاربور سنة ١٩٤١ وكان سبباً  
مباشراً لنفخ الولايات المتحدة إلى  
الانتماء في الحرب العالمية الثانية.

تتقاطع في هذه المجزرة مدوّ أبعاد  
مرتبطة، يمكن تلخيصها في بعدين  
أساسيين هما: البعد العملائى التركيب،  
المتعلّق في الأهداف والنتائج والبعيد  
الاشتمل والأخطر، أي البعد الإنساني -  
الأخلاقي.

## الذرائعية

شدّة وقود المجزرة، أصدورت الإدارة  
الأميركية فوراً بعض اللوائح الاتهامية  
الجائرة أو شبه الجائرة، وفي مقدمتها  
الشيخ أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة

♦ - كاتب لبنانيّ مقيم في بلغاريا.



المسك الذي انتهجه الإدارة الأميركية للردّ عن ١١ أيلول لم يَحمِ الاعتدالَ للجانب الإسلامي من هذه المجزرة (إلى اليسار: صمّية أفغانية)

هاتان الحقيقتان تبيّنان أنّه في هذه التراجيديا الإنسانية، يلق الضميرُ الإنسانيُّ مجرّداً أمام ظاهرة استخدام الكائن البشريِّ رعيّةً سلبيةً تتمّ التضحيةُ بها، أو للتأجيرةِ بها، أو عدم إقامة الاعتبار لها في لُصن الأحوال، من قبل مختلف الأطراف وفي مختلف الصراعات. وهذا ما يجعل من الضروريّ التوقّف عند البعد الإنسانيّ للإرهاب بشكل خاص، وللغف بشكل عام.

#### الثانسن المتخالفن

إنّ القصة التي تنف خلف مجزرة ١١ أيلول، إمّا كانت هويّتها، تعمّدت التعبير عن نفسها عبر الدم والنار والدمار، إمّا لإثبات وجودها الفاعل وإمّا للوصول إلى أهدافها الإستراتيجية. ويبدو أنّ بدء، علينا أن نلاحظ أنّ هذا النوع من «البشارة الدعوية الرابعة ليس شيئاً جديداً في تاريخ الثائسن البشريّ، ولا الكارّة الاجتماعية الأولى التي تهزّ السمينَ الإنسانيّ. فهي لا تسميّز عن غيرها سوى في أنّها حدثت في/ وضدّ أميركا بالذات. وقد قامت كلّ هذه الضجة الممالية ضدّ العنف والإرهاب من أجل مسابقة أميركا، نظراً إلى المكانة «المميّزة» التي تتمتع بها في النظام الدوليّ الراهن القائم على التمييز بين الدول والشعوب... حتى في الموت والمسي والمصائب.

بل كانت لهم أهداف إستراتيجية وعملانية محدّدة.

الثانية - لقد عبّر الشعبُ الأميركيُّ بصندوق عن فداحة المصائب الجال التي كلّ به، ووجدت تجاوباً وتعاطفاً من جميع شعوب العالم - وفي مقفمتها الشعوب العربيّة والإسلاميّة التي تعاني الأمرين بفعل الإرهاب المتصاوي الإسرائيليّ والصهيونيّ. ولكنّ المسلك الذي انتهجته الإدارة الأميركية الراهنة، ومن ورائها الطبقة الاحتكاريّة والصهيونيّة السائدة، يجعل من الصعب «اتهاشها» بلأها فد أقامت الاعتدالَ للجانب الإنسانيّ من للمجزرة. إذ إنّ هذه الإدارة تصرّفت حتى الآن بطريقة تؤكّد أنّ الهدف الرئيسيّ الذي يهّمها هو تأمينُ المصالح الإمبريالية - الصهيونيّة وفرض الزعامة الدولية الأحادية. وفي حين يرى البعض أنّ مجزرة ١١ أيلول كانت ضربةً خاصةً موجّهةً إلى هذه المصالح والزعامة، يرى البعض الآخر أنّها لم تكن سوى عملية مفتعلة، الهدف منها «تظهر» وتثبّت هذه المصالح والزعامة بالذات. وفي كتنا الحالتي، يقدّم أكثر فاكثراً أنّ الإدارة الأميركية استخدّمت وما تزال تستخدم القمحاليا الأميركيّة البريئة نريضةً للتوصل إلى أهدافها الإستراتيجية والعملانية.

تُشارك فيه قوى خارجيّة، أو لصراع قوى خارجيّة تُشكّون (أو تُشرك) فيه قوى داخلية أميركية

أما إذا صمّمنا أنّ «الإرهاب الإسلامي» وأكثر حصراً «البنلادني» أصبح من القوة والدراية بحيث يستطيع تنفيذ مثل هذه العملية الفائقة التخطيط والتنفيذ، والتي تُكثف عن اختراق في عمق تركيبة النظام الأميركيّ، فهذا يعني حدوث انقلاب حقيقيّ في الإستراتيجية الدولية يصعب تصديقه، انقلابٌ هو في غير مصلحة القلب الأود. وهذا كلّ يجعل السؤال عن العنوان النهائي والصحيح لـ «مركز الإرهاب الدوليّ» سؤالاً غائماً وصعباً لا تُمكن مقاربة الجواب عليه إلا عبر متابعة السياسة الأميركية، وروبر الفعل عليها، والأحداث الدولية المرتبطة بها، لسنوات طويلة بل ولعقود قادمة أيضاً.

#### القرابين البشرية

ولكنّ مع أهمية مقاربة هذا الجواب، لا بدّ من النظر في مسألة البعد الإنسانيّ لهذه المجزرة. ومن هذه الزاوية لا بدّ أن نلاحظ أنّه، بمرور الوقت وتراكم القرائن، تتأكد للمراقبين حقيقتان:

الأولى - أنّ مهندسي هذا الزلزال لم يكونوا ينطلقون من ردّ الفعل، ولا يهدفون فقط إلى مجرد الانتقام والقتل والتخريب،

نتطلق من ذلك إلى القول إن العنف، بكل أشكاله «العدوانية» و«الدفاعية» و«المشروعة» وغير «المشروعة» هو تعبير عن التناقض الوجودي للإنسان في مرحلة المجتمع التمييزي، طبقيًا، عنصريًا، إثنيًا، قوميًا، إلخ. وهذا التعبير إنما يبنى على منطق القسوة، الخاص بـ «الإنسان الحيواني» و«التناقض لخلق العقل، الخاص بـ «الإنسان الإنساني»» ويضطلع منطق القوة هذا إلى اليوم بدور المؤلدة للتاريخية الرئيسية للظواهر المجتمعية. وهو يتنم:

– إنَّما كوسيلة حيوانية ذات غائية حيوانية مضادة للإنسان الإنساني والنطق بالعقل الإنساني. وهنا يوجد انسجام بين الوسيلة والغاية، اللتين تتداخلان في مركب واحد يُعمل على قاعدة استمرار إخضاع الكائن البشري والمجتمع البشري لشرعية الغاب:

– وإنَّما كوسيلة حيوانية ذات غائية إنسانية مضادة لمركب الوسيلة – الغاية الحيواني. وهنا يوجد تناقضٌ شكلي بين الوسيلة والغاية، إذ إنَّ الهدف الإنساني المثالي يتم تحقُّقه عبر الوسيلة الحيوانية الواقعية. ويُشبهه ذلك، في الطب مثلاً، استخدام اللقاح لمعالجة المرض للمعِين بجرثومة المرض ذاته. وفي الميثولوجيا المسيحية مثلاً، يوجد مفهوم قهر لوت بالحواء. وهو مفهوم نجد ترجمةً واقعيةً

أخرى له في العمليات الاستشهادية الفلسطينية. هذه الوسيلة، المتناقضة شكليًا مع غايتها، يُقرِّضها واقع الوجود الإنساني للمركب، وتتبع من منطق العقل الإنساني وتُخضع له كضرورة طبيعية – اجتماعية للإخضاع التصنعي التدريجي للحيوان الكامن في قرارة الإنسان.

في هذه العملية المتناقضة برهانٌ وجوديٌّ على أنَّ المرء لم يتناهن بعد إلى درجة الانسجام الإنساني مع ذاته، أي إلى درجة التسامي الكافي على الحيوان الذي ترقى منه. وفي هذه السيرة التطورية المتناقضة، تُشكّل باستمرار مفاهيمٍ وقيمٍ سياسية – منافية فرَضتها الاجتماع الإنساني، مثل:

– مفهوم «الغاية تبرِّر الوسيلة»

– توتنة استخدام العنف وخوض الحروب، ونشوء مفاهيم مثل: «الجهنم ضد الإنسانية»، «أصلحة الدمار الشامل»...

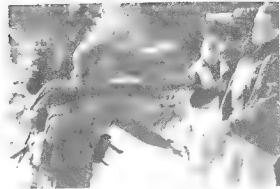
– شرعة الدفاع للمشروع عن النفس، وحقُّ المقاومة ضدَّ المعتدين.

– السلاسية (pacifisme) التي ترفض اللجوء إلى العنف حتى في حالة الدفاع المشروع عن النفس؛ فهي تُقَدِّر أنَّ الانتصار هو أولاً وأخيرًا الانتصار الأخلاقي على الذات الحيوانية الكامنة في الإنسان.

إنَّ ظاهرة «الإرهاب» برَّستها، إنَّما كان المنطق والوسيلة والغاية التي تقودها، ليست سوى مظهر من مظاهر العنف للبرِّ أو غير المبرِّر غائيًا، في المجتمع الإنساني الذي لا يزال قائلًا على المصالحات التمييزية المؤلدة للتناقض والتناحر. ولا يُمكن فهم هذه الظاهرة والتصدي لها إلا في سياق طبيعة العنف بدوره في السيرة التاريخية العامة للمجتمع الإنساني.

#### القاعدة الوجودية للعنف

لا شك أنَّ الأدیان والتيارات الإيديولوجية العامة كانت، على الدوام، بمثابة المعبر والموجه والنظام للسلوك الإنساني. وإذا تجرَّدنا من الجانب اللاهوتي الماورائي، والفكري – المثالي، وأخذنا التسيولات والتطبيقات العملية للدعوات الدينية والإيديولوجية، أُنكنا القول إنَّها كانت، بشكل عام، تمثل حالة التباسية، فهي، من جانب، تدعو إلى الخير والسلام بين الناس؛ ولكنَّها، من جانب آخر، تبرِّر ممارسة العنف ضدَّ «الأغيار» و«الكفار» و«المُشرِّكين» وشبَّ أنواع «الأعداء». وقد أثبت التاريخ أنَّ هذا المنطق التمييزي الاستعماري، فيما بين النحن والغير، يطبق أيضًا، وبالشكل التكفيري التخويني نفسه، على داخلية كلِّ جماعة بعد ذاتها.



العلاقة المتضاربة بين الصهيونية والإمبريالية تؤكد بشكل مذهل «قيمة» التنوير والمصلحة مع قيم النظامية

لهذه «القاعدة» بل هو مجرد تقرير للأمر الواقع الذي علينا أن نواجهه بالمنطق العقلي، بعيداً عن الانفصالات وردود الفعل.

### «الحضرة» الإمبريالية

مع كل إيجابيات الليبرالية والديمقراطية الاستثنائية والمبتذلة، ومع كل الجوانب التقسيمية للشهوة الصناعية وثورة الاتصالات والجوانب الإنسانية المشروطة للعولمة، فإن النظام الإمبريالي المعاصر لم يمثل انقلاباً نوعياً معاكساً على القاعدة الوجودية التاريخية للعنف، بل كرّسها بكثر ما يكون من الوضوح والشفافية ذلك أنّ هذا النظام، الذي قوام على التمييز الاقتصادي المطلق، كُرس وفاقم جميع أشكال التمييز، بكل ما تولده من الصراعات والنيات تحلق العنف. وبما يزال العنف هو اللبنة الأولى المساندة في العلاقات الوطنية والإقليمية والدولية.

والسبب الأولي في ذلك هو أنّ حياة المجتمع البشري أصبحت في عصرنا مرتبطة كلياً لرأس المال. فهذه القيمة الأساسية في الرأسمالية، التي تنبثق عنها كل «القيمة الأخرى»، هي العنف، الذي تكون به الملكية الامتياز، والصراع عليها، واشكال انتقالاتها، والتحرر منها. ولا شك أنّ الرأسمالية أطلقت مبادئ الحرية والإشياء المساواة، في الفكر

الصهيانية، المختارين من أرباب الإمبريالية والفاشرين من البورغويات واليهودوكويست إلى فلسطين بعمق الاستعمار «التحريرى» و«التمهيني»، يفلتون اليوم الشيء نفسه ليستأجروا أرض فلسطين من العرب «النجسين» و«الخلفين»، مضيقين وهدد بفقر إلى «وعد الرب».

– والمسيحيون جاؤوا بعدهم بنظرية وأخلاق الغداه، وكان الصليب بالنسبة إليهم رمزاً للتضحية بالنفس في سبيل الخير. لكنّ الصليبيين والمستعمرين «المسيحيين» استغلّوه وجعلوا منه رمزاً للغزو والوحشية.

– والمسلمون بدأوا ثورة على أرباب الاصنام والأكاسرة والقياصرة، كاصحاب رسالة مضطهدين ومهاجرين ومجاهدين. ولكن اصطدمت من بينهم، وباسم الدين الحنيف، أصنام جديدة، كالماليك والمسلطين وجميع أصحاب الطغيان والفتن والعماللة، الذين لغوا ويكفون حتى اليوم في دماء الشعوب العربية والإسلامية مثما فعل ويفعل الأعداء وأكثر.

– والشيء ذاته يقال عن الديمقراطيين والاشتراكيين والقرميين، وعن تاريخ فرنسا وبريطانيا وروسيا وأمريكا إلخ.

إنّ لا جديد تحت الشمس على صعيد التاريخ «الحضاري»، الذي لا تزال تصوره وحشية هذه القاعدة الوجودية التاريخية للعنف. لكنّ ليس في ما تقدّم أيّ تبرير

ضمن هذه الاتيانية تدرج القيم مثل: «الحين بالعين والسّن بالسّن»، «الضرر بالضرر» والبادئ أظم»، «نمّع شر أكبر بشر أصغر»، «نصر أشاك ظلاً أو مطلباً»، «التمدين»، «التحرير». وعلى مرّ التاريخ، استخدمت هذه القيم عن حق أو في خيصة الحق، كما أسي. استخدمتها باسم الحق ضد الحق.

والتاريخ ملي بالعين: فالعبد القديم قدس الحياة الإنسانية وأوصى بل «لا تقتل...» لكنه يُضخ بالنعوات الصريحة إلى إبادة الفلسطينيين وغير اليهود هذا على المستوى النظري. أما على المستوى العملي، فقد كانت الفئات الإثنية والقرمية والاجتماعية، أو الكتل الدينية والإيديولوجية، تنقل بين مرحلة تاريخية وأخرى، وأحياناً كثيرة خلال حياة إنسان واحد، من مواجهة الظلم والعدوان إلى ممارستهما، باسم الضعافات ذاتها:

– فاليهود القدامى، على ما تقول أسطورتهم، كانوا قد هربوا من بطش فرعون واستبدلته. فجاؤا إلى فلسطين بوعد يهوه، «إله السماء، المظلي الطاهر المنزه». ومع ذلك فإن اليهود، بموجب النص «الحرقي» لـ «الوعد الإلهي»، قاموا بالبطش بشعب فلسطين القديم الأصلي، وحرّكوا الفلسطينيين إلى قرابين للتقرب من إلههم «الرحيم». ومثما كما فعل هؤلاء الأجداد «المختارون من ربّ الجند»، فإنّ لحفادهم

والتعبير والعمل إلخ. وهذه للبداي تتجاوز تجريدياً التمييز بين الناس، ومن ثم تُرسى الأساس المبني لتجاوز العنف ولتحقيق السلام الشامل. ولكن الرأسمالية في الواقع للموس في أبهى خفيئتها الأصلية، أي الملكية الامتيازية، وحملت في داخلها تناقضاً ذاتياً هداماً ناتجاً عن عدم أهليتها لإيجاد التوازن بين نوعين متناقضين من الحرية الفردية:

١ - الحرية الفردية الطبيعية، التي يحقق فيها الإنسان ذاته تكاملياً بإزاء الآخرين. ولا يمكن لهذه الحرية أن تتحقق إلا بالمساواة الجوهرية بين البشر، بحيث يكون كل فرد مكسلاً لخصوم الأفراد الذين يستقوي ويغتني كل منهم بالآخر، ولا يُلقي أي مُضجع أي فرد منهم أي فرد آخر.

ب - الحرية الفردية الرأسمالية، التي هي وظيفة استموانية شبيهة، تُشغل فيها «القيم» الشبيهة للصلة الإنسانية الإنسان. ولا يمكن لهذه الحرية أن تتحقق وتطوّر إلا بالإنتاج المصطنع للمساواة بين البشر، بحيث يكون كل فرد يقيضها للكل يسمى إلى تأكيد ذاته الشبيهة بإلغاء وإخضاع الذات الجوهرية والشبيهة للآخرين.

وإذا كان إطلاق «الحرية الفردية» أعطى، في جانب منه، مفاهيم «الديمقراطية» و«حق تقرير المصير للشعوب والأمم»

إلخ، فإنّ هذا الاختلال في التوازن الوجودي - الاجتماعي للإنسان في المجتمع الرأسمالي، بين الجوهر الإنساني والوظيفة الرأسمالية، نُقِصَتْ عنه الرأسمالية المتوحشة، ومرحلها المتطورة: الإمبريالية، التي قامت على الحرية الرأسمالية المظلمة وأُفرِزَتْ بالضرورة التمييز الاجتماعي الجديد القائم على أساس الملكية الاحتكارية. وكان من المحّم لهذا التمييز الجديد، كي يتحقّق ويستمر، أن يتقمّص «الخطية الأصلية» لكل أنماط التمييز الاجتماعي القديم، وهي خطيئة تقم على اضطراد الإنسان لخصيه الإنسان. وبذلك تحوّل التمييز الرأسمالي - الإمبريالي إلى أكبر وهاء للتمييز بين الناس: وهاء أصبح يحتوي ويوظف جميع أشكال التمييز السابقة، العرقية والقومية والدينية والطبقية إلخ. وبالتالي فإنّ هذا للتمييز أصبح يمثل المنبع الأساسي لكل أشكال العنف في العالم المعاصر. وفي عصرنا الراهن يكفي أن نفسير إلى العلاقة العضوية بين الرأسمال الاحتكاري العالمي والتعبئة المتصورة والدينية، الصهيونية والإمبريالية، وخاصة الأميركية، ضدّ الفلسطينيين والعرب والمسلمين. فهذه العلاقة توحّد بشكل مذهل «قيّة» التنوير والحولة والثورة المعلوماتية ما بعد الحديثة مع «قيّة» الظلامية ما قبل الفُرنسوية.

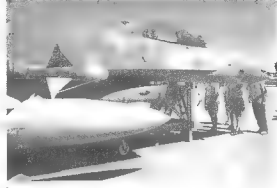
وبالرغم من كلّ مظاهر وإنجازات «الديمقراطية» التي حققتها الرأسمالية، فإنّ هذه الرأسمالية، وخاصة في هذا العصر الإمبريالي، لم تستطع أن تتجاوز طبيعتها الخاصة المتوحشة. وأبرز مثال على ذلك في وقتنا الراهن هو «صناعة الموت» المتمثلة في سياق التسلّح العيشي والمجنون. فالصناعة الحربية أمست هي الوظيفة الاجتماعية والإنتاجية الرئيسية للدولة الإمبريالية المعاصرة. ويأخذ هذا المثال صورته الأبعد في التسلّح للفائق التفوق الأحادي الجانب من قبل الولايات المتحدة، فالدولة الأميركية، من وجهة نظر دفاعية عسكرية بحث، هي في غنى كلي عن تسعة أعشار هذا التسلّح الخرافي. ومع ذلك، فهي تتابع هذا النهج التسلّحي لتأمين المصالح الجشعة للطبقة الاحتكارية المرتبطة بها.

### ماهية «الهمجية»

إنّ الصفة الملائمة الوحيدة التي يُمكن إطلاقها على سلوك الإمبريالية هي الهمجية المعاصرة. ولأجل عدم خلط المفاهيم لا يسعنا إلا أن نجري مقارنة بين «الهمجية» في ما قبل الفرون الوسطى الإقطاعية، وبينها في العصر الإمبريالي الراهن:

- فيما مضى، قامت بعض الأقوام، كالجرمان والهن والمغول والتتار،





تُبرّز الولايات المتحدة معايير الدولارات سنوياً على التسلّح للجون، ويهيئ المليارات من البشر في مستوى أدنى من «الهمج»

ملاحظة أساسية، وهي أنّ المجتمع الدولي في العهد الإمبرياليّ المعاصر قد تقدّم حقوقياً أكثر منه فعلياً في تقنين العنف والحد منه، ولا بدّ أن تشير هنا إلى أنّ الأمن والاستقرار، بالمعنى الواسع، أصبحا أكثر فاكثراً امتيازاً للأغنياء والأقوياء على حساب الفقراء والضعفاء، ومن ثمّ لمْ تُنظرْ عادياً إلى خريطة العنف ومنها «خريطة الإرهاب» تريثاً يوضّح أنّه بمقدار ما تزداد الجماعات والبلدان والأقاليم الأمسر والأضعف اكتسواءً بنار العنف تزداد الجماعات والبلدان والأقاليم الأغنى والأقوى تمتعاً سيباً بالأمن والاستقرار.

وإذا أوجعنا النظر إلى المجتمعات البدائية والقديمية، نجد أنّه حينما كان يتمّ اللجوء إلى العنف ضدّ الأبرياء، كماخذ الثأر من أيّ فرد من أئداد عشيرة أحد الجنّة، كان هناك نوع من التوازن والتوازن في ذلك اللجوء بين مختلف المجموعات. أما في المرحلة «المتقدمة» للرأسمالية النخبية، أي المرحلة الإمبريالية، لقد زال تماماً عنصر التوازن في الواجهة الصراعية بين الإمبريالية من جهة، والجماعات والضعوب والبلدان الضعيفة والفقيرة من جهة أخرى. وأصبح العدوان الإمبرياليّ يتخذ شكل سوايز رهيبة شبه مجانية، بغتفت أشكال القتل العنفيّ المباشر، أو الإبادة

واليوم، تستحوذ الدولة الأميركية على حصة الأسد من الاقتصاد العالميّ، وتبذّر على التسلّح للجون جزءاً هميماً مما تثبّه من هذا العالم للسود، يُقتر بثمات مليارات الدولارات (فقط!) سنوياً. وفي الوقت عينه، يعيش للمليارات من المخلوقات البشرية في مستوى أدنى مما كانت عليه الأقوام «الهمجية» قبل مئات السنين. ولكنّ بدلاً من استخلاص العبر اللازمة من هذا الاختلال في الدورة الحيوية للمجتمع البشريّ عاملاً، ومن هذا التمييز للتسلّح للجون خاصة، يسعى المنظرون الغربيون المنصريون إلى تبرير العنصرية الإمبريالية تحت شعارات «صيدم الحضارات» وما أشبه، ويفكّرون في أفضل الطرق «العلمية» لـ «تمهيد» السكان «الفائضين» عن الصاجة» في البلدان الفقيرة. وتأتي على رأس هذه «الطول» الصروب المحلية والإقليمية، والمجاعات، وتمييز البيئة.

#### التقدم للإنسانيّ

في المقود الماضية، ولا سيما في ظروف الحرب الباردة التي كانت فيها الإمبريالية العالمية عرضةً للتحديّ التسيبيّ، وُضع الكثير من القوانين والاتفاقات لتقييد العنف «الشعرعيّ» ومنع العنف «اللاشعرعيّ» بما فيه الإرهاب. لكنّ أيّ تطول موضوعي لا بدّ أن يتوقف عند

بمهاجمة وتدمير مراكز الحضارة في روما ويهداد وغيرها. وكان أحد أهمّ محفزات تلك الأقوام هو الطمع الناتج عن الثغرات الكبيرة في استحواذ للثرة. فالأقوام المسماة «همجية» كانت تعيش على أطراف المراكز الحضارية، مكابدة الشّع وبؤس العيش، في حين كانت الطبقات السائدة في «المراكز الحضارية» تكابد الاختناق بالتمتعة والبذخ.

ويدون أيّ تبرير، بالتأكيد، لأيّ همجية قديمة أو حديثة، فإنّ الاحتكاك مع «الأطراف الهيمية» الذي أنتج فيما أنتج التدمير الهمجي لـ «المراكز الحضارية» كان - بمعنى تاريخيٍّ ما - يَعمل جانباً «إيجابياً» موضوعياً، وهو الرفض الطبيعي لنظام العنصرية والحضارية، وتمييزه ضدّ تدمير.

هنا يجب التولّف عند نقطة لافتة للنظر وهي أنّ التشار الذين وجهوا ضربة قاضية إلى الدولة العربية - الإسلامية، بما في ذلك وجهها الحضاريّ المشرق، غدوا في الوقت نفسه إلى مصادة الطغام والصنّاع العرب والمسلمين ونقلهم إلى بلادهم للاستفادة من علمهم وخبرتهم. وهذا البعد النفاغيّ - العلميّ لـ «الهمجية» التشارية يتناقض مع المسلك والأهداف الهمجية التدميرية المطلقة للمستعمرين الأميركيين للعراق

الجماعية وشبه الجماعية «السلمية» بواسطة التجويع والمتمطيش ودعم الأنظمة الاستغلالية والاستبدادية. وفي الزمن الأميركي الراهن، وصل الأمر إلى حدّ التباهي بـ «الحرب النظيفة» التي لا يكاد يَشُقُّق فيها سوى قلة قليلة من أبناء «الشعب السيّد» أو «الشعب المختار» الذي ينتمي إليه المعتدون الإمبرياليون. وفي حين تُدْرِق دموعُ القمامع على هذه القلة من الضحايا البرية أو غير البرية في الجانب الإمبريالي، يجري تشريدُ وتشويه وإبادة الملايين من المدنيين الأبرياء من «الأعداء» الأضعف والأفقر، وتدميرُ البنى التحتية لبلدانٍ وشعوبٍ بأسرها.

#### المسؤولية التاريخية

إنّ الأساس الاجتماعي لهذا الانحراف الإنساني الذي تقوده الطغمة الإمبريالية... الصهيونية في العصر الحديث هو الافتراقُ للتناحري المتزايد بين ديناميتين: دينامية حياة الرأسمال الاحتكاريّ الأبلّ إلى التمرکز العالميّ المكثّف والضيّق؛ ودينامية الحياة الإنسانية الأبلّة إلى التنوّع والتعدّد والفتى والاتساع ضمن وحدة إنسانية مرّجبة ومتفاعلة ومنسجمة تُشْمَل جميع الشعوب والجماعات الإنسانية بلا استثناء.

والقوى الاحتكارية المتسلّطة في البلدان الإمبريالية الغنية والقوية، ولأسبابها في

أميركا، هي التي تتحمل، تاريخياً وراهناً، المسؤولية الأولى عن استمرار تشريع وتكريس العنف والإرهاب على النطاق الدوليّ برمّته. وهذا ما تؤكّده جميع الوقائع على هذا الصعيد وأهمّها:

١ - إنّ القرب الاستعماريّ والإمبرياليّ هو المسؤول عن حقبة العبودية والاستعمار المباشر. ففي هذه الحقبة أبيد ملايين «الهنود الصمر»، وفي الحقبة التاريخية ذاتها، جرى إصطلياحٌ وقتلٌ وإسترقاقٌ عشرات ملايين «العبيد» الأفارقة، وجرى غزوٌ واستعبادُ شعوب آسيا وأفريقيا التي تُعصّد بالمخسارات. وفي حين أنّ الدول الإمبريالية الغربية نهضتْ وغفّقتْ على حساب النهب والاستغلال الفظيع للشرق لمدة مئات السنين، فإنّ بلدان الشرق الغنية بالخيرات الطبيعية تُخرق حتى الاختناق في ديون النصب الإمبرياليّ الدوليّ، وتقف على أبواب اليئس الدوليّ أو صنتوق النقد الدوليّ مستجندة بعض القروض الجديدة، التي هي سلاسلٌ وأصفادٌ عبوديةٍ معاصرة للملكية الإمبريالية للعولمة.

وخلال الحرب العالمية الثانية قامت أميركا بضمرب مخينتيّ هيروشيما وناكازاكي اليابانيّتين بالقنبلة الذرية. كما قام الحلفاء الغربيون بقتير مخينة ترسدن الألمانية. فإنيدي في هذه الجرائم ضد الإنسانية مئساتٌ الآلاف من السكان المدنيين بدم بارد، ويؤمن أنّ ضرورة عسكرية حقيقية.

وكان تدميرُ ذلك بحجة كاذبة، هي إجبار ميرويهيتو وهتلر على الاستسلام؛ إلّا أنّ السبب الفعليّ كان الانتقام العنصريّ من المدنيين اليابانيين والألمان وتآديتهم، وبثّ الرعب لدى شعوب الاتحاد السوفياتيّ السابق، القوّة الصاعدة حينذاك. أيّ أنّ «الديمقراطيات» الغربية استخدّمت وسيلة القتل الجماعيّ للمدنيين اليابانيين والألمان من أجل أهدافها الاستراتيجة، تماماً كما استخدم هتلر «المصرفاء» ضدّ اليهود العرک. ولا بدّ هنا أن نلاحظ أنّ ألمانيا قد اعتدّت لليهود، وتكّمت التعويضات للكيان الصهيونيّ تكفيراً عن الهولوكوست. وأما أميركا وحلفاؤها فلا يريدون أن يتدنّوا عنّا ارتكوبه، ولا أن يعضّوا لشعوب الشرق المظلوم تاريخياً عن حقبة الاستعباد والاستعمار... علماً أنّ اليهود كلّهم هم حوالى عشرين مليون نسمة، في حين أنّ الشعوب التي وقعتْ وتقع ضحية للعنف الاستعماريّ والإمبرياليّ تشكّل أكثر من تسعة أشرار البشرية

كما أنّ الإدارة الأميركية تُرضخ حتى هذا التاريخ التقبُّد بتحرير أسلمة الدمار الشامل التي تريد احتكازها، وتُرفض توقيع اتفاقية كيوتو حول البيئة والمناخ، وتمتنع عن التصديق على اتفاقية تحريم الأقدام المضادة للأفراد، وغيرها الكثير من الاتفاقيات، وهي بذلك تکرّس مبدأً خاصاً بها، هو مبدأ دوس المبادئ



قامت اميركا بحرب هيوثيما، وقام الحلفاء بتدمير دوسن، بدون أي ضرورية عسكرية حقيقية. هيوثيما و دوسن بعد القصف الذموي لأمري

على النظام الرأسمالي. أما الآن، فيصعب تماماً القول للثائق، «من بيتر أبي ضريئة» كما يصعب القول للثائق الآخر: «من يزرع الرياح يجمع العاصفة» فالإمبريالية، الأميركية خاصة، هي التي سبقت لها أن أطلقت «الروح الشريرة» للإرهاب، بما فيه ما يسمّى الإرهاب الإسلامي، وليس هناك ما يشير فعلاً إلى أنها تريد القضاء على الإرهاب وتجفيف منابعه، الموجود أصلاً في حورتها. بل إن العكس تماماً هو الصحيح. فهي تريد، بعد استئصال اغراضها من بعض اشكال الإرهاب، تجديده وتطويزه، وما نحن نرى بألم العين كيف يجري، بحجة «مكافحة الإرهاب»، تهفيف منابع الديمقراطية وعسكرة المجتمع في داخل اميركا خاصة، وتبريز إرهاب الدولة العظمى على المسرح الدولي عامة. وهو ما يرك بواسطته، إذا أمكن، خطط الكوكب الأرضي بأسره، لصالح الطمعة الاحتكارية العليا الأميركية، بكتلتينها الترابيتين، للتناقضتين، الانكاساكرسنية والصهيونية.

وهذا كله يتلعب إلى التساؤل عن الطبيعة الإبراهيمية لـ «النظام الدولي الجديد»، وتعاظم الطلاق من مصالح جميع شعوب العالم، وارتباطه بالعكس بالمصالح الحقيقية للشعب الأميركي.

صوفيا ـ بيروت

الخاصة الأميركية هي التي تتحمل مباشرة المسؤولية الرئيسية عن تلك ابشنة، ليس فقط من حيث «التقصير» للرب في الحؤول دون حدوث هذه العمليات قبل أن تقع، بل أولاً لأن هذه الأجهزة هي التي اضطلعت بدور الصاعدة لتنظيم بن لادن قبل أن «تختلف» معه.

#### الإرهاب الأصغر والإرهاب الأكبر

في هذا المعرض للبعد الإنساني الذي ينبغي النظر من خلاله إلى مجزرة ١١ أيلول في اميركا، يتبين أن للنمب الاساسي للإرهاب في المجتمع المعاصر يكمن في صميم نظام الرأسمالية المتوحشة والهيمنة الإمبريالية. ويتبين أيضاً أن مجزرة نيويورك إنما تُرجم بشكل نموذجي إلى هذا النمب مباشرة؛ إنما كشكل من أشكال الصراع داخل المعسكر الإمبريالي ذاته، تُذهب ضحيته الجماهير البريئة؛ وإما كره فعل على التسلط الإمبريالي، والطرق والأضلاع ذاتها التي زرعتها الإمبريالية طوال عشرات ومئات المنع؛ وإما كحالة مركبة من الحالات، لا يمكن الجزم فيها من تستخدم من الأطراف المعنية.

في السابق كان من السهل اتهام «الشيوعية الهدامة» بوصفها ظاهرة خارجة

الأخلاقية الأولية، التي لا يمكن بدون صيانتها واحتراسها مكافحة الفعالة للعنف والإرهاب الحقيقي.

٢ - إن غالبية الانتصابات العسكرية المموية، وأنظمة الحكم الاستبدادية، والصروب العدوانية، والمجازر، قد تمت ويتم بتدبير ومشاركة القوى الإمبريالية - الصهيونية، ويتم تنظيم حملات إبادة الجنس، التي تُستخدم فيها الأسلحة الحرة دولياً وكافة أشكال الحصار والتجويع، تحت ستار الشرعية الدولية، من أجل السيطرة على منابع ومخزونات النفط والغاز، بحجة «معاربة الإرهاب» ومواجهة «الدول الشريرة».

٣ - لتحزيز سياسة القوة والبطش والإرهاب، تلجأ القوى الدولية المتسلطة إلى تطبيق سياسة الإرهاب الاقتصادي لإجبار الدول الأخرى عامة، والدول الضعيفة والفقيرة خاصة، على الخضوع لمشيئتها ومصالحها. ويتم ذلك عن طريق «كماتشة تقديم المساعدات والقروض أو منعها، ضمن لعبة مركبة من شتى اساليب الترفيع والترهيب.

٤ - إذا صحت التهمة على تنظيم بن لادن بأنه مشارك في العمليات الإرهابية في اميركا، فمنه توافق لدى القطاع واسع جداً من الرأي العام العالمي بأن الأجهزة

## ماذا لو سألونا فجأة: ما الذي فعلتموه بأناسيدنا؟

مضى زمن طويل قبل أن نقتح هذه النافذة لنُظّل عليهم، لتتفكّض ما ضاع منا وظلّ فيهم، حتى لكأننا كنّا نُهرّب من سؤالنا عنهم، وعن منسوب الحياة فيهم، خائفين من أن يكون السؤال تأكيداً لهذا الموت الذي يمتدنا.

مضى زمن طويل قبل أن تتفكّض أشجارهم، تالّكهم، وخطوات أطفالهم في الأناشيد التي يُغنّونها لهم يوماً بعد يوم، وهم يستيقظون كل صباح كي ينفقوا شمس يومهم التالي.

لم يكن مصافاةً أن تكفي بجرعة النور التي أشربوا بها ذات يوم قبل أكثر من أربعين عاماً، حين قدّم الشهيد فسان كنفاني كتابه الرائد *أحب المقاومة في فلسطين المحتلة (١٩٤٨ - ١٩٦٦)* وألحقه بكتاب آخر: *الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (١٩٤٨ - ١٩٦٨)*. كما لو أننا لم تكن بحاجة سوى لجرعة واحدة من هذا النور، الذي لن نستطيع القبض عليه تمامًا في حُنى وحنى هذه العتبات التي تسكن جدراننا في هذا العالم العربيّ الممتد بين مابين وأكثر من صحراء.

لم نتعلّم ما يكفي من وصاياهم. وإذا كان من الطبيعي أن يواصلوا وحدهم العيش على قديمها، كما يعيشون على قيد حياتهم، أو لنقل حرية أرواحهم رغم كل شيء.

وفي زمنٍ عربيّ يتم فيه اختزال الأشياء، تمّ اختزال «قلب» الشعب الفلسطيني هذا بما أتدعه كتابة في تلك الفجر البعيد. كما لو أنهم كانوا أحياء هناك ولم يموتوا اليوم كذلك. كما لو أن أشجارهم لم تعد تُورق، وحقولهم لم تعد تذكر خضرتها، وأطفالهم لم يموتوا قلوبهم على معرفة الطريق إلى غدهم. أو كأن أغانيهم لم تعد قادرة - بالجرأة نفسها - على احتضان شوقهم العظيم إلى الحرية.

كان أحد الأصقاء القادمين من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ يحدثنا منذ مدة أنه قابل ذات يوم رجلاً شمساً هناك. وبعد دقائق قال له الرجل المسن: «لن يترجّح لي بال، ولن تفض لي عين، قبل أن أعود إلى وطني. فكل يوم أحسّ بأنني أزداد غربةً وازداد حياتي وحشةً بعيداً عنه». قال له صديقنا: «ولكنك على بعد خمسة كيلومترات من قريتك». فردّ الرجل المسن: «أعرف ذلك، ولكن هل تُشرف الطول الحقيقي لهذه المسافة حين تكون ممنوعاً من الوصول إلى عتبة بيتك الأول؟» ثم صمتت لساعات «قلّ لي، ما الفرق بيني وبين أي إنسان اقتلعت من قريته ويعيش الآن في الأردن أو لبنان أو فلسطين، حين يكون غير مسموح لأيّ مكان أن يصل إلى ما يريد؟»

♦ - شاعر وروائي فلسطيني مقدم في عمان.



توضيح:

وقع خطان في مقال د. سليم مخولي في العدد الماضي. فهو طبيب عائلة، لا اختصاصي في الأمراض الداخلية وهو عضو في الهيئة الإدارية لجمعية «إبداع» للناشدين الفلسطينيين، لا رئيسها.

## ماذا لو سألونا فجأة: ماذا الذي فعلتموه بأناسيدنا؟

لكن هذه الغيرة المرّة المملعة، إنّ أكدت شيئاً، فإنّها تؤكد أولاً ما تؤكد إصراراً فداً على أن يكون المرء حيث يجب أن يكون

يأتي عدد الأرباب المكرّس للنشاط الثقافي والإبداعي في الجليل والمثلث ليؤكد حقيقتين مضبتتين: حقيقة أنّ هناك من لم يزل يكتب ويرسم ويغني ويواصل الطريق يروح لا تقبل الهزيمة؛ وحقيقة وجود مدى شخص من هذه الروح بكلّ تجلياتها، وبغني هذا مجلة الأرباب التي لا تتوقف عن لعب دورها في زمن الحرص على ضياع الأنوار وتمييع المقاتل واختزالها.

ولم يكن المعنى العميق لكاتبنا فسان، في ذلك الزمان الذي يبدو بعيداً إلى حدّ غير عادي في تقويمنا العربي، مختلفاً عن المعنى العميق الذي تلعبه الأرباب ورياء مشروعيها وحراسه اليوم. فإذا كان فسان أكو يوتها بفرح غير عادي أنّ هناك ما يكفي من الأحياء كي تلبّي الحياة أنّها لم تزل على قيد نفسها، فإنّ عدد الأرباب هذا يأتي ليؤكد أنّ أولئك الأحياء لا يقفون حياة الآن رغم كلّ شيء.

تتأمل حالهم الآن، فنجد أنّهم، وطوال أكثر من نصف قرن، لم يتراجعوا عن إصلاهم، ولم يتذكروا للمهزائم فرصة للتسلّل إلى أرواحهم. وفي عصر مرثنا ظلموا يُشذون بداب النمل:

«وحبوب سنبلة تموت

سحلا الوادي سقائل».

ولكن ماذا لو سألونا الآن فجأة: ما الذي فعلتموه بأناسيدنا؟

الشيء الأكيد أنّنا نفق اليوم أمامهم، ولكن ليس كالرّة الأولى فما نحن إلّا طمحوا في هذا العالم العربي، وإلّا أملاً، كما لو أنّنا نتروكهم وهم تحت عبء أسالتنا وعبء طسوحاتنا وإصلانا المجهضة، لعلبوا أدوارنا التي لم نصلطح أن نطبعها أو أن نكلمها في أفضل الأحوال... إذ لم يعد لدينا من شمس سوى ما خفّته إيديهم يوماً على ضفاف أرواحنا، وهم يكتبون أناسيد حريقنا التي يتصمسون بها أفق حريتهم.

لكن، لنصترف أنّ العالم العربي بدأ وكأنه أظلم بوجبة الروح الكبيرة تلك التي مكّنها أدب المقاومة. وهكذا ما إنّ وصلنا إلى ضياع الروح هذا حتى اكتشفنا أنّ البحث عن الفز لأمل لم يعد ضرورية عربية مكّنة. لا لأنّ الأمل لم يعد موجوداً، بل لأنّ هذه الروح المعيبة لم يعد الطريق موجوداً أصلاً بالنسبة إليها كي تتخبر وتسير حتى ولو على مكان.

لم يكن الزمن العربي الذي أظلم بالهزائم، بواقع هزيمة كلّ عشر سنوات تزيد أو تقل، هو وحده الذي يشارك في إسدال ستارة الغما هذه على ما يروح به شعب من الطوحات والطلع إلى الفد

المخلف. فقد ساهم النقد العربي، الذي اكتفى بالجاهز المنجز، في تعميق هذه الهوة بين ما يكتب هناك وما يُقرأ هنا، إذ لم يعد لدينا الكثير من النقاد الذين يتخللهم صغور الجبل.

هكذا تمّ اختزال الأدب الفلسطيني بالوجبة الأولى من الكتاب والشعراء الذين فُشروا اقتراحاتهم البارزة. ولعلّ ما أصاب أدب الداخل قد أصاب كثيراً أدب الخافي، لأنّ الاختزال هو أكثر الأمور مدعاة للراحة والتخلّص من المسؤولية. وللمؤسسات الثقافية الفلسطينية أيضاً دورها الكبير في هذا التفتيب أو الاختزال الفقير الذي كان يحمي، بسطوة إصلاهم، أن يكتبت ويؤكّد دون كلالي أنّ فلسطين أنجبت في السابق، ولم يفكر القاتمون عليه بلز عظمتها تكمن في أنّها تؤاويل الإنجاب.

لقد تعامل هذا الإصلا مع فلسطين الأدب كما لو أنّها استأصلت رحيها. كما تعامل مع فلسطين السياسة كما لو أنّها استأصلت رحيها أيضاً؛ مع أنّ الذين يكتبون تاريخ فلسطين اليوم هم أولئك الذي وكّوا بقوة أرواحهم بعد أن تمّ استئصال تلك الرّحم أو صوّر البيض أنّهم استأصلوها بأمتبارهم آخر الأبناء الذين يستحقون الحياة!

هكذا أخذ النقد العربي - الذي راح يؤكّد دوره الحقيقي بتسارع غريب باستثناء حالات نادرة - يبعث عن أعمال أدبية صالحة لزمن الوجبات السريعة ويردّ للفقر المسرف من الكلام، واكتشت المؤسسة الثقافية الفلسطينية بما وصلّ إليه إنباؤها، لا إلى ما تتخلّل إليه الحياة.

ولعلّ ما حدث في السياسة لم يكن بعيداً عمّا حدث في الأدب. فقد ابتكر الفلسطينيون، مدفوعين برغبة عربية رسمية في التحرر من القضية لا في تحرورها، اختزال كلّ مظاهر الحياة الفلسطينية في شخص واحد أو تنظيم واحد: فاصبح هناك «الممثل الشرعي الوحيد»، وكان قلباً يتحقّق بحبّ فلسطين في آخر الأرض ومهما كانت جنسية صاصبه لا يحوّل أن يكون مثلاً للفلسطين كلها؛ وتطامنت المؤسسة الثقافية الفلسطينية في زمن هذا الكسل العربي أكثر فاكتر حين اختزّلت الأدب الفلسطيني في عديم حدر باتوا الممثلين الشرعيين لروح الشعب. واختزّلت الرواية الفلسطينية في ثلاثة أسماء. وبعد الوصول إلى هذا الاختزال تمّ اختزال هؤلاء الثلاثة في ثلاث روايات من إلتاجهم: فاصبح فسان كفتاني هو رجال في الشمس لا غير، وجبرا إبراهيم جبرا هو البحث عن وليد مسعود فقط، وإميل حبيبي هو المضاقل فحصب. وفي هذه الروايات الفلسطينية العربية، المصصّة بكسل نقدي غير قابل، لم يعد بإمكان الكاتب أو الشاعر أن يظّل كاتباً أو شاعراً إلّا إذا كان على قيد سطر مكتوبة لخدمته، بل على قيد شعب مكرّس لخدمته: هو الذي يصنع من هذا الشعب، وهو الذي يكلم، وهو الحرّاف

مكرّس مساحة ثقافية عربية أن يغفل كل شيء. ولحسن الحظ فإن بعض الأسماء التي غابت عن هذا العدد حاضرة، وبعضها سنقرأ له كتيباً ضمن منشورات دار الآداب. لكن أكثر ما يعنيني هنا هو ملازم المشهد العام للثقافة الفلسطينية كما يعبر عنها هذا العدد.

هناك الأسماء التي عرفناها وتابعتها وإنتابها منذ مدة طويلة تحضر في كتاباتها الجديدة: حكا أبو حنا، محمد نفاع، طه محمد علي، سعود الاسدي، أحمد حسين، فائق مونس، فهد أبو خضرة، حسين مهنا، سيمون عيلوي، سهيل كيوان. وهناك كتابات رجاء بكري، علاء حليط، أحمد هببي، عديّة شبلي، أحمد سليمان، زهيره صباغ، جريس ديبات، صالح حبيب. وأهل ما يُسعد هنا أن ثمة حساسيات جديدة ومختلفة، ليست منقطعة عن أجل ما يكتب في العالم العربي. والأهم من ذلك كله أن كثيراً من هؤلاء الأبناء، الذين يطوفون علينا في موجة واحدة على صفحات الأكراب، باستطاعتنا تنشئ خصوصيات كثيرين منهم وتمييز إنتاجهم عن إنتاج زملائهم. وهم يؤكّدون، بهذا، الظاهرة الأهم لضمان غنى أدبنا، وهي تعدد أصواته ومذاهباته وحساسياته وأخلاقه وحيويته؛ ذلك لأن الأبناء يولدون في اختلافهم لا في تشابههم في النهاية.

ولعلّ اللافت أيضاً أن معضلة الرواية لدى فلسطيني ٤٨ أخذت في الانفراج - فثمة مشكلة حقيقية في هذا المجال استمرت طويلاً. وما يبرز الأمل هنا أن كثيراً من الكتابات القصصية المنشورة في الأكراب مشوّعة، بطريقة أو بأخرى، على هواجس روائية؛ وهذا ما يُظهر من خلال لغتها، ومن خلال اتساع الرقعة التي تتحرك فيها أحداثها، وصعيد بنيتها أيضاً.

كما يتيح هذا العدد فرصة لقاء بإبداعات في مجالات اجتماعية وفنية واجتماعية مختلفة، تعبّر عن هواجس الحياة اليومية من منظور التحليل للمعشّي الهادي. ونحن كنّا أقرأ بعض هذه الدراسات والبحوث كتّأصّر أثنى أقرأ عن هواجس حقيقية ومشكلات تعبّر عن واقعنا العربي هنا وعن أسئلته، لدرجة يُصنّ معها المرء أن لكلّ منطقة في عالمنا العربي احتلالها الجاثم على صدرها... رغم هذه الثقة غير العادية بارتفاع ساربات الأعلام.

وقد بدأ ذلك واضعاً في تجربة صفاء طمش، ودراسات أنطون شلمت، ونايف خوري، وسليم صخولي، وفي الحوار الذي أجراه فراس خليل مع يوسف أبو وردة.

...

تحتاج هذه النصوص المتوفرة إلى قراءات نقدية بلا شك. لكن أي قراءة تنصّ الإحاطة بها ضمن هذا العدد من الكلمات التي تشكّل هذا المقال أن تقول شيئاً في النهاية. ولعلّ هذا ما يُفكر كاتب هذه الكلمات محاولاً تتلمّذ ما أت إليه حال الثقافة الفلسطينية وحالنا طليح الأعداء وحتمهم من من يُصنّفون للحواجر في طرقات هذه للشعبي الفلسطينية.

عمّان

والمعنى الشرعي الوحيد لجراحاته وأرواح شهدائه، سلباً بسيطاً الدمع حتى من تحت ماتي أمهات أولئك الشهداء والجرحى.

وقد بلغ الأمر حدّاً تجاوز الأدب كثيراً في ثقافة الاختزال هذه. فنمّ تجاوز الشهداء أيضاً باختزالهم بالصفالة نفسها. فاصبح هناك أمير للشهداء، أو معنّى شرعيّ ووحيد لهم، مع الاحترام الشديد والإجلال. وقد كانت المؤسسة الرسمية الفلسطينية تحول، بذلك، الشهداء الآخرين إلى مجرد حاضنة للشهيد الأمير. ولعلّ هذا كان جوهر الحال دائماً، حتى قبل تفكّهما عن اختراعها العظيم هذا. ولم يكن الأمر كلّ أقل من حاسمة، في هذه الفوضى للرغبة كي تظلّ لثقة بهذا الاختزال.

...

ويعد،

قلّة طيبة هم أولئك الذي يطّلون على المشهد الثقافي الفلسطيني في الداخل (فلسطين ٤٨). وأيسر الفسقة المتأخّرة للاب في الضفة وقطاع غزة أفضل بكثير إذا ما تنكّرتا أن الوضع هناك لا يقلّ مأساويةً فالذابح الصهيوني لا تكفي بتقليع أوصال البشر ودهمهم، بل تُذهب في مذابحها إلى تقطيع أوصال أراضيهم وإشجارهم وبيوتهم وشوارعهم وجبالهم وتحتار مصابهم - التي ترتفع الجدران العالية بينها، وقد تكتسبت عبر قرون ما أو مديناً لا تُشكّع النافذة من تامل اختها في البيت المجاور الذي لم يكن يبعد سوى خطوات.

هناك أدب فلسطيني يكتب اليوم، وفي ذلك العمق الأكثر تجرّأً. وهذا يعني أن هناك شعباً لا يكف عن مرآة العلم والمستحيل. أوّل تلمّ غولدا مائير ذات يوم: «لو كان الفلسطينيون شعباً لكان لهم أدب» ثم ألم يقل استأخداً ومعلمها بن غوريون: «سميحت كبارهم ويُنسى صفاتهم»، وإذا، فإنّ الأكراب اليوم لا تُفعل على وصول نماذج من هذا الأدب إلى العالم العربي فحسب، بل تُفعل أيضاً على تجاوز فكرة الاختزال التي أضرت إليها، وهي تؤكّد أن الثقافة تُنتجها شعب، وأن الشعب الذي لا يتمكن من أن يتجنّد وتوالّد داخل ثقافته هو شعب أيل لل موت. وكلمة أخرى، فإنّ عدد الأكراب هذا هو تكتيكية على أن ثمة حياة لا تكف عن إنجاب أنفاسها وهوائها. ولعلّ مشروع دار الآداب المشتركة مع مؤسسة عبد المحسن القطّان هو التطوّر الطبيعي لطرح هذا العدد يدفع الأمر خطرات حرجية شجاعة إلى الأمام أكثر.

...

في هذا العدد تتجاوز حساسيات مختلفة، وهي جزء أساس من المشهد الثقافي الفلسطيني هناك، لكنها بالتأكيد ليست كلّ. وبعيداً عن الأسباب التي يُمكن أن تُشاهد هنا حول مدى اتساع هذا العدد، فإنّ الشيء الذي لا بدّ أن يقال هو أنّه لم يسبق أن استطاع أيّ عدد

وفي أطراف سعت إلى بلورة موقف روائي نقدي لواقع العلاقات القائمة في الجامعة بما هي علاقات تُترك أثرها على مفهوم التربية ومستوى التعليم والمعرفة، ووسيلة بهذه المعرفة إلى ما يجري في فلسطين. كأن خطاب أطراف الروائي هو، من منظور عالمه النقدي، مسمّى إلى بناء عالم يُفصح عن حاجته إلى التغيير.

في قطعة من أوروبا تتابع رضوى عاشور مشروعها الذي يُشغل بالتاريخ ويُشجّس تخيلاً سردياً يُصل على واقع معيش ويُهدف إلى إنتاج معرفة تضيء الحقيقة وتعيد صياغة معانيها، علماً، نحن المعنيين بمصائب زمننا وماسبه، نُذكر مسؤوليتنا في التغيير ونرد سبله. لكنّها تبدو في روايتها الأخيرة أكثر جرأة وقدرّة على التحنن من التقاليد التي طُبّعت الرواية الواقعية على خلفية الملازمة بين الواقع المرجعي والإحالات الروائية عليه وفق نمط من البناء قوامه الزمن الضمني الإنامي تصاعدياً، والاستعاضة عن ذلك بأدوات وتقنيات تنتمي إلى غير نوع من أنواع الكتابة وأساليبها. فهي تُدخل بين كتابة السيرة، وكتابة الحكاية، وسرد التاريخ، وتقديم المقالة لتبني فضاءات عالمها الروائي وفق ملازمة نسجية غير تجارية، بين الدولة، والرسالة، والشهادة الحية والافتقار، والبيان، والمعاينة الشخصية (لراوي). وبكل هذا التداخل تُنسج المؤلّفة، ومهارة، فضاءات روايتها، وتُخلّج سياقاتها المتوترة، وهو ما يُكسب شعرة التأليف الروائي جمالية لامعة وراء معرفة الحقيقي، ويولّد للقراءة متعة اكتشافه. كأنها بذلك تود أن تتجاوز تقاليد الكتابة الروائية من جهة، وأن تُطبع، من جهة ثانية، بمفهوم مفهومية - بنائية كانت بعض الروايات ما بعد الحداثيّة تركزها وتُفسّر مفهوم الكتابة الروائي عليها.

إنّ للسؤال الأساس الذي يُفكّرها مشروع رضوى عاشور الروائي ترتكز إلى مفهوم فكري يخصّ علاقة السرد. فلن كان الفكر ما بعد الحداثي يُزجّ لدى البعض إلى اعتبار الكتابة الروائية مجردة تخييل مقطوع عن مرجعياتها في الواقع والتاريخ، وإلى اعتبار الخطاب السردي مجرد لعب

♦ - نافذة لبنانية بارزة.

١ - صدر الجزء الأول غرناطة عام ١٩٩٤، والجزء الثاني والثالث مريمّة والرحيل عام ١٩٩٥. وفي طبعة ثانية جُمعت الأجزاء الثلاثة وصدرت عام ١٩٩٨.

## رضوى عاشور تُبدع عالماً متخيلاً يبلور الحقيقة

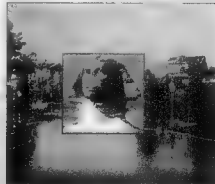
بعد ثلاثية غرناطة (١٩٩٨) التي روت خروج العرب من الأندلس، وبعد أطراف (١٩٩٩) التي أُدرجت في سيرة الرواية الذاتية حكاية قصير واقع الجامعة في القاهرة وما يجري في فلسطين، تأتي رواية رضوى عاشور الأخيرة قطعة من أوروبا (٢٠٠٣) إنجازاً لافتاً، فهي، كما يبدو لي، تنويع لمشروع معنيّ بمفهوم الكتابة الحداثيّة، ويفكر ما بعد حداثة لا يمتنع بعض منظره بالواقع مُرجعاً وإنما يقول بنهاية التاريخ.

في الثلاثية اكتفت عاشور بإقامة العلاقة بين الرواية والتاريخ، أو جعلت من أحداث التاريخ حكاية ترونها وتبني عالمها في سياقات أقرب إلى التلاعب الزمني، وفي منظور روائي يستعيد الحقيقة بإضافتها ويعيد الاعتبار للمرفي إلى معانيها.

### رواية

## رضوى عاشور

## قطعة من أوروبا



المركز الثقافي العربي

لغوي<sup>(١)</sup> فإن قطعة من أوروبا هي، بامتياز، مسعى لإبداع عالم متخيل قادر على أن يبلور حقيقة الحكاية التي يحكيها خطاب هذا العالم الروائي.



كيف أرسلتمونا إلى ما نحن فيه؟<sup>(٢)</sup>

تبدو الرواية جواباً عن هذا السؤال الذي تطرحه شهرزاد الحفيظة، أو بطرحة محمود الولد<sup>(٣)</sup> على الجذ أو الأب في آن. ويبدو الجذ أو الأب معنياً بتقديم جواب: فهو الراوي الذي يحكي الحكاية، وهو بصفتها هذه معني بفعل الحقيقة، حقيقة الحكاية التي يرويها لحفيظته وولده، لكن لا حقيقة - حسب منطق الرواية - بدون معرفة، ولا معرفة بدون بحث وتنقيب ومعاينة. لذا كان على هذا الجذ أو الأب، كي يُعرف كيف أوّلعت أولادته وأحفاده إلى ما هم فيه، أن يباين الواقع وأن يقرأ التاريخ ويعيد صياغته، أي أن يحكي حكاية اللال لا باعتبارها مجرد لعب تخيلي وإنما قولاً يكشف الحقيقة، وعليه تصبح الحكاية فعل تنقيب ونظر في التفاصيل والجزئيات، وفعل تتبُّر في الفجوات وفي ما لم يكن موضع نظر فحاشي حقيقتي في غياب منها.

هنا تبرز الاستدلال: هل الرواية هي حكايتها، أي ما تحكيه؟ وهل الحكاية هي معرفة الحقيقة؟ وهل الحقيقة هي في معاينة الواقع ومعرفة التاريخ؟

استلّتُ حُنايرها قطعة من أوروبا على لسان الراوي الذي أوكلتُ إليه كتابة هذه الرواية، لا مسرح رواية حكايتها. يُترك الراوي صعوبة مهمته: فهي - بصفتها كتابة - مبني ومعيانٌ كحقيقتي بنا، شعريتي لا تعني التخلي عن معيار أمين للحقيقة، وجماليتي لا تُناقض موقفاً يتصلّ مسئولية ما يقول. ويكاد أمام صعوبة المهمة أن يتخلى عنها، فيقول: لا خبرة لي بكتابة الروايات. أنا لا أكتب رواية بل أنظر في وسط المدينة حيث حكايتي.... (ص ٢٠٩) ومن أجل هذه الحكاية، وبسبب صعوبة مهمته، يبدو مستعداً للتبرؤ من الأدب الذي قد يُتهم بجنايته - أدب التصفيات. يقول: «لست أدبياً. لم أذع أنني أكتب أدباً رفيعاً أو غليظاً أو حماسياً. ليهذب الأدب إلى الجميع، جحيمي، أو جميع آخر يختلف. أريد أن أكتب عن رجال ثقال الوزن يشعشعون على صدرتي. خطأ. ليسوا مجرد حفة من الرجال. إلاّ كلّها تجثم بجحيمي ونظماها وكلامها وتروسها

وتضالها، تستقبل القتل بقتل نظير بلا دم أو انقراض. أي قتل نظيف» (ص ١٨٧)

تتواطأ المؤلفة مع الراوي هنا. ذلك أن السؤال في كلام قائم بين الكتابتين (للراوية والحكاية (الراوي): أو بين الكتابتين بتوظيفاتهما ومعايير تجعل منها أدباً على حساب الحقيقة، وبين كتابتي لحكاية ترتبط بالحياة ويعرفه من يقتلها قتلاً بديلاً، خفياً، ظاهراً غير باطنه، وحقيقتي منسوبة غائباً عن المعرفة.

بهذا المعنى يمكن القول إن رواية قطعة من أوروبا تُضمر بيناتها وصياغتها ونسجها، أي بتشكّل حكايتها عملاً روئياً، سؤالاً كبيراً تطرحه، بشكل غير مباشر، لا على الواقع والتاريخ وحسب، بل على سلسلة من العلاقات أيضاً تخص علاقة الكتابة بالرواية، وعلاقة الرواية بالحكاية، وعلاقة الحكاية بالتحقيق، وعلاقة التحقيق بالتاريخ، وعلاقة التاريخ بالمعرفة... وصولاً إلى معنى الحقيقة التي يتنّض العمل الروائي بها وقولها الخطاب.

السؤال الكبير - إن لم يكن سؤال الحكاية، بما هي أحداثٌ وشخصيات، بل سؤال الرواية العربية في علاقتها بالمعرفة - معرفة الواقع والتاريخ - أو سؤال الفني في علاقتها بالحقيقة وقويتها التي قد تفوس «مثل إيزر في أكوام قش» (ص ١٥٩) وهو سؤال العلاقات التي بها تنبني رواية عليها أن تجيب عن سؤال يطرحه الأصحاء على الصنعتين: «ماذا صنعتنا يا جني، كيف أرسلتمونا إلى ما نحن فيه؟» أي يطرحه الحاضر على الماضي. إنّه سؤال المعرفة المكوّنة بالحكاية وروايتها؛ المعرفة التي لا تعيد الحاضر إلى الماضي، ولا تأتي بالماضي إلى الحاضر بديلاً أو عديلاً، بل تقرأ الماضي من موقع في الحاضر كي تقرأ الحاضر نفسه في عقده وخفاته.

يبدو الجذ / الراوي هو المسؤول. فالسؤال أصلاه موجّه إلى «انتم الأجداد، لا إلى «هم» الآخرين، انتم من سبقنا، تاريخنا بكل معانيه ومستوياته: فما نحن فيه ليس وأيد طرفه الأتي».

وتبدو الكتابة قرين للمسؤولية. ربما لهذا يفتّح الراوي، ولا يروي حكايته شفاهاً، فلسفاهي يحتمل الشك لأنه منقول؛ والمنقول قد لا يُسمع بما يسمع به الكتابات من وقت البحث والتوثيق؛ والروائي سماع قابل للاختراق والسنسبان والتضويب، وأما الكتابة فتدوين يُسمع بإسراج ما يبدّد المعرفة، ويُشدّد حقيقة حكاية ترويحها الرواية.

١ - إن النسبوية الصرفة التي تقول بها البعض المعرفة ما بعد الحداثية الجديدة تُكفّني إلى قراءة «الواقع» بكتيكة من خلال اللغة، أو من خلال انساق إشارية وترى أنّه ما من طريق إلى الحقيقة أو قضايا التحقيق التاريخي إلا من خلال أشكال التمثيل الخطابية. فنحن، كما يقول بودريار، نُسكن فلكاً من الآداب اللغوية الطائفية بحركة وبلا مرسة وما يحدث يُمكن اعتباره نوعاً من اللاتحدث، بسبب فقداننا، منذ أمد طويل، كلّ وسائل التمييز بين «الواقع» ونظائره المتخيلة. هذا ما يقرّعه كريستوفر نوريس في كتابه المنكسر أدناه ويعلّق عليه بالقول: «إنّ المشكلة من الكثير من التفسيرات الراهنة، سواء قُدّست بروج ما بعد حداثيّة أو بعد نبويّة أو برأسمالية جديدة، هي أنّها تُحدّث كلّ الأنظمة اللغوية باسم الحقيقة إلى حدود لعب تمارسه «خطابات» متنافسة خائبة من أية ضمانات أو مشروعية خارج ما تزعمها إزاء قواعد اللعبة الشطوية الراهنة.» انظر كريستوفر نوريس، نظرية النقدية، ما بعد الحداثة، المخطوفون وحرب الخليج، ترجمة، د. عابد إسماعيل (بيروت دار الكتون الأدبية، ١٩٩٩)، ص ٢٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٨٨، ٩٤.

٢ - قطعة من أوروبا (بيروت والدار البيضاء المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢)، ص ١٦٩.



والتفاصيل والجزئيات أتراكم وتؤول إلى حاضره هو في الرواية سؤال مطروح على حالنا: ما الذي رمانا خارج الحياة؟ وكيف انتبهنا إلى مغلوبين نتمثل رأياً بيشما؟



ليست قطعة من أوروبا توصيفاً لواقع تحكي حكايته أو لتاريخ تعود إليه لتسردته وتجيّب عن السؤال، بل هي رواية تُعْشِكل حكايتها فيتشكّل سرّها بما يحويها إلى سؤال، وربما إلى أسئلة نشاركه نحن القارئ، في طرحها على روائية سردها، على معانيه، وما يجري أحياناً إلى الأخذ به وفيرها بصفتيه.

يكتب الناظر أنّ الخديوي إسماعيل هو الذي بنى ذلك الحي الذي لم يكن، كما يقول، سوى جزء من الإنجاز الحضاري الهائل الذي شهده القاهرة في عصر إسماعيل، والذي «لا يضاهي سوى ما شهده المدينة [القاهرة] قبل ذلك بخمسة قرون في عهد الناصر قلاوون» (ص ١٤)

نقرأ ما يكتب الناظر ونسأل: ما المشكلة أيّها الناظر، وأين هو معنى الحكاية أو حقيقتها؟ هل هو في قاهرة إسماعيل الرومسية، كما يسميها بعض المؤرخين، والتي نقلها إسماعيل عن الغرب، من باريس للجديدة التي خلط إسماعيل لشوارعها العريضة ومبانيها المخرّبة وحدائقها العامة؟ أم أنّ المشكلة هي في قاهرة إسلامية تركها إسماعيل مستتبّة في مضيقها، قائمة به أو غارقة فيه، متعلّقة إلى «عالم جديد ليقظ عن الغرب «الغرب الجغرافي»» (ص ١٣)

نكاد ونحن نقرأ أنّ أيّها الناظر تَصْرُحْ مسئلة وأنت تقرا التاريخ: «فكُنّا يا مؤرّخ» ذلك أنّ المدن هي تدلّش حضارات، والبشر حواريّ ثقافات، والعالم تسبيح فادّك لصفاء هويته، فإنّ في المشكلة

لكنّ، لا، تقول لنا في ما أنت تتابع الكتابة وتحوّل نفسك وكتابك، ليس معنى الحكاية في البناء والهمنسة والجغرافيا والتاريخ، بل في فهم يمسّق البناء في بناه في الهمد، إنّ في التصوّل وتوظيفاته، في التدوين وبيع أراضي الوطن، في الاستثمارات التي تتمّ على حساب المواطن والوهو، وفي رؤوس الأموال ومصادرها الحشيرة ومفاسدهم الداهية بنا إلى ما آل إليه حاليّ... في التقريظ لا في التناقض، وفي النشأت التي أغلظنا حقيقتها.

المشكلة هي في المسار، في التفاصيل والجزئيات، وفي كتابة أدبية لا تعيد اللحمة إلى الضجوات بل تتركها تُفَرّق في عمدة جعلنا أو توأمتنا أو جرينا وراء من يطن موت المؤلف ونهاية التاريخ.

في المسار، تعود بنا الرواية إلى ما قبل إسماعيل: إسماعيل بنى ولم يهدم. إذّا علينا أن نعود إلى جذه الذي كان أوّل من أعصّ الألهام لحشد التميم، تدمير لباني الأثرية لفتح سكة جديدة... مشهد لمحاول والهدات والجرفلات وهي تُظَلّع بيتاً ومساوذج وأسبلة وأضجارجاً وأبواباً ومشربيات وقبوراً أيضاً... (ص ١٣) وليس ذلك مجرد حكي أو سرد تخييلي يريده الراوي، وإنّما هو كتابة مؤقّفة منبئة على معلومات مخفونة من كتب قراها الناظر وقارن بين أقوالها، وهي معلومات تؤكدها رسائل تؤرّخ عليها،

لكنّ، لأنّ الراوي تقنية أساسية من تقنيات السرد الروائي، فإنّ المؤلّف تتطرّق إلى مهمته على المستوى التقني نفسه: فيدل الحكي الذي هو مهمته في الرواية، تؤكّل المؤلّف إلى هذا الجذّ/الراوي، المسؤول، مهمة الكتابة القائمة على النظر لا على السماع. كأنّها بذلك تُنمّج مسؤولية الراوي بمسؤولية المؤلّف، أيّ تُنمّج الحكي والسرد بالكتابة والمحقق. لكنّ في الجمع نوعاً من التواطؤ لا يخفي. فعندما يقول الراوي: «سأذهب إلى المكتبات وأحصل على المزيد من الكتب، سأقلم ما من بي ويساهي في الشوارع وأمعن النظر واكتب...» تردّ الرواية أو المؤلّف: «أنت تُكذب. لم تعد قادراً على المشي في الطرقات. لا رحت ولا جئت. لم تُصعد سلماً إلى أعلى رف في المكتبة، ولا خلّصت كتاباً ضخماً ونزلت به السلم. لم تذهب إلى هنا أو هناك. أنت مُفكّد... ورضوى تتواطأ معك» تقول فُطّح الطريق من بيته إلى ميدان التحرير، ومن ميدان التحرير إلى ميدان مصطفى كامل... (ص ٨٧)

يشفّ الراوي عنّ يختبئ خلفه، ويُفصح الرواية عن مؤلّفته هي التي تقول. يُسْطَق الستار، أو يرتفع، ليُكشّف لعبة الراوي: من يكتب هو من يروي، أو من يروي يتحوّل إلى ناظر يُكتب.

يبدأ الفصل الأوّل من الرواية بمباراة: «كُتِبَ الناظر... كلّ الرواية هي ما يُكتبه الراوي، وقد تركت له المؤلّف أن يختار لنفسه اسماً غير الاسم الذي اختاره له والده وغير كنيته التي ينادي بها الناس. كأنّ بذلك مختلف من الرواة الذين يضعون قناعاً ويأتون إلى مسرح الكتابة ويصنّون دور من ينقل الحكاية، فيكونون مجرد أداء متحرّرين من مسؤولية ما ترويه.

راوي قطعة من أوروبا هو الناظر في المقدمة، وقبل أن يبدأ الكتابة، يمرّكنا بنفسه، وكأنّه يمرّكنا بوليفته المختلفة، فيقول «أنا الناظر لأنّ مهنتي النظر. أنقل عبر حكايتي ما نظرت إليه من نظر العين والقلب، أيّ ما رأيته بالبحر والصحيرة...» فما أرويه ليس البصر نفسه، بل ما رأيته فاعجبني أو ساءني، اتفكر فيه وأفكره قياساً على موقعه مني وموقعي منه.» (ص ١٨)

إنّ الراوي المسؤول عن حقيقة الحكاية التي يكتبها كتاباً، فما هي هذه الحكاية وكيف صاغها بما يؤكدها وما علاقة كلّ ذلك بالكتابة الروائية، بفهم المختصّ السردية، بالنوع وروايتها؟

يحيي الناظر عن الحي الذي ولد فيه والمعروف الآن بوسط البلد، والذي كان اسمُه حيّ الإسمايلية، في هذا الحيّ نفسه، وفي بناية مجاورة للبناية التي ولد فيها، يجلس ليكتب، الآن، «ويعد أكثر من قرن على رحيل إسماعيل الذي أمر بإنشائه.» (ص ١٣)

يتوضع الراوي/الناظر في المكان والزمان، والحكاية، التي تضي بسيرة ذاتية، تبدو سيرة لهذا المكان وذلك الزمان، و«أنا» الناظر سوف تُكشف عن «أنا» الجماعة التي حرّكت الحفيد عليها السؤال: كأنّ «أنا» رواية عاشور يوضّح أمام مرآة ذاته ولكنّ في إطار مدينة هي القاهرة، ويلتزم هو مصر، لكنّ «أنا» في الرواية هوية تتشكل في مسارٍ محكوم بمجموعة من العلاقات

وَسُئِدْهَا تَوَارِيعٌ وَأَوْرَاقٌ وَأَسْمَاءٌ. ففي الرسائل التي كتبها بنجامين نيرزائيلي لأخفته في الفترة من عام ١٨٧٢ حتى وفاته في عام ١٨٨١ (١٦٠٠ رسالة)، مثلاً، نتمركز إلى حقيقة حكاية التدمير والبناء.

يقرا النظار المسار، ومن اللُحمة التي تُزَيِّم الفجوات تُؤَلِّد المعرفة. أجزاءً وتفاسيل ومعلومات تُشجّع عالم الرواية، مثل قطع من «الهارل»، تركيبتها يَهْلِي أكثر من قرن لا يتوالى زمن سنواته وألما يتشكّل صوراٌ وحكايات تتداخل وتتعاقد على شائعة المعنى وحقيقتة، لتنتهي إلى تكوين عالم يكاد يُشْبِهُ في هيئته عالمَ المنضامات الزخرفية. إنَّه عالم تزخره المعرفة! معرفة تبدو عاجزة عن تغييره، ربما لأنَّ أوانها فات أو لأنَّ المعنيين بها لا يكتثرون.

تَدْخُل أكثر في التفاسيل: بنجامين نيرزائيلي هو الذي اشترى أسهم خديوي مصر في قناة السويس لتجترا، أو قل إنَّ خديوي مصر هو الذي باع أسهمها لها بسبب مديونية الحكومة المصرية لشركة قناة السويس. والبارون لايوبل ناثن ماير دي روتشيلد هو الذي وُقِرَ لِلْمَالِ لصديقه نيرزائيلي.

نَسْأَلُ: هل كان الخديوي يعرف قوة الوسيط ومقاصده ومعنى أن يأخذ المال ليعود فيهمه مستدًّا ديونَه؟ وما دلالة الطلقة المفجورة بين مَنْ يَنْقَم وَمَنْ يَأْخُذُ؟

تقول الرواية إنَّ البارون أعلاه هو واحد من روتشيلدات خمسة، وإنَّ منهم روتشيلد بلفور، حفيد روتشيلد قناة السويس. إنَّ ذلك ينكشف المعنى من البعث والتحيق الذي يقوم به النظار (والنظارُ في خلفه) وأُضْماء حقيقة: جميعهم يهود، أثيرا، أجاتب، يشترين منذ أيام الجد الأكبر، يوجل بعضهم بعضاً، يملكون ويسيطرون... وينتصمون بالمراس.

لكن هؤلاء اليهود، كما عَستَمَرَ الرواية، ليسوا «أبناء حارات اليهود المحليين الذين لا يُعرفون سوى العربية»، بل مجامع مع حرج البحر، ويتحدون الإيطالية والفرنسية والانثون أو الروسية والألمانية واليديش، فترفعهم اللُفَّة وأصولهم فوق «المُطْعِن» من أصل البلد وترطبهم بأبشيداء الأناجب. (٦٠) ولا هُمْ مثل إدي صالح، اليهودي الذي سافر إلى فرنسا ويعودا إلى إسرائيل، ثم كتب إلى صديقه الجد يقول له: «مشروع دولة اليهود والحركة الصهيونية التي غُتِّتْه كان ثقبه مركبة، سَرَكْتُ من الفلسطينيين أرضهم، وألقت اليهود من أوطانهم، وسكُنت دماء كثيرة، دم العرب ودم اليهود.» (ص ١٢٩)

ربما كان إسماعيل وهكَّام مصر آنذاك، نقول نحن القراء، لا يبيِّدون، كما تَمِيزُ المؤلِّفة اليوم، بين يهودي ويهودي، بين أجنبي ومحلي، بين مستعمر يَدِّم الشركات الصهيونية بأشواله وآخر يَسْتَنْمِر من أجل مصر. لكنَّ الرواية تُخْبِرنا بأنَّ إسماعيل كان وقتها يجلس منتشياً في القصورة الخديوية ليلة افتتاح دار الأوبرا (عام ١٨٧١)، يشاهد أوبرا عايدة. قائد الأوركسترا والمُغني والغنية والمُغنون والعازفون من أوروبا، والمصريون يقفون بلباوار

الكومبارس وعزف الطبول. (ص ١٥١) كان إنَّما يتواطأ، أو كان غير مكثرت بأن يكون المصريون مجرد كومبارس!

تفصيل آخر يجيب عن سؤال المال ومسؤولية الأجداد: ففي ٢٥ يونيو ١٨٩٨ يولع خديوي مصر عباس حلمي «ديكرتو» بإنشاء بنك، هو البنك الأهلي

عظيم. بنك أهلي، أي مصري، ما المشكل، نَسأل، نحن القراء، الرواية والراوي النظار؟ أو ما هي حكاية هذا البنك التي جعلت الجد يأتي بها إلى روايته؟

إنَّه التواطؤ مع الذات، أو الجهل، أو السقوط في هوة المعرفة بعد ضياع الحقيقة فالرواية تقول: بل يكن الجد يومَ كان ولداً، ولا والله الذي كان يعمل في هذا البنك، بل ولا أفراد العائلة كلها، يَظُنُّون من شأن البنك وأهميته سوى تلك الورقة النقدية، الجنية، المكتوب عليها فوق صورة لتمثال فرعونى بالإنكليزية والعربية: «البنك الأهلي المصري National Bank of Egypt». لم يكنوا يعرفون أنَّ أوراق النقد التي كان يُسْتَدْرأها البنك كانت مجرد أوراق، وأنَّ هويتها المصرية مجرد حروف طُبع في بريطانيا. لقد كانت ٥٠٪ من رأسمال البنك ومكنته هي ملك السيد كاسل كنانان روتشيلد (هو يهودي ألماني) الذي مَلَّجَ الصانَ البريطاني، والد ٥٠٪ الباقية هي لمصر، لكنَّ مُعَلَّةً بثلاثة أشخاص هم: يهوديان وقد جُمِعوا من تريستا في جنوب أوروبا وهما الأخوان سوارس، ويوناني هو كونستنتين سلجارجوس.

مشاعر الاعتزاز التي كان يُشْعِرُ بها الولدُ بوالده الذي كان يعمل في بنك يعتبره جزءاً من هويته تتحول إلى سخريه ومهانة نستشعرها، نحن القراء، ولا تُكْصَح عنها الرواية... وخاضعة عندما يتابع النظار إيفغلي في البحث والمعرفة فيكتشف أن كاسل كان صديقاً شخصياً للخديوي عباس حلمي، وأنَّ مقابل قرض سَمَّحَ له باستغلال آلاف الأفدنة من أراضي الصعيد (ص ٥٧) بعد أن كانت الحكومة المصرية قد باعت «أراضي الدائرة السنّة، إلى مجموعة من المستثمرين الأجانب برئاسة السيد كاسل نفسه.

لقد كانت تلك مجرد بداية لجُذُرِ الفُوقِ الألماني اليهودي، الأجنبي، أو المُطْعِن المرتبط بالأجنبي، والمنتغل سياسياً على دعم منظمات صهيونية تؤيِّد، وعد بلفور وإمادة إنشاء فلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي. فقد كان ثمة عشرات من الجمعيات والمنظمات الصهيونية التي نشأت في المدن المصرية بين ١٨٩٧ و١٩١٤، وأنَّها «باركجيها» وأخرها «أبناء هرتزل»، تسعى إلى التوحّد وتعمل على جعل مصر مركزاً لنشر الكتابات الداعية إلى الصهيونية الموجهة إلى يهود الشرق. هذا ما قراه النظار/الجد في الرسائل والتقارير التي جمعها لاندواي في كتابه «عن اليهود في مصر في القرن التاسع عشر.» (ص ١٢٣)

ربَّما تَخَفَّت القراءُ للمعرفة هذه، وربما جاء مَنْ يشك في صحتها أو في دقتها ليقول إنَّ كلَّ سرد قابل للتأويل، وإنَّ كلَّ تأويل يضع الحقيقة على مستوى تفسيتها، وإنَّ الخطاب مجموعة معانٍ لا

مجموعة حقائق. وقد يرى أن ما نقله رواية رضوى عاشور ينتمي إلى «الإيديولوجيا»، وأن كل إيديولوجيا موضع شك من إيديولوجيا أخرى تتفادها.

لكن أي شك يُمكن أن يطول الواقع أو جغرافيا المكان وهويته؟ تجيب الرواية: الهدم والبناء؛ التوظيف والتفصيل الاستفدالم اليومي؛ ما يصور أحياء القاهرة ومعاني عمرانها وشبكة التسويج الاجتماعي التي يعاينها الناظر، ومن خلفه المثلثة.

فلن كان البندك الألهي تفصيلاً له حجم العلامة الكبرى في مسار البلد التاريخي - الاجتماعي، فإن سقّات ميدان سليمان باشا تفصيلٌ لجزئيات يعاينها الناظر ليرى ما لا يُرى بسهولة. إذ ثمة ثلاثة أسماء تتفاقم هذا المثلث العمراني عبر عملية هدم وبناء وتحول لعمران عليه أن يماضي محدثاته، للهدم ويؤمّن للشرط «الأفضل» للاستثمار الاجنبي والريح الخارجيّة.

.. السيّد شارل بهار، السويسري الناطق بالفرنسية، ومعه ينتقل المثلث من قطعة من إنجلترا إلى قطعة من فرنسا. (ص ٧١)

.. السيّد جياكومو جريبي، وهو «سويسري» آخر وصل مصر في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وجاء من المنطقة الإيطالية من سويسرا. أنشأ مطعمًا ومتجرًا ومقهى، وهي عبارة عن مشروع ثقافي «يرسي ذوقًا وتقاليد..» (ص ٧١ - ٧٢)

.. السيّد يعقوب قطاوي، وفد أمثلك أراغبي وشركات ومعارات. توفي عام ١٨٨٢، وترك أولادًا وبنات تزوجن من أبناء أكبر العائلات اليهودية في مصر وظلّفن أحفادًا يحملون أسماء منشأة وموسميري وسوارس ورولو ومرزاهي.... وصار منهم من صار وزيرًا أو عضوًا في المجلس التشريعي أو البرلمان وجلس الشيوخ، أو مديرًا لمينك الألهي، أو من مؤسسي بنك مصر... (ص ٧٧)

منذ ذلك التاريخ يُمكننا الأجانب اليهود أو اليهود الأجانب، كما نستنتج ونحن نقابع القراءة، والمال تدوير أسبابه: فقد ارتبطت نزيعة قطاوي بمصر وحكامها، وكان منهم من يكتب رسائل الملك، ومنهم مستشاره الخاص، (ص ٦٨) وكان المصامي أمارين اليكسندر، الذي تزوّج حفيدة يعقوب قطاوي، يثّم الدعم لاصطفائه ويستضيفهم في بيته؛ ومنهم صديقه وإيزمن، ورضايط الاستخبارات الانجليزى الشاب أوبوي إيبان، الذي سيُشرف «باسم أبا إيبان وهو يرفع علم إسرائيل في الأمم المتحدة بعد إعلان الدولة التي سيؤنّسها وزارة خارجيتها لاحقًا.» (ص ٦٩)

كانت أوصال القاهرة تتخلّج وتتواصل بهذه الأموال، وما لأصحابها من نفوذ يُعْضِي إلى هيمنة الآخر على مصائر البلد وأهله. فثمة يهود، أجانب، إخوة في العائلة، وإخوة في الغايات، تُشكر، تُذكر من تذكهم الرواية: «الإخوة سوارس، والأخوة شيكرويل، والإخوة قطاوي، وغيرهم من العائلات اليهودية المتفدّة في مصر: موسميري ورولو وإلجي مرزاهي.» و ثمة بنوك: «البنك الألهي، وبنك البرهونات، والبنك العقاري المصري، والبنك التجاري

المصري، والبنك الزراعي المصري...» بضوابط طرق: «خط سكة حديد حلوان، وخط سكة حديد الدقا...» لا يعرف الناس إلى أين تؤثري بهم، وشركات: «شركة قنا - أسوان للسكة الحديد، وشركة المعادي، وشركة الملح والصودا، وشركة مصر للزراعة...» كلها ملك ليهود أجانب أو لأجانب يهود.

سيرة ذاتية هي رواية قطعة من أوروبا: ذات المدينة، تاريخها ومجتمعها وأمكنة. إنَّها سيرة الهدم والبناء ونفوذ الخارج من الداخل.. من التفصيل والجزئيات، مما لا يُرى أو لا يُحسب له حساب، فيتركز ويؤوّل إلى ما يفتاح بهوّه وعمق مساهته.

مسيرة تستدعي سيرة أخرى لأشخاص ومؤسسات ومفاهيم وأماكن، كي تُكشف عن معنى شروق الذات في الآخر المحذّر بمقاصده لا يبتغيه ويؤثّر. هذه المقاصد هي هوية سياسية قوامها المال والريخ والاستثمار، وأهلها وعن عرقى ينيئ لليهود ارتباط إنشائه بما آل إليه حال الأحفاد وحال مدينة استبيحت للحريق

«أريد أن أصرف لأحكي بقية من نفسي ومن ظرلتي ومن يوم الحريق»، يقول الناظر (ص ١٧٢)، ويُقصّد حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢. «كان أبي حاسماً في اتهام الإنكليز بتدبير حرائق ذلك اليوم في وسط المدينة»، لكنه يتوقّف عند قول أبيه ولا يأخذ به سيابشرة بل يعود إلى التاريخ والمؤرخين، فيلاحظ عهد ربط المؤرخين المشتبه بين حريق القاهرة وحرب فلسطين. يبحث عن أدلة، فيجد أن حريق القاهرة طال مجموعات أساسية مثل «بنوك ومتاجر ومحلات تخصص الإنكليز وبعض الأوروبيين: متاجر أثراء اليهود.» (ص ١٧٦ - ١٧٧) يعود إلى رسالة صديقه اليهودي إدي صالح، فيقترّب من الحقيقة التي يربحها هذا، وهي أن الانفجارات التي أفرقت ملاحر ليهود في مصر ولم تفسر لعميد اليهودي هي من تدبير عناصر الميساد النشطين الذين «يعملون تحت غطاء شركات سياحية تسهّل لليهود السفر إلى جنوا أو مانساليا ومنها إلى معسكرات ينتقلون بعدها إلى إسرائيل.» (ص ١٧٨ - ١٧٩)

تبدو الآلة التي تتدفّق كل هذا هائلة في عين الناظر. فيعترف بعجزه عن الإحاطة بها. لكنه يتجسّر في السار، بين ما حدث في مصر وما يحدث في فلسطين. الربيع ممكن بين مصداق القصر هنا وهناك: بين مظاهرات نوفمبر فجّر ١٩٤٥ ونovمبر ١٩٤٧ ويناير ١٩٥٢ (حريق القاهرة)، وبين مصداق الغضب في الشارع المصري وفلسطين. ثمة ديجان يديران المهجد، هما شارون وبيزري في حكيمته، وظلّهما على الجدار صورتان معلقتان لجن جيروين وهرتزل (ص ١٨٦ - ١٨٧).

التفاصيل كثيرة، تُخلّج بها رواية رضوى عاشور كي تقرأ المسار. والمسا، كما تقراء بعين الناظر، يبدو متداخلاً معقداً. تتفاقم المسؤوليات، ويُصْغى الحاضر الماضي، أو يُثْرا الحاضر في قراءة الماضي. تتسع حدود الحاضر، وتفسّر الرواية زمن العولة. تتبو الأزيمة بلا مصافة: ضروقة النار في قلب القاهرة الروميّة صباح

يوم سبت تبدو على تماسٍ بضمرواتها «في برجيّين ومجسّج حربيّ في قارة أخرى صباح يوم ثلاثاء» (ص ٧٠٣)

تُختزل المسافة المكانية/الزمانية. كأنّ اللهب يمتدّ عبر الأزمنة والامكنة ولا نراه، ربما لأنّنا لا نُحسن قراءة القارئ.

يدرك الناظر، بعد ما وصل إليه من معرفة، أنّ التاريخ مرجع هامّ وضرويّ للحكاية. وإنّه عندما قال، في بداية حكايته، «تقلّتي يا مؤرّخ»، تجنّى على استناده الراجعي وكتابه. لكنّه الخوف من مول الألف، من زمنها الذي لا ينتهي. خوف يدهم الناظر. يمتدّ ويتحوّل إلى عواء، مثل كلب في العاصفة. «دعوى»، يقول. ويبرز السؤال الذي يطرحه على نفسه، بصفته يكتب: «كيف أكتب؟ هل يجوز أن تكون الكتابة عواء» (ص ٢٠٤)

يسؤال حول معنى الكتابة ومفهومها. تُقاربُ الروايةَ صفحاتها الأخيرة، وكأنّك قد بدأت بسؤالٍ مثل ولو مضمّن: إنّها، إذن، نهايةٌ تحوّل على بداية. وبدايةٌ تقضي إلى نهاية. كأنّ الحكاية كرهٌ تُشبّه مسار النار، أو كأنّ مسار النار حلقةٌ تنفلق نهايتها على بدايتها. تنفلق لأنّنا لم تكسّرهما في لحظنا من استدارة زمنها على ذاته. لم نقرأ ماّل النار يومَ حريق القاهرة. ويوم حريق البرجيّين لم نسال: ما العلاقة بين الحريقين؟

من المعرفة تُأرّح الروايةَ أسئلها. وهي معرفة لا تكفي وحدها لكتابة رواية، لكنّها ضرورية لسؤالٍ يطرحه الرواية على الكتابة: كيف نكتب؟

قطعة من أوروبا هي، في مسعى اللؤلؤ، مشروع جواب. فلقد كتبَ رضوى عاشور روايةً أضمرت فيها دعوةً إلى الاهتمام

بالحكاية، حكايتنا. وقادها اهتمامها بهذه الحكاية إلى ممارسة كتابة الاختلاف البنائي للنوع الأدبيّ الروائي. ولم يكن دافعُ الاختلاف شكلياً، بل هو مرتبط بمادة الكتابة نفسها، بالمرجع، بموضوع الكتابة (أو حكايتها)

كتبَ رضوى عاشور روايةً لحكاية نُقبت عن أحداثها وأشخاصها، ونظّرت في أحوال امكنتهم وأزمنتهم. فجاءت متوجّهة بحرارة المعرفة والصدق، تدقّ أذنّ القراءة بإيقاع جملها الصاد، وتُشغل الخيالَ بتكوين مقاطعها وبناء فضاءات عالمها الراكض بنا بين أزمنتها للمتعدّد، وأناسه الكثر، وبزوايا الامكنة وهي ترسم ويتكسب بطاقةً مفصّلةً بهويّتها.

المعرفة بتاريخية الواقع ومجتمعية وسياساته ركيزة في رواية رضوى عاشور. ركيزة وأغية أرائها المؤلّفة كما يبدو لي، ولكنها سمحت كي لا تكون على حساب فنية الرواية وممتعة قرائتها. هكذا كانت تتكسر حدّة المعرفة بما يُلحّره الناظر على نفسه من أسئلة تغلغل أحياناً بقينيته، فنسفل ونشارك في التناول: التناول المحاور المتعامل مع اللغة في جانبها الإحائي الذي يحفظ للمعنى قوّة الحقيقة. والتناول الذي يُشعلنا على المشاركة في ما يمكن أن يتكشف عنه زمنٌ تهجس به الطيفيّة شهريّاد بعد أن وصل الجدّ إلى عجزه.

هكذا يترك الناظر (المؤلّفة) لشهريّاد، للأصفا، متابعة البحث مشفقاً بإشرافه أمل، وورغبة في الإفادة من حداثتيّين ولا تموّج: مؤتّع على الشبكة ييسّر تحصيل المعرفة، وكتابة على الكمبيوتر تسهل ترتيب الأوراق ونشرها. فالحكاية لم تنته.

بيروت

## ملفات الأعداد القادمة من الآداب

- السودان... بعيون مصرية (ملف من إعداد: أحمد الخيميسي)
- الجزائر... بعيون مغربية (ملف من إعداد: عيد الحق لبيض)
- الشعر الإيراني الحديث (ملف من إعداد: موسى أسوار)
- الفن التشكيلي العربي/المتوسطي (ملف من إعداد: كيرستن شايد)
- الشعر الأميركي الحديث (ملف من إعداد: سامر أبو هوش)
- المقاطعة الشعبية العربية والعالمية للعدو الصهيوني ولداغميه (ملف من إعداد: سماح إدريس وكيرستن شايد)



## حوار مع الروائي التونسي صلاح الدين بوجاه

### ■ أنا أكتب إذن أنا مغاير! ■

لماذا فعلت يومذاك؟

تشبّثتُ بها تميماً تقينى مثيراً الطريق وتُكسب وجودي معنى. لقد ورد في بداية الفُضّاس قولُ الراوي هنالك: «كان تاج الدين فرحات قد أَسَنَ منذ أعوام بأن الدنيا غريبة تدور حوله كمثل الطلحون، أو ثُلّاعيه للكرويدا مثل ثورٍ جريح في ميدانٍ شاسعٍ أملر بالرهق والرتيب والأهابيل. وقد قُسم شطراً من حياته يُكَلِّم بأن يصبح أدبياً كبيراً». ثم أتقن أن للفن متعة خالصة تُلْذِّس لحظة الخلق، هادئة مطراً قد أسْلمست القيادة، أو جُمُوحاً غنيبة أبقه. فلبث معاشراً للحبر والورق ورائحة المبر، يحبّ الكتب ويعالج الكتابة ويُعشق الظلوة ويُطيل السهر... ويُثيره الترابُ غبٌ يوم مطير...»

ولكنّ إلهها الراوي عن نفسه اليس في إمكاننا أن نُجَلو  
الملافة؟

حين تسأل القاصّ والروائيّ التونسيّ صلاح الدين بوجاه أن يقصّ عليك رحلته مع الكتابة، تجده يأخذ موقع «الراوي» عن نفسه، ليخبرك بأن الرغبة في الكتابة وُلدت عنده منذ طفولته الأولى.

أجرى الحوار:

ماجد السامرائي

بل في إيماني أن أجزم بأن الكتابة عندي قد وُلدت من كمّ الخوف والخجل والارتواء، فكانت بالنسبة إليّ تزيّيق وجود، بها القول واسمّي وأعبر عن صمغي الخلق. فهي تجربة في الوجود أساساً، وليست منبعثة من همّ اجتماعي أو سياسي أو سواه. إنها فعل حميم قواسم كُشف المغطى (الذاتي والعام)، وتعرية الصمت والخفاء، وتجاوز ما سَكَت عنه إنّها حياتي الأخرى العميقة التي اتَّخَفُفَ فيها من وقار الأسرة والمجتمع والوظيفة.

في بداية السبعينيات كتبتُ القصة القصيرة، وقد ظهرت لي عدّة أفانيسص على صفحات جرائدنا ومجلاتنا التونسية. لكنّي جُنتُ بعد ذلك إلى الرواية، إذ أُرْغِمْتُ أنّها أُرْحِبُ عالمًا أوسعُ أفقًا وأقدر على خلق الإيهام للتشبع الطويل القائم على غواية القصص والتخييل وشبقية السرد.

ومن بعد ذلك أين شَتَّ بك المسار؟

عُدْتُ بعد خمس روايات إلى القصة القصيرة، فظهرت لي مجموعة باسم سهل الغرباء. ولكنّ تشبّهي بالرواية، مجالًا لعلمي ولعبي ووجدوني، يُلَبِّثُ أمرًا ثابتًا لا مراء فيه.

أود أن اتعلّق أعمالًا معك، فيماذا تخبرني عن كلّ منها؟

كانت موبنة الاعترافات والإسرار عملاً من أعمال البدايات فيها قوة الانطلاق، وسعة الأفق، وسداجة الشباب أيضاً. اتَّشَبْتُ منها الآن بتجربة الفنّ والماشية، إذ عمدتُ إلى محاولة إحياء شكل عربيّ قديم بتقسيم الصفحات فطلياً إلى فنّ وحاشية، بحيث تُروى الأحداث روايتين مختلفتين، تتمايزان ثمّ تلتقيان. حين كتبتُ للدونة كانت حاضرة في ذهني رواية المسخ لكافكا. وكنتُ أجزم بأنّي، وجيلي التونسي والعربي، قد أصبحنا مجرّد كائنات ملامية لا وجود لها. لذلك سُسْتُهَلُّ الرواية بالإشارة إلى أنّ بطلها لا وجود له: فهو غائب، خفيّ، في صفاء الزواج الذي يُمكن أن تُفسّر من خلاله.

أمّا التاج والخنجر والجسد فتراود هواسات الريف والمدينة معاً، سعياً إلى ابتداء عمل تخييليّ هو من قبيل السيرة الجماعية لكنّ التخييلة (رغم تناولها بعض عناصر الواقع). إنّها معالجة للعبة الراعي والرعيّة عِزٌّ تاريخنا الوسيط والقرية، بالوات من المعاصر.

وأما حمام الزغباء فتُسْتَد إلى حَمَامٍ فعليّ في مدينة القيروان العتيقة. لكنّ القصة قائمة على ارتداد مجاهل الرغبة والموت عبر جسد المتعة والجحيم.

لكنّي أُرْغِمُ أنّ الفخاس هي مركزُ أعمالي إلى حدّ الآن، رغم أنّني نشرْتُ بعدها روايةً ومجموعتين قصصيتين. فهي روايةٌ بحرية، أولاً، إذ يُلَبِّحُ البطلُ رحلةً من «حلق الوادي» إلى مدينة «جنوة» الإيطالية. وتتوالى الأحداث في لعبة تخييلية تُزجُ بجميع عناصر الحضارات والأجناس والثقافات، بما تُشَبِّه للحمّة في معناها الشامل. فقد قامت على المزج السريّ واللغويّ والحداثيّ بين عناصر متبادعة شكلياً ولغلياً أيضاً تُنْثَرُ نَجْماً في السرد يُمَلِّسُ إجابةً على التجارب الغريبة الراهنة.

وأما راضية والسيرك (رسامح الله د سهيل إدريس) (ناشر الرواية) الذي اختار هذا العنوانَ بديلاً لـ «السيرك أو القاع - لا يهمّ»، فهي رواية تُرْثَد مجاهل الشوارع الخلفية في مدينةٍ عربيّةٍ ما، حيث انسكبتُ عنه جنسيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً وحضاريّاً. وهي تجربة تختلف كثيراً من حيث السرد واسلوب اللغة عن الروايتين الأولى والثانية (أي للدونة، والتاج والخنجر والجسد).

أخيراً فإنّ سهل الغرباء مجموعة قصصية تُعَمِّد البرهة المرمّعة والمشهد الأقلّ، وتقوم على اللحظة الأخيرة حيث يختفي الانتظار.

لو أردنا تخليص الرؤية والوقف في هذه الأعمال، فماذا نقول؟

أقول: يتحاور في محاولاتي الروائية: التراث، وعناصر العلم المعاصر، والشعر، والتاريخ، والأسطورة... الواقعيّ والعجائبيّ، الخاصّ والعامّ، التونسيّ، والعربيّ، والمتوسطيّ، والإنسانيّ، والمحليّ، العبد، اللعيب، الجدّ، الوقارّ الساخر. إنّها سؤالٌ حول جنوني الخفيّ وراء بذلة الأستاذ، أو عضو البرلمان، أو الزوج والأب.

الكتابة عندي  
تجربة في الوجود  
أساساً، وليست  
منبعثة من همّ  
اجتماعي  
أو سياسي

وفي كلمة، أُرغم أن تجريتي في القصة والرواية في حاجة إلى التآني الرصين البعيد عن مجرّد الاستحاح أو الاستنفاس، إنها في حاجة إلى الناقد الذي يُحكف على مجالات القوة فيها ومجالات الضعف والنقص، بهذا العالم ويَعْبُرُ الماشق.

بوصلك روائياً من جيل روائي جديد، ما الذي تريد التأسيس له من خلال رواياتك في بعديها الفني والموضوعي؟

أحلامٌ برؤى شتى تتناهي لدى مستهل كل رواية، بل كل قصة قصيرة أيضاً، كما أقول: «إنني اخترتُ المزج بين التراثي جدّاً والحداثي جدّاً» أي: «إنني أجنح إلى استعارة الأساليب القديمة الرصينة فحسبُ تطويعها لأداء العصر، بل لأداء أحدث ما في العصر» أو: «إنّ في كتاباتي السردية جنوحاً إلى مراودة العيب واللعب بالمقدس اللفظي والديني والاجتماعي».

إنّه توقفٌ ينتابني عند مفتتح كل عمل جديد، إذ أتدبّه إلى أنثي لم أحقّق من أهدافي الأولى غير التّردّد الياسير، وإنّ النصّ قد أفلت من ضوابطي ويكاد يُلقي بي على أرض الحيرة والبُطلان.

عند الفراغ من كتابة النصّ الجديد، أقبل على قراءته للمرّة الأولى، فأجدي إزاء نصّ غريب. وألحّ ههنا فأقول إنّ هذا يحدث مع الروايات خاصة، أما القصص القصيرة فحفظها قليلٌ من هذه المعاناة التي يسألها النصّ على الكاتب.

على الرغم من كلّ ما نقوله عن روايتك وقصصك القصيرة، أو ما قاله النقاد عنهما، فإنّ هناك «الجوهري» الذي يُبقي تميّزه. وهناك «السؤال» أيضاً... الذي قد يكون سؤال الذات في مواجهة الواقع والعالم الذي في فيه ولكنها تعيش انفصالها عنه أحياناً.

هل أجزّبه ههنا «السؤال» (إنّ يُجد لي بالضرورة سؤالاً، هو سؤال الذات في مواجهة الواقع أو العالم، في مسابرة واختلافه؛ لأنّي أكون قد اخترتُ المسألة، من وجهة نظري الخاصة، في قصة قصيرة تُحمل عنوان «المهرج» فالواحد ممّا يلبث مهرجاً حتى آخر حياته. قد يُزجج حاضبه بهذا اللون أو ذاك، وقد يَحْضد فلسفةً بشكل معيّن، وقد يُعابت الأطفال والعجائز فوق ركع السيوك العامّ الذي نعيش داخله، ولكنه في النهاية لن يفرل إلّا ذاته: انتها واستيهامها الخفية، جراحها وانتصاراتها الموهومة.

إنّ مشكلتي الأولى تُنبع من تلك المفارقة الأصلية، الكيانية، بين الذات والواقع. أما مجتمعي وإنسانيّ والرؤى العامة التي شكّنتني، فشأنها شأن آخر؛ فهي تتسلّل من خلال اللعبة الأصلية التي هي لعبة الذات مع العالم، معها أو يُفدّها أو فيها؟ لا يهمّ... لكنها ثانوية بالنسبة إليها.

نعم تعيني لعبة الحياة والموت، الرغبة والعدم، الفردوسيّ والجحيميّ، أكثر ممّا تعيني المسائل الاجتماعية رغم غناها ومميّتها وجلال قدرها.

وسؤال الألب، عنده؟

إنّه مُقدّس بالمرح الأبدّي الذي ما قَبِتنا تَلَمّعه منذ الأزل مثل الذباب العائنة في الصحراء، وهو؛ ما جدوى هذه المعاناة الكبرى التي تحفّ بنا؟ نحو أية غاية نسير؟ ما سرّ للعبة التي تَنَلّط بين أناملنا مثل سراب الطريق؟

مع كلّ من جديد نُسْتَشعر اللمّ وخفوت الألم؛ ذلك لأنّ الجراح يُثيرها ويُهَيِّبها شيئاً من السكينة. في أن!

ولكنّ يقرأ لقرارك أنّ هنالك حاضراً دائماً (هو الكاتب/أو ابطله) يُنادي غائباً (قد يكون إنساناً، مثلاً، فكرة، حقيقة).

لعله من شأن النقاد والقراء عامة أن يبقوا على هذا. أمّا ما يُمكن الجزم به الساعة فهو أنّ فكرة الغياب، من حيث هي سلبية فكرة الموت، هي من العناصر الثابتة في ما أكتب. وماذا يفعل الكاتب في النهاية غير محاولة تشويش المُشّ والافكار والحقائق.. قصّد إعادة تنظيمها بكيفيته الخاصة؟



أزعم أنّ النخاس في مركز إسماعي إلى حدّ الآن

لكنتي اود هنا ان اضيف إنَّ حظَّ هذا «الناس» من الوضوح والخفاء يُختلف من عمل إلى آخر؛ فهو في الغفاس أكثر جلاءً ووضوحاً ملامح منه في النجاس والختجر والجسد، أو حمام الزغباء.

وهناك أيضاً ما يتراجع، في الوالت الذي نجد فيه ما يتقدّم.

نعم، وذلك هو السجل الدائم بين الشخصيات والكاتب والقراء، المقترفين، ومجموعة الأفكار والمثل التي يتعاملون معها - ومن خلالها - مع الواقع والناس والغييب. وحركة المذَّ والجزء هذه تتخذ صوراً ووضوحاً شتى، من عمل إلى آخر، بل من فصل إلى آخر، ومن حذر إلى الذي يليه أحياناً. حُدَّ رواية راضية والسيرة مثلاً. فلقد اتخذت شكل اللعبة (لعبة السيرك بالتحديد)، لكنّها في جوهرها شتخصصر الكثير من الغياب - من قبيل المثل والأفكار والحقائق

هل تجد أنّ ما يتشغل إبطالك وشخصياتك الروائية، أو يؤطر عوالمهم من الرؤى، يُعطل شيئاً من التعبير عما تريد أنت أو تراه؟

لا شك في ذلك. لكنَّ يبارق وإساليب معقّدة جداً. فهناك تشابيه واستعارات كثيرة تُسَمَّى إلى اختزال «لعبة الفن والواقع»، ومنها حديث البعض عن الصنوق الأسود في آلة التصوير حيث تبدو المشاهد - أولاً ما تُبَدِّ - مقلوبة رأساً على عقب. لكنني هنا أكتفي بالجزء بأن هذه اللعبة معقّدة جداً. فهي من قبيل الحلم أو لعبة الفن أو مداراة الغيب. إنَّها، بكلمة، لعبة قاتلة وكفى!

ومهما كنّا قد صمَّنا من حيل ومداورات فإنَّنا - أساساً - نعبّر في شخصيات أعمالنا عن الكثير من رؤانا ورغائنا. ولكنَّ هذه الرؤى والرغائب تُرَدُّ محرَّكة مشرَّمة، لأنَّ تلك الشخصيات سرعان ما تابق بعيداً وتمتد السقطة لمعابيتنا والتهمك علينا. فهل نجانب الصواب إذا ما أكدنا أننا نتوهم أننا نُفكِّق شخصياتنا، لكنّها في النهاية قد تكون هي خالقنا الفعلي؟ وهل أقول إنّ «النفس» هو الذي كتبني؟

هذه الشخصيات في رواياتك لا تُطلب الحقيقة لذاتها، وإنَّما هي في بحثها عن «الحقيقة في الحرية، إنَّما تعبّر عن أزمة الإنسان في عصرنا.

هذا سليم جداً في نهاية المطاف. إنّ الواحد ممّا لا يعبّر عن الإنسان أو العصر (بحرف تاجية) إلّا من خلال تعبيره عن ذاته وإحلامه وطمحه واستحياته. وهو لا يعبّر عن الإنسان والابدع والأوسع إلّا ساعة يُفكِّق في المحلية. فالصنوق هو طريقنا إلى الأرحب دائماً. الرمح/عق الزجاجة/منبتق البنجر: صور الطبيعة جميعاً تُدعّر إلى إنشاء المقارنة.

دعني أجزم بأنَّ تشدائر الحرية أو الحقيقة في الحرية هو من الأمور الحضورية في مشهد الكتابة. فنحن نعيش الحرية حين نجس إلى أنفسنا، إلى عالم أولمانا وجراحنا، ونُكتب فالحرية إذن معطى حضوريٍّ ومعطى منشورٍ مؤجل في الوالت نفسه.

وأخذنا هنا لأول. إنّ الكاتب يُعبد الحرية لأه يُعبد المعايير. إنّ كلّ ما يُعَلِّم حين يُكتب لا يُخرج عن قوله «أنا مغاير»

هل نستطيع القول هنا إنّ ما يهيم في روايتك هو إعادة بناء عالم الإنسان في عصره؟

مثلاً قلّت منذ حين، هذا سليم جداً، لكنَّ في نهاية المطاف.

يقول بعض النقاد. «القارئ يُعَلِّم خلف روضة كلّ كاتب لحظة يجلس إلى أوقاه». ويرى آخرون أنّ الرؤية العميقة المتحمكة في المجتمعات هي التي تتجلى في أعماق الأعمال الإبداعية، متخذةً عدة أشكال يُفسّر تبويبها وضبطها ولكنّها تنكّر بعلامات للجمع الساطع.

كل هذا سليم جداً، في ما أرى لكنَّ الكاتب لا يتقصّد ذلك تقصّداً. قصارانا أن نُبدع، أي أنّ نكون أنفسنا بتناقضاتها وقوتها وصورها، وأن نعبث الناس والأفكار والمفاهيم والمسلمات، وأن نعبث أنفسنا والمستقرّ لدينا. وقد يتشكل في النهاية من هذه المعايير، أو قلّ من طين هذه المعايير، ذلك الكائن الخفزيّ الجميل الذي سيكون بالضرورة حاملاً شيئاً ممّا ومن عصرنا ومجتمعنا.

في مونية الاعتراقات والأسرار أُنْفَرَفُ بأنني تقصّد ذلك تقصّداً، لكنَّ هل كان هذا من قبيل العبث؟

## ماذا يفعل

### الكاتب في النهاية

#### غير محاولة

#### تشويش المُثُل

#### والحقائق قصد

#### إعادة تنظيمها؟



ماذا يعني ذلك عندنا في مستوى الفكرة التي تؤسس عليها الواقع الإنساني في روايتك؟

لقد قامت مدونة الاعترافات على الرغبة في تصوير واقع جبل عربي عُيِبَ حد الفجيرة. وذلك استعرت للبطال (أبي عمران سعيد) صورة الغياب الفعلي وعمدت إلى المزج بين الواقعي والخرافي المعجاني، فأكّدت أنه قد غاب منذ الشطر الأول من النص، أولطه قد «رُفِع» أو هاجر في الملوك. وكنت حينها تحت وقع رابعة فرائز كافكا المسخ، حيث يتحول غريغوري جشرة ضخمّة منقابة على ظهورها، منكفئة على نفسها، منذ السطور الأولى من القصة

إن تُسَخ الإنسان، أن يغيب ويورث تراب القهر: ذلك هو قُزْنَا.

إن كان هذا هو المقصود بسؤالك، فهو ممّا يقدم رواياتي وقصصني. فيُتَد صريحاً حيناً، خفياً حيناً، لكنه حاضرٌ أبداً، فاعزّ فتحتّه الدامية مثل جرح قديم لا يتمل.

ولكن ألا تجد أنّ شخصياتك تُحْمَل نظامها معها؟

نظامها غير ثابت. هي لا تُحْمَل معها منذ المستهل، بل يوجد تدريجياً أو يتمّ تخليفه لدخل النص. هل نستشير هنا منها تلك الصورة الوجودية القديمة: «الوجود يسبق الماهية، ويستبق الماهية في التي تسبق الوجود» إنّ شخصياتي تستكشف جوهرها وتُصنَع ماهيتها بعد أن توجد، أو قلّ بصورة تدريجية وهي تُوجد نظامها معها؛ ذلك لأنّها توجد كي تبحث عن نظامها!

وهل وجدت أنّ شخصياتك الروائية تُلْقِح امامك أفاناً جديدة في الحياة؟

طبعاً. نشخصياتي في النهاية أصنافاً، أو رفاق في مغامرة الوجود ومعاينة الناس والأشياء والواقع. هل أستشير شطراً من أبيات صديقي محمد الغزّي لأعقّب: «أولئك هم الذين يتبدّون على القلب حين تُرْجَف في الليل من الوحدة»

لقد أثبت في تصديري لجموعة سهل الغريام صرخة دعيّل الشاعر. ولئنّي لاثبت بها مجدداً هنا: «أحُمَل خشيتي على كتلي منذ خمسين سنة... لست أجد أحداً يُصَلِّبني عليها».

نعم، إنّ شخصيات رواياتي وأقاصيصي مثل الأسماء: استمعن بهم على وعشاء السفر، منهم الدرية ولجهم المران. فمن يكون الاقتر على أن يُصَلِّبني على خشيتي التي تُثْقَل كاهلي منذ ما يُزِيو على الأربعين سنة؟!

أخيراً، ماذا تجد نفسك قد حققت للكتابة الروائية؟

شيئاً يسيراً جداً. وليس هذا من قبيل التواضع، بل قد يكون من قبيل الغرور! لقد حققت نزراً قليلاً مما أنوي تحقيقه فمشروعي في الكتابة الروائية أوسع، وأكثر إغناءً، ممّا كتبْتُ إلى حدّ الآن. قد أكون الآن تمكنت من صوغ بعض الأسئلة، أو قلّ الأسئلة الأولى، لكنني لم أحلّق ما أُصنِّو إليه.

إنّني أشهد، وأقرّ، بما يلي: ساواصل تشويش الوجود بكيفيتي الخاصة. وإنّي مقبلٌ على المزيد من العبث والمحاكاة الصائفتين... بعد أن عُزِفْتُ بهامشاكس الصامت.

تونس



رواضية والسيرك: رواية فرائز سجال الصراخ الخفية في مدينة مريّة حيث للسكوت عنة



## الرقابة في المغرب

ملف من إعداد وتقديم: عبد الحق لبيض (مراسل مجلة الأراب في المغرب)

أُسِّمَتْ علاقة الدولة في المغرب بالجمال العام، منذ بدايات الاستقلال إلى اليوم، بسمات التوتر والصراع. ويعود ذلك إلى محاولات هذه الدولة فرضَ قِيَمِها على الممارسة داخل ذلك المجال الضَّاعِ والتَّعَدُّ والتَّنَزُّع. وفي هذا، لم تكن الدولة الوطنية تُشكِّلُ مشروعًا حضاريًا ومجتمعيًا تدافع عنه وتتنافس به ذِيكَ التَّعَدُّ والتَّنَزُّع، وذلك ضمن أرضيةٍ للتعايش المشترك مع مختلف القوى الاجتماعية الفاعلة. وتبعًا لذلك، ظَلَّت الدولة في علاقتها بالمجتمع منشغلةً بالهواجس الأمنية خوفًا من اختلال «التوازنات المجتمعية» المقرَّضة مِن دُلَّها، مانعةً المجتمع من اتِّخاذ المبادرة ومن تدبير اختلافاته وصراعاته وفق السلوك المؤسساتي المتناغم مع ضوابط النظم القانونية.

فحتى حين سعت الدولة منذ بزوغ فكرة الاستقلال إلى سنِّ قوانين للحريات العامة من أجل «تنظيم» الممارسة الاجتماعية، عمدت إلى خرق هذه القوانين بنفسها وإلى القيام بممارسات استبدادية غير قانونية. وقد تجلَّت هذه الممارسات في استصدار السلطات، ممثلةً في وزارة الداخلية، للعديد من المراسيم والمذكرات التي تحدُّ من فعالية القوانين والمساطر المؤطرة للحريات العامة ولحقِّ الممارسة والمبادرة لكلِّ مواطن. لذلك ظلَّ قانون الحريات العامة الصادر سنة ١٩٥٨ فارغًا من كلِّ دلالة، وحلَّت «الرقابة الإدارية» بديلاً من الرقابة القانونية. والرقابة الأولى، عكس الرقابة الثانية، لا تُخضع في اتِّخاذ مواقفها لتعطيل الجهاز القضائي المستقل، وإنَّما تعتمد في الأساس الأول على مزاجية الرقيب وأهوائه. وقد ظلَّ ذلك نوعًا من الضبابية في ممارسة الفعل السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، إذ صار المارِسُ أمام عدم فهم واضح بالية الممارسة وبمحدودها الأخلاقية والمهنية.

...

كُرِّسَ هذا النوع من الممارسة الرقابية العشوائية شكلًا آخر من الرقابة اصطلح عليه بـ «الرقابة الذاتية»، وهي تمثِّلُ نوعًا من الإيهاب الذاتي الذي يمارسه الفاعلُ ضدَّ ذاته وإبداعه وحجالي ممارسته. وتبقى هذه الرقابة أقوى من الرقابة الإدارية لأنها تظلُّ رقابةً متسرَّبةً، أو رقابةً ظلًّا الذي لا يُمكن مهاجمته لنسف قواعده مادام يشكِّلُ البنية الأساس لذهنية الفاعل. فهذه الذهنية تُستعصم حدودًا للممارسة، وتضع المحرِّمات/المقْصَسات التي تُرسِمُ السُّقُوف الواطئة للفعل، في ظلِّ تكريس الدولة لاجتقان والتوتر في علاقتها بالمجتمع بدعوى الخوف على «الأمن العام» وعلى الأخلاقيات المجتمعية. وهكذا بات هذا المجتمع، تحت ضربات القهر والظلم، وكأنَّه يُؤدَّب من الدولة في سلب حريته وفي ممارسة المصادرة على ذاته.

...

عندما ننقِصُ النيش في ذاكرة المصادرة والرقابة في التواريخ الثقافية للمغربي، فلكي نميط اللُثَام عن حقبة متوتِّرة أُسِّمَتْ بمصرَّاح الدولة ضدَّ مبادرات المجتمع وأنت إلى واد أحلامه وتعطيل مسيرته التنموية.

وبحين تَجَنُّ الدولة في المغرب اليوم، بشاركة الفرقاء السياسيين والاجتماعيين والثقافيين، إلى التفكير في خلق أرضيةٍ للتعايش وللتوافق، فلا بدَّ أن يكون هذا التوجُّه نحو تأسيسِ مصالحة تاريخية بين الدولة والمجتمع على

أسس مبادئ الديمقراطية بحق الاختلاف وسيادة دولة الحق والقانون. وهذا التوجه يتطلب توافقاً على إعادة توزيع الأدوار بين الطرفين، أي على رسم حدود موقع الدولة وإعادة النظر في إمكانيات مبادرات المجتمع كما يتطلب إعادة التفكير في مفاهيم «الأمن العام» والأخلاق المجتمعية والمقررات الحضرية للأمة والحرمات والمؤسسات، وتغييرها من المفاهيم التي تمّ تصريغها من طرف الدولة داخل المجال العام. كما يتوجب تمديد الجهات للخولة، قانونياً وشرعياً، تعريف هذه المفاهيم في ضوء سيورة التحولات التي شهدتها المغرب. وأخيراً يجب على الدولة ومؤسساتها الاعتراف بممارساتها القهرية ضدّ ثقافات المجتمع وحركياته الإبداعية، وذلك من خلال إعادة الاعتبار للمقصي والمسكرتونه والمغيب من ثقافتنا وسلوكنا الإبداعي.

والملف الذي نُشّم به مجلّة الآداب، وهي المجلة الشاملة على تاريخ المنع والمصادرة في ثقافتنا العربية المعاصرة، يأتي في سياق البحث في معضلات ثقافة المصادرة وفي واقع القهر الفكري وفي كل أشكال الرصاية على المجتمع

الدار البيضاء

## المشاركون

- جريدة عقود : ع.ل.  
أبحاث/شهادات : عبد العزيز كوكاس، عبد الحميد عقار، عبد الرحيم أوري، عبد القادر الشاوي، مصطفى المستاوي، عبد القادر لقطع، خنانة بنونة، زهرة زيراوي  
حوار : مع عبد الصمد الحيكمر



## جريدة سريعة بالمنشورات والأنشطة الثقافية الممنوعة والمراقبة، وبالمفاعلين الثقافيين الذين طالهم الاعتقال والتوقيف في المغرب الحديث

إعداد: عبد الحق لبيض

عرف المغرب في فترة السبعينيات والثمانينيات تحديداً موجة من الصراع بين القوى الحية في البلاد، ممثلة في المثقفين والمبدعين الذين كانوا يتحلمون بواقع أفضل لبلادهم ولأمتهم. وبين قوى محافظة يهيمها أن تدافع عن مكتسباتها وتمتلك كل إمكانيات الدهر والتسلط وإذ تقدم هذه الجريدة بكل أشكال المصادرة والمنع والرقابة في المغرب المعاصر، فإننا نثني التذكير بأن ذاكرة الشعوب حية وصلحات التاريخ لا يُمكن تبييضها إلا بعد أن تتم مصالحة حقيقية بين المجتمع والسلطة، تعترف فيها هذه الأخيرة بأخطاء الماضي، ليتوافق الجميع على التأسيس لمرحلة جديدة استناداً إلى قواعد المواطنة الحقيقية التي تضمن الفرد فيها كرامته الإنسانية وحرية في التعبير عن آرائه دون خوف من سيفر وقهبر أو منع رهيب.

ولأن الرقابة ليست سلطة بيد السلطان وحده، وإنما تُنازعه فيها قوى اجتماعية لا تقبل تسلطاً وقهراً، فإن المنطق يُفرض على الجميع المشاركة في التمرين على الديمقراطية والاعتراف بحرية الآخر في التعبير عن افكاره وآرائه مهما كنا مختلفين معه.

لقد اختار المغرب طريق الانتقال الديمقراطي وإنتهاج سياسة الانفتاح، وأثقلت الخطابات الرسمية والحزبية والأكاديمية بمفاهيم تبشر بعهد جديد يقطع مع ممارسات الماضي ويفتح صفحة جديدة في مجال حقوق الإنسان والديمقراطية. فجاء الواقع ليثبت بعضاً من هذه الوعود، لكن طأن مع ذلك ملف الحريات العامة وحرية التعبير قيد الاستفسارات والتساؤلات. ذلك أن الدولة استمرت في انتهاج سياسة المنع والمصادرة، الأمر الذي وكّد إحساساً بأن أشكال صورة للاضي ما تزال مستمرة معنا في حاضرنا وإن تسميرت بلويس جديد يتماشى «ومطالبات المرحلة».

### II - المجلات والصحف المتنوعة في تاريخ المغرب المعاصر

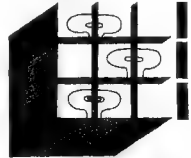
– مجلة الثقافة الجديدة (مجلة فكرية إبداعية). ترأس تحريرها الشاعر محمد بئيس. تأسست سنة ١٩٧٤، وبُعثت سنة ١٩٨٤. عُرفت بخطها التقدمي المنتقد للسياسة الثقافية الرجعية للنظام، وكانت تسعى من خلال المواد والمقالات المنشورة فيها إلى تأسيس ثقافة وطنية تقدمية جديدة.

– مجلة الزمان المغربي (بفانز مغربية). صدرت سنة ١٩٧٩، وبُعثت سنة ١٩٨٤ بعد أن صدرت منها ثمانية عشر عدداً. ترأس تحريرها الدكتور سعيد علوش.

– مجلة البديل (ملفات للبحث والسؤال). صدر عددها الأول سنة ١٩٨١، وبُعثت من الصلور والتداول سنة ١٩٨٤.

الثقافة الجديدة

عدد 18 صادرة 1980



مجلة الثقافة الجديدة، شتات ١٩٨٤

– مجلة الجسور (مجلة الفكر الديمقراطي الجديد) ترأس تحريرها الناقد والمناضل الحقوقي عبد الحميد عقّار تأسست سنة ١٩٨١، وصوبت سنة ١٩٨٤ بعد أن أصدرت سبعة أعداد.

– الملاحظ أنّ هذه المجالات الأربع كانت قد تعرّضت للمنع في وقت واحد (يناير ١٩٨٤). وهذا التاريخ يحيل على واقع الاحتجاجات التي كان المغرب مسرحاً لها في الفترة الممتدة بين ٥ و٢٢ يناير ١٩٨٤.

– مجلة أنفاس، صدرت سنة ١٩٦٦ بمبادرة من شعراء مغاربة باللغة الفرنسية، وهم عبد الحفيظ الأكنبي ومصطفى التيسابري ومحمد خير الدين. وقد تمكّنت من أن تصدر منبراً تقدمياً بعد أن أصدرت عدداً خاصاً عن الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٩، لتتحول فيما بعد إلى منبر إعلامي للحركة الماركسية اللينينية. شُتعت سنة ١٩٧٢، ومن أسباب ذلك دأبها على نشر أدبيات تلك الحركة وأطروحاتها.

– مجلة الجماعة، أسسها عبد السلام ياسين، وتعبر عن حقّ الجماعات الإسلامية في التعبير. صدرت سنة ١٩٧٩، وصوبت منها الأعداد الخامس والعاشر والسادس عشر، الذي أوقفت على إثره نهائياً في يوليو ١٩٨٥.

– صحيفة الصبح، شُتعت من الصدور بعد العدد الثاني، واعتُقل الأستاذ عبد السلام ياسين بسبب ما جاء في عددها الأول في ديسمبر ١٩٨٢. وقد حُكم على ياسين، بعد ثلاثة أشهر من الاعتقال، بستين نافذتين وغرامة مالية قدرها ٥٠٠ دولار.

– صحيفة الخطاب، وهي منبر إعلامي إسلامي، شُتعت بعد صدور عددها الأول في يناير ١٩٨٤.

– مجلة (أمازيغ)، وهي مجلة تعبر عن الثقافة الأمازيغية وتتادي بحقّ لسترة اللغة الأمازيغية ويحتلها لغة وطنية. شُتعت بعد صدور عددها الأول بالعربية، وخمسة أعداد بالفرنسية.

– مجلة لام الف LAMALIF، مجلة باللغة الفرنسية. أكرهت في يونيو ١٩٨٨ على المنع الذاتي بعد عشرين سنة من الصدور.

– مجلة كلمة KALIMA، مجلة باللغة الفرنسية أكرهت عام ١٩٨٩ على المنع الذاتي أيضاً بعد سنتين من الصدور شهرياً.

– جريدة التحرير، ناطقة باسم حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. صدر في حقلها قرار المنع الإداري في أكتوبر ١٩٦٣ على إثر الاعتقالات والمحاكمات التي تعرّض لها مناضلو الحزب وكان من بين المُهمّين مديراً محمد البصري، ورئيس تحريرها الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي ورئيس الوزراء السابق.

– جريدة المحرّر، ناطقة باسم حزب الاتحاد الاشتراكي المعارض آنذاك. تعرّضت للمنع سنة ١٩٨١، بعد الأحداث التي عرفتها الدار البيضاء في صيف تلك السنة، وإعلانها عن إضراب ١٩٨١ وما يزال قرار المنع سارياً إلى اليوم. وكانت الجريدة قد تعرّضت للمنع من قبل بسبب متابعتها للفق الاحتطاف الذي تعرّض له المهدي بن بركة في فرنسا في ١٠ أبريل ١٩٦٥، إذ صدر الأمر من الإدارة العامة للأمن الوطني بتوقيفها، إضافة إلى توقيف جريدة ليبراسيون الناطقة باللغة الفرنسية. ويُرجع د محمد عابد الجابري، وكان لحفظها أحد أعمدة هيئة التحرير في هذه الجريدة، سبب المنع إلى الحيلولة دون مواكبة الجريدتين لأخبار محاكمة مختطفي المهدي بن بركة بباريس.

– جريدة الاتحاد الوطني، وهي جريدة حزبية ناطقة باسم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تعرّضت للجزع عدة مرّات، ويُذكر أنّ العدد الثاني من الجريدة احتجزته السلطات المغربية بسبب تضمّنه افتتاحية في موضوع محاكمة الانقلاب التي قام بها الجنرال أوفشور في ١٦ أغسطس ١٩٧٢. وهذا ما ذهب إليه الجابري في سلسلة ملفات يُصدرها تحت عنوان **مواقف جين فسال في هامش الصفحة ١٩ من سلسلة مواقف** العدد



جريدة المحرّر، كمثت عام ١٩٦٥ صلب ماكبعتها لقتية لاحتطاف المهدي بن بركة

الظلم العنة ٢٠٠٢، ما يلي:

«وجأت الآن حوادث ١٦ غشت أقوى من كل مفاوضات، وأجعت من كل إنذار. جاءت لتُفَرِّز تاريخياً الخطأ من الصواب، ولتعطي لظنرتنا في بعضنا مدلولاً جديداً في الوقت الراهن... والواقع الذي لا رجوع فيه هو أنّ المغرب يعيش على قهوة بركان من جراء السياسة العمياء المفروضة على جماهيره في جميع ميادين الحياة الوطنية»

– جريدة البيان، ناطقة باسم حزب التقدم والاشتراكية، ذي التوجه الشيوعي سابقاً، تعرّضت للتوقيف المؤقت، وذلك خلال شهر يناير من سنة ١٩٨٤.

– جريدة أنوال، لسان حال منظمة العمل الديمقراطي الشعبي (وهي فصيل يساري)، تعرّضت سنة ١٩٩٢ للمتابعة القضائية في شخص مدير تحريرها السيد محمد كوار.

– صحيفتا الصحيفة بلوجورنال، وهما صحيفتان مستقلتان تعرّضتا سنة ١٩٩٩ للمنع لإقدامهما على محاورة عبد العزيز المراكشي، زعيم الانفصاليين الصحراويين، كما تعرّضتا للتوقيف بقرار حكوميّ استند على الفصل ٧٧ الذي يُنصّح رئيس الحكومة الحقّ في إصدار قرار المنع في حق المنشورات دون العودة إلى القضاء. وكان سبب المصادرة نشر الجريدتين لتصريحات المقاوم السياسي محمد البصري، تمسّ المقدّسات الوطنية وتسيي إلى تاريخ الجيش المغربي بحسب اتهام الحكومة آنذاك

– جريدة الأسبوع السياسي، صنّز حكم قضائيّ يمنعها، وحكم على مديرها السيد مصطفى العلوي بالسجن وبالفصل من مهنة الصحافة، وذلك على إثر دعوة قضائية رفعها وزير الخارجية المغربي السيد محمد بن عيسى على الجريدة بسبب نشرها أخباراً عن استغلال الوزير للمال العامّ وامتلاكات الدولة أثناء رئاسته مهامّ الدبلوماسية المغربية في واشنطن، غير أنّ الجريدة عاودت الصدور وتسلّطت كلّ الأحكام بحسب ملكي.

• هذا وقد تعرّض عدد من الصحفيين والمحررين للاعتقال أو الاستنطاق. نذكر منهم:

– عبد الرحمان بنعمرو، وهو مدير مجلة الأقاليم، وأحد أعضاء اتحاد كتّاب المغرب، اعتُقل في إطار حملة ٢٠ يونيو ١٩٨١، وحُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ.

– الأستاذ عبد الكريم غلاب، تعرّض بصفته مديراً لجريدة العلم للمحاكمة والاستنطاق سنة ١٩٩٠. وكان اتحاد كتّاب المغرب، الذي يُعتبر غلاب أحد مؤسسيه إلى جانب المرحوم الأستاذ محمد عزيز لحبابي، قد أصدر بياناً استنكارياً في الموضوع تكلّف منه هذه الفقرة:

«تلقّى اتحاد كتّاب المغرب باستنكار نبأ استنطاق مدير جريدة العلم من طرف دوائر الأمن الإقليمي وإحالاته بعد ذلك على المحكمة الابتدائية بالرباط محاكماً عبد الكريم غلاب بتعارض مع استقلال الصحافة الوطنية ونزاهتها ومصداقيتها وحلّها في حرية التعبير».

– اعتُقل صحافيّ ألمانيّ يمثل اتحاد الإذاعات الألمانية وهو يهيم بزيارة الأستاذ عبد السلام ياسين في ١٧ يناير ١٩٩٠.

– ومؤخراً أصدرت محكمة الاستئناف بالرباط حكماً بالسجن لمدة ثلاث سنوات نافذة في حقّ علي لراباط، مدير دوريتي نومان وومان هماغزين، وغُرِمَ مبلغاً قدره عشرين ألف درهم، وأوقفت دوريتاه. وقد اتُهم لراباط بـ «الإخلال بالاحترام الواجب للملك»، و«المن بالنظام الملكي وبالوحدة الترابية».

– كما تعرّض في يونيو ٢٠٠٢ مدير أسبوعية الأسبوع السيد مصطفى العلوي للاعتقال بعد نشره لرسالة من منظمة مجهولة تسمّي نفسها «الصاعقة» وتتبنّى فيها أحداث ١٦ ماي للتجبرية في الدار البيضاء، وتمّ توقيف جريدته الكواكيس.

– كما تُرِيع مؤخراً مدير جريدة الحياة المغربية السيد مصطفى قشني، والسيد محمد الهردي مدير جريدة الشروق، والسيد عبد المجيد بن الطاهر رئيس تحرير هذه الأخيرة، بتهمة نشر مقال موقّع لأحد الأشخاص يتحدث فيه عن أسماء «الجهاد» في المغرب.



علي لراباط مؤخراً حكم عليه بالسجن ٣ سنوات

## II - المضايقات والمنع بحق الأنشطة الثقافية والفاعلين الثقافيين في المغرب

- في سنة ١٩٨٢ مُنح مهرجان الشعر المغربي السادس في مدينة شفشاون، وكان تحت شعار «الاستمرار والتواصل والتجديد» خلال أيام ٢٧ - ٢٩ مارس ١٩٨٢. وقد كان المهرجان من تنظيم جمعيات أصنفاء العتمد بشفشاون، وجمعية الوان فنية - شفشاون، وجمعية شباب الفن - شفشاون، وأُصدر كتاب المغرب - فرع تطوان واستندت السلطات في إصدارها لقرار المنع هذا إلى قرار سابق دعت فيه الجمعيات المنظمة إلى التنسيق مع وزارة الشؤون الثقافية، إضافة إلى اعتبار السلطات أنّ الجهات المنظمة تمارس السياسة تحت غطاء الشعر

- تمتعت السلطات في مدينة أصيلة الساحلية بتنظيم أيام فلسطينية كانت تعزّم القيام بها جمعية «قضاء ثانوية الإمام الأصيلي» في الفترة ما بين ٢٦ و ٢٨ أغسطس ١٩٨٢.

- مُنعت ندوة «التعليم بالمغرب: الواقع والآفاق» التي كان من المقرر أن ينظمها، يوم السبت ١ أكتوبر ١٩٨٢، بفاس، المكتب المحلي لجمعية الشطة للتربية والثقافة بفاس.

- تعرّضت جمعية «مواقف» التي تأسست في سنة ١٩٧٦ في مدينة القصر الكبير، للعديد من صفوف الضغط والإكراه. وكانت الجمعية قد أصدرت بيانًا سنة ١٩٧٨ تُشرّح فيه الوضع وملابساته، جاء فيه:

«تعرّضت جمعية مواقف الثقافية منذ تأسيسها من عامين إلى مضايقات شديدة من طرف ممثلي السلطات المحلية بالقصر الكبير. وقد تجلّت هذه المضايقات في منع الجمعية من مزاوله نشاطاتها الثقافية، واستدعاء أعضاء مكتبها وتوجيه التحذيرات والتعهديات إليهم. بل إنّ السلطة، في محاولة منها لإعدام الجمعية، طالبت كاتبها العام بفسخها. ولما لم يُرضخ لهذا التهديد قامت السلطة بتقديم الجمعية إلى المحكمة الابتدائية بالعرش بتهمة خروجها عن أهدافها».

- تعرّض سجناء الرأي للكثير من المضايقات التي كانت تصاحب حقهم في الحياة بعد أن صادرت حكومتهم في التعبير وهكذا، مثلاً، شَرّ المعتقلين السياسيين بالسجون المركزي بالقنيطرة والسجون المدني بالبيضاء إضرابًا عن الطعام كرد فعل لرفض الإدارة مطالبهم للامنية. وقد استشهدت في الإضراب الأنسة سعيدي المنبهي. وكان من المُشترئين الكاتبان المبرزان عبد اللطيف اللّهي وعبد القادر الشاوي.

- حُرّم الشاعر عبد اللطيف اللّهي، بعد إطلاق سراحه، من السفر ومن الحصول على جواز السفر لتلبية دعواته كانت قد وُجّهت إليه من طرف مؤسسات ثقافية. وكان اللّهي قد أصدر في حينه نداءً إلى الرأي العام يُطالب فيه بحريته، جاء فيه:

«منذ إطلاق سراحه في ١٨ يوليو ١٩٨٠ [بعد اعتقال دام ٨ سنوات ونصف] وأنا أقوم بمساعي لدى المسؤولين للحصول على جواز السفر، وذلك كي أتمكن من الذهاب إلى سويسرا قُصْدُ العلاج، إنّ الحصة السويسرية لحقوق الإنسان وُجّهت إليّ دعوة في هذا الشأن منذ أكتوبر ١٩٨٠. كما توصلت مؤخرًا بدعوة مطابقة من المؤسسة السويسرية للأبحاث الطبية. إنني في حاجة كذلك لجواز السفر كي أتمكن من تلبية الدعوات التي وُجّهت إليّ من طرف عدة مؤسسات ثقافية عربية ودولية (جمعية الكتاب



الشاعر عبد اللطيف اللّهي حُرّم، بعد سجن دام أكثر من ٨ سنوات، من السفر عام ١٩٨٠

السويسريين، جمعية الأدباء الفرنسيين، رابطة القلم الدولية بمناسبة انقضاء مؤتمرها الدولي في ليون، المؤسسة الوطنية للفنون بروتروام بمناسبة المهرجان العالمي للشعر الذي سينعقد من ١٤ إلى ٢٠ يونيو ١٩٨١). ومن المعلوم أنّي لم أستعمل تلبية دعوة أُنحَد الكتاب والمصحفين الفلسطينيين للمشاركة في لقاء الشقيف ببيروت في يناير الماضي، نظرًا لعدم حصولي على جواز السفر في الوقت المناسب... إنّ إطلاق سراحه كان، إنّه، إجراءً محدودًا. فرغم الحرية، فإنني مازلت أعيش أوضاعًا هشّة، حيث إنّ أبسط حقوقي مهضومة، مما يتنافى مع كل الاعتراف والقوانين. هكذا:

• رغم المساعي التي تمت بها لدى وزارة التربية الوطنية لم استرجع بعد عملي في التعليم الذي كنت أشغله قبل اعتقاله سنة ١٩٧٢.

- إن أعماله الأدبية المنشورة في فرنسا وإيطاليا مازالت تتعرض للحجب عند الدخول للمغرب.
- لقد لاحظت غير مرة خرقاً لحدود السرية مراسلاتي الشخصية.
- مازال رجال الأمن يتركون على منزلي ويطلبوني بالخصوص لمركز الشرطة من أجل إثبات حضوري.
- منحه عبد القادر الشاوي، وهو نائب رئيس اتحاد كتاب المغرب، من مغادرة القرب الوطني يوم ١٠/٣/٩١، للمساهمة في ندوة عقدت بإسبانيا تحت عنوان «تأملات حول المغرب»
- اعتقل الشاعر عبد الله زريق سنة ١٩٧٩ بسبب نشره لقصائده السياسية المتزمنة بقضايا ومهم للشعب المغربي على صفحات جريدة العلم.
- حوكم الأستاذ أحمد البليغشي على إثر مشاركته في برنامج تلفزيوني في القناة الثانية عن «الهجرة السرية إلى أوروبا».

- تعرضت الغادة المسرحية الشهيرة في المغرب السيدة تريا جبران في مطلع التسعينيات لاعتداء شنيع، استغل فيه المعتدون أبشع أنواع التعذيب النفسي والجسدي لإرغامها على الامتناع عن المشاركة في برنامج حوارى تلفزيوني. وقد كانت أصابع الاتهام قد وجهت لحظتها إلى أجهزة وزارة الداخلية المغربية.

### III - بعض الكتب الممنوعة من الدخول إلى المغرب في الفترات الأخيرة

١. كتاب السجنية LA PRISONNIÈRE، للملكة أوفيقير، ابنة الجنرال أوفيقير الذي قاد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد الحسن الثاني سنة ١٩٧٢. تحكي الكاتبة عن معاناة الاعتقال الذي تعرضت لها عائلة أوفيقير بعد الانقلاب وتجربتها من كل منطلقاتها. صدر الكتاب بتاريخ ٢١ يونيو ٢٠٠٠.

٢. كتاب جون بير توكرا، آخر ملك، صدر في أكتوبر ٢٠٠١، وأثار العديد من التساؤلات حول طبيعة المعلومات الواردة بين ثنائيه، خاصة أنها من داخل فضاء محاط بسرية تامة وهو القصر الملكي. وقد ركز الكتاب على تحليل فترة انتقال الحكم في المغرب من الحسن الثاني إلى محمد السادس، محاولاً تبيان أن المرحلة الجديدة ما هي إلا امتداد للمرحلة القديمة. ينقسم الكتاب إلى اثني عشر فصلاً هي بالتتابع «أيام جداد في الرباط، وراء أسوار القصر، الحياة اليومية لأمير المؤمنين، رجال الملك، تربية أمير، شتاء بطريق، ربيع الرباط، انهيار كبير الوزراء، أولى الشكوك، عودة أصحاب النياشين، فرنسا ساهرة، آخر ملك» وسنذكر هنا بعض السطور من هذا الكتاب كما ترجمتها جريدة الصحافة الأسبوعية في عددها الصادر في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠١

«في الطابق الأعلى يوجد السبع المكشوف، فهو بمساحة محترمة، والماء عذب. غير أن الملك الراحل لا يستفيد منه أبداً. لقد توقف عن السباحة فيه خلال سنوات الثمانينات بعد موت الجنرال أحمد التلميمي، من طريق حادث سير رسمي، وكان بمثابة الرجل الثاني للملكية. كان الحسن الثاني مسكناً بانتقال جديد، ويخاف من أن يفاشيه ذلك في وضع محل وهو مترجم لباحث السباحة دون وسيلة للدفاع عن نفسه في مواجهة الانقلابيين...»

ويتحدث الكاتب عن دور التلميمي في الحياة السياسية المغربية:

«وكانت لديه دخالة إلى إسرائيل التي كان يزورها بأفراد، وقضى عدة أسابيع في كيبوتز إسرائيلي، وتردد على المنتصر في حرب الستة أيام الجنرال موشي ديان. وفي مصر أقيم من القرويين من الرئيس السادات، وفي الجزائر كان نظرائه الحكام يبينون له بما أسداه لهم خلال حرب الاستقلال... لم يكن التلميمي عدواً للجزائر، وهذا ما كان يخبره الحسن الثاني واستغله. ففي نهاية السبعينيات كان التلميمي هو من أرسله الملك للتفاوض مع الجزائريين حول مخرج دبلوماسي للقضية الصحراء... وتعاون التلميمي مع الولايات المتحدة الأمريكية دون وخز ضمني حينما سلم للأمريكيين جاسوساً سوفيتياً كان يعمل برتبة كولونيل في الكا

- جي - بي...»



الغادة المسرحية تريا جبران تعرضت في مطلع تسعينيات لاعتداء شنيع لهدف من المشاركة في برنامج تلفزيوني



السجنية للملكة أوفيقير (٢٠٠١) : منحة



٧. كتاب صديقنا الملك NOTRE AMI LE ROI، المؤلف الصحفي جريدة لوموند الفرنسية جيل بيرو. صدر في بداية التسعينيات من القرن الماضي، ويؤكد على طبيعة الصراع بين القصر والحركة الوطنية في عهد الملك الحسن الثاني.

٨. كتاب تازمامارت في المغرب TAZMAMART AU MAROC، المؤلف كريستين دور السرفاتي، زوجة المناضل اليساري القديم إبراهيم السرفاتي. تحكي المؤلفة في هذا الكتاب تفاصيل الحياة في أغرب سجون المغرب وأفظعها، وهو سجن كان يُحوّل إليه كبار المعتقلين السياسيين والمناوئين للنظام.

٩. كتاب حدائق المغرب LES JARDINS DU MAROC، لكاتبة فاطمة أوفقي، عقيقة الجنرال أوفقي، المتهم الرئيس في قضية اغتيال المناضل التقيمي المهدي بن بركة. صدر في ٢٨ فبراير ٢٠٠٢، وفيه تحكي الكاتبة تفاصيل حياتها في القصر الملكي في ظل الملك محمد الخامس وبين بعده الملك الحسن الثاني. كما تحكي جوانب عريضة من حياة الاعتقال التي عاشتها مع أبنائها الستة.

٦. رسالة الشيخ عبد السلام ياسين، المرشد العام لجماعة العدل والإحسان، «صانديها السلطات المغربية وأودعت كاتبتها السجن ثلاث سنوات دون محاكمة، ومما جاء في مقدمة الرسالة (ص ١٢) في طبعها الثاني:

«ما إن قرأ الملك الرسالة حتى جُمِعَ مستشاريه، فاتفقوا على إعدام الناصح الأمين. ثم تراجعوا عن ذلك - لحكمة يُعَلِّمها الله - وفرضوا أن الرجل سجنون فوسمعه في مستشفى المجانين، ثم نقلوه إلى معتقل معزول لمدة ثلاث سنوات ونصف بدون محاكمة. أما صاحبه [محمد العلوي السليماني مدير إحدى المدارس بمدينة مراكش، وأحد الملاح استأذ علم النفس بمدرسة تكوين الاساتذة بمراكش] فقد قضيا خمسة عشر شهراً في معتقل سجن قنر ميني الدين معصوبي العينين.»

• أما بخصوص المؤلفات الإبداعية والفكرية في المغرب، فإنّ منها ظلّ محدودة، ولم تستند وقائع المنع إلى أيّ مبدأ قانوني، إذ كان المنع إدارياً لا يكلف الجهة المسؤولة عنه تبرير قراراتها:

- فرواية الخبز الحافي لعمد شكري مُنعت بعد أن تمّ تداولها في الأسواق لفترة زمنية، إذ صُنِّفَ قرار إداري بجمع ما تبقى من نسخ هذه الرواية في الأسواق. والافت للانتباه أن إعادة نشر الخبز الحافي مؤخراً من طرف اتحاد كتاب المغرب لم يكن في حاجة إلى انتظار استصدار قانون ناسخ يُبطل قانون المنع ولكن المصادرة الحقيقية التي تعرّضت له هذه الرواية جاءت من طرف الجامعة المغربية التي كُرِّست الطوق وقوّت صلاية المنع عندما لم تُعتمد إلى إدراج المؤلف ضمن مقررات التدريس الجامعي.

- وما يقال من رواية الخبز الحافي ينطبق حرفياً على رواية كان واخوانها للكاتب عبد القادر الشاوي، وهي رواية تحكي عن تجربة السجن السياسي من خلال رؤية نقدية ذاتية إلى النضال السياسي في المغرب من زاوية الموضوعية والعقلانية. ويهيب الكاتب في مقالاته المنشورة ضمن ملف الأكراب هنا، فإِنَّ المصادرة لم تقتصر على جانب السلطة، وإنما كانت أصف رقابة تلك التي صدرت عن رفاق النضال الذين لم يكونوا بعد قد تسلّحوا بأدوات النقد الذاتي.



صديقنا الملك لجيل بيرو. مصدر



تازمامارت في المغرب لكريستين دور السرفاتي. مصدر

كما تعرّضت المجموعة القمصية للكاتب والصفي محمد البريني الغلال الماضي للتعن الكلي: نظرًا إلى خوضها في «القصر» السياسي

وفي المجال المسرحي: سنّز قراؤ للتع الإداري في حق مسرحية ترويض الأكباش للكاتبت المسرحيت الطيب الصديقي والطيب لطج. بعد مشاركتها في مهرجان مسرحي إفريقي في السنغال خلال سنوات الستينيات. وتحكي المسرحية قصة العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ررافقت مؤلّت الدكتور عبد الله المروي الإيديولوجية العربية المعاصرة بعض المضايقات التي خُدت من انتشاره وتداوله، وإن لم يكن قد سنّز في حقّه أيّ قرار بالتع.

#### IV – فقرات منتقاة من بعض الكتب والدرجات الممنوعة والمحجزة والمصادرة في المغرب

١. افتتاحية الأستاذ عبد الله إبراهيم في جريدة الاتحاد الوطني، بعنوان «رقابة ذات طابع بدائي» (الخميس ٢٠ يونيو ١٩٧٤، العدد ٥٢)، وذلك بعد مصادرة العديد من أعداد الجريدة. يقول فيها:

«عهد الرقابة السياسية على الصحف وعلى الفكر عهدٌ غيرٌ مشرق في تاريخ الشعوب. ولكن الرقابة الآن، تحت ضغط التقدمات التكنولوجية وسرعة الاتصالات، من نوع أصبحت تكتسي طابعًا مجانبًا عابثًا في البلاد المصنعة وفي البلاد المتخلفة على السواء... والرقابة الاحتياطية على الصحف الوطنية في المغرب، منذ أن بدأت تمارسها السلطات المغربية ابتداءً من سنة ١٩٦٠ إلى الآن، رقابة غيرٌ مشروعة لأنها متناقضة مع العهد الملكي، وغيرٌ مسؤولة لأنها لا تخضع لمقاييس سوى مزاج المراقب ودرجة تكوينه السياسي». لقد صادر البوليس في الشهر الماضي أربعة أعداد متتابة من الاتحاد الوطني، عددًا في كل أسبوع، من غير أن يكون في هذه الأعداد ما يعالج قضايا أساسية أخرى غير قضايا التنظيم الحزبي وأنباء نشاطات المناضلين الداخلية في الاتحاد...»

٢. أصدرت مجلة أنفاس استهلالًا تعلن فيه نبأ مصادرة أحد أعدادها، ومما جاء فيه:

«يصدر الآن من مجلة أنفاس العدد الخامس، وإن كان العدد المزبور ٢ - ٤ قد تعرّض للتع. وخلال هذه التجربة القصيرة حاولت المجلة للمضي بخطى ثابتة على طريق فك الحصار الثقافي الإمبريالي - الرجعي، وإزاحة هيمنة الفكر البورجوازي على الساحة الوطنية.»

٣. الإسلام أو الطوفان، وهو عنوان الرسالة «النصيحة» التي بعث بها الشيخ عبد السلام ياسين، المرشد العام لجماعة العدل والإحسان الإسلامية، إلى الملك الراحل الحسن الثاني، وتأتي أهمية هذه الرسالة المفتوحة ليس في أنها موجهة إلى أعلى سلطة في البلاد، أو أنها تتضمن انتقادًا لسياسة الملك، وإنما لأنها تجسّد الخصائص البليوية للخطاب الدعوي الإسلامي وارتكازاته الأساسية. فالشيخ ياسين ينصّب نفسه وصيًا على الإسلام، ومن ذلك المنطق يُعشّر أحكامه بالتع والمصادرة في حقّ كلّ الفكر المختلف معه. فهو مثلاً يقترح على الملك الراحل، تحقيق الإصلاح أو ما يسميه «التوبة»، مجموعة من المبادئ العملية، من بينها حلّ الأحزاب والاعتصام على الجيش، يقول في البند الرابع:

«يُبايع مجلسًا منتخبًا انتخابًا إسلاميًا، تستطير في أمره رجال الدعوة، بعد أن تُشعّ كلّ الأحزاب السياسية، وتُقسّم المجال لرجال الدعوة يُعهدون للأمة فتنتها ويميل خلاصها. وعماد هذا المجلس خيارٌ شباب الجيش، إذ هو القوة المنظمة الوحيدة بالمغرب. ويكون هذا المجلس شريكًا في عملك ورفيقًا عليك...» (ص ١٦١)

٤. نشرّت مجلة أنفاس افتتاحية في عدد ٣ و٤ (أغسطس ١٩٧١) عن واقع محاكمة مراكز الصغيرة التي دانت العتية من المناضلين والمثقفين بتهمة المس بأمن الدولة. وقد صوّر العدد بسبب هذه الافتتاحية. ومما جاء فيها:

«هناك مرابيط آخر للأزمة الاقتصادية التي تخبط فيها البلاد... ألا وهو انحلال جهاز الدولة ذاته، وإن لم يصل بعد أوجه. ويتجلى مثلاً في تعاطي الرشوة، وفي التعديلات المتوالية، وعمومًا في افتقار الدولة لسياسة مرسومة إيديولوجية واضحة ثابتة. فكُلّ سياسيّ إيديولوجيا الدولة تتلخّصان في النهب والربح السريع. إن النظام في موقف دفاعي، إن



«رسالة الشيخ عبد السلام ياسين مسودته ولها نصها أحكام مصادرة في حق الفكر المختلف»

النظام استهلكَ احتياطياته، اقتصاديًا وسياسيًا. وذلك ما يؤكده ما سلكناه سابقًا عن مشاريع طويلة الأمد نسبياً، كتوزيع الأراضي، إلخ. ويؤكد، من جهة أخرى، احتقاره العملي لمجلس النواب، وإن العبرة الجهورية التي تتخذ من كون النظام قابلاً لجميع الحركات الجماهيرية في الشهور الأخيرة بالقطع دون غيره - دون الوعد نفسها - هي أنه لم يُحَدِّدَ قادراً ولا رغباً في إخفاء وجهه الحقيقي...»

٥. فقرة من رسالة الفقيه محمد البصري، التي كانت سبباً في منح جريدتي **الصحيفة** و**بلوجورنال**:

«في أوائل سنة ١٩٧٢، وأواخر ١٩٧١، قُدِّمَ الأخ عبد الرحيم ليشْرُض علينا نحن الثلاثة - عبد الرحمن، المهدي العلوي، أنا - مشروعيًا لاستلام الحكم، اتَّفَقَ عليه هو والجنرال أوفقيير وإدريس السلاوي، على أساس مساهمة الحزب بالسادنة، عبد الرحيم، عبد الرحمن، حسن الأعرج، في تشكيل سلطة جديدة بعد الإطاحة بالحكم، وسيُخَصَّص على أن يُعَلَب فيه عبد الرحيم الدور الرئيسي، وإنَّ طَهْرَ أنَّ الجنرال أوفقيير ربَّما يتخوَّف من ذلك، فحسنت المهمة الأساسية لإدريس السلاوي.. بينما كانت اتصالاتي مع الضباط الصغار على أساس أن لدينا تنظيمات تُنْقِصُها الأسلحة، وإنَّ التركيز اتَّجه إلى كيفية مساعدتنا في تسليحها، وإنَّ الجيش ينبغي أن يلعب دور المُساعد من خلال هذه المساهمة، وكذلك المُساعد بالاستخبارات، وفي نفس الوقت الاستعداد لتغيير وضع الحكم من الداخل أثناء تصاعد العمل الثوري، مُؤكِّدًا في لقائنا أنَّ من الصعوبة بمكان التعامل مع أوفقيير، خصوصًا وإنَّ قضية الشهيد المهدي من بركةٍ لَيْبَ فيها [أوفقيير] دور الشخصية الثانية.. المسؤولية عن اغتياله، ومركِّزًا أيضًا على أنه لا يُمكن لشخصٍ آتٍ العمل على دعم المشروعية أن يأخذ المبادرة في هدمها...»

## ٧ - نموذج من النقد «الأخلاقي» الذي اتَّسع مجاله في المشهد الثقافي المغربي، والذي يحضن على الرقابة والقطع

«من مظاهر التبرُّج تلك الإباحية التي تعتمدُها الموضة والتقاليد الاجتماعية والثقافية والسياسية، التي تركِّز الاهتمام على الجسد العاري وتصاروسيه المخلفة، عن طريق نشر الفساد على الشواطئ ونشر فسيل الفذارة والدعارة على الأطلال الماعرة ومصور الخلاعة و... يُحتفل بذلك عبر الألبوم 'الثقافي' التي تُعْطِها وزارة الثقافة بالمغرب، مثل مهرجانات الأغنية والرقص الشرقي والغربي وعروض الأزياء ومهرجانات السينما العربية والغربية. هذه الوزارة التي تُحْمَل وزر ما يصيب المجتمع - والمرأة خصوصًا - من فسق وانحلال، وخاصة حينما تعمل على تعجيف يتابع مظاهر التبرُّج داخل المجتمع تارةً أو تشويهها تارةً أخرى، بتشجيعها للمادني والمعنوي المباشر وغير المباشر لجموعة من الأسابيع الثقافية التي تُدبِّع فيها القيم الإسلامية في بلدٍ لِدِيهِ الإسلام...» في حين يضيق على التبرُّج المعزَّز المتحرِّر، المفاضل والمكافح، في ظل حكومة تناهزُ برَّاس وزارة ثقافتها وزيرٌ تقدمي يؤمن بالاشتراكية العلمية ومناضلٌ ورئيسٌ لاتحاد كتاب المغرب الذي يُفترض فيه أن يكون منارةً للعلم والمعرفة والثقافة البانية لا الثقافة البالية التي تعمق التفرُّق وتشرِّه المرجعية الأصلية لهذا الشعب...»



كتاب محمد البتياوي عن السينما المغربية: نموذج من النقد «الأخلاقي»، الذي يحضن على الرقابة والقطع

ولكن إذا عَرَضَ كُلُّ واحدٍ إنتاجه على القرآن والسنة الصحيحة فسيجد اللعنة على كل من تَزْرَعُ ثوبها في غير بيت زوجها، وسيجد 'الزانية والزاني' فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، وسيجد وسيجد...

ما حطَّ من يَصْنَعُ ويُنْتِج ويُسَلِّق لقطه خلاعة ما حطَّ من الإسلام! ما حطَّ امرأة 'مسلمة' تُشْرِبُ الخمر، كاسية عارية تُظْهَر على التلفزة على المغاربة المسلمين ساعة الإنتصار، ما حطَّها من الإسلام! إنَّ المعاجز عن الإبداع والعباء والتجديد يحاول دومًا أن يُبْلَغ انتباه الناس إليه بأساليب متعاقبة غير سوية. هذا باختصار ما تُحدث للسينما المغربية مثلًا... التي عجزت عن استقطاب الجمهور المغربي طوال تجربتها. إنَّ السينما المغربية مثقلة في ذلك مثل تلك المرأة التي عندما شعرَتْ بأنَّها متروكة وأعرضت عنها عيون الرجال لجأت إلى التبرُّج...»

من كتاب **صورة المرأة في السينما المغربية** لـ **محمد البتياوي** (سلسلة قضايا ثقافية، العدد الأول، فبراير ٢٠٠٢، ص ١٨).

## VI - فصل من قانون الصحافة الجديد الصادر بالجريدة الرسمية بتاريخ ٢٠ يناير ٢٠٠٣

• الباب الأول - في الصحافة والطباعة والنشر وترويج الكتب - الفصل التاسع والعشرون. يمكن أن يُشعَر وزير الاتصال بموجب مقرر معمل، أن تُخلَّط إلى المغرب الجرائد أو النشرات الدورية أو غير الدورية المطبوعة أو غير المطبوعة خارج المغرب التي تتضمن مساً بالدين الإسلامي أو بالنظام الملكي أو الوحدة الترابية أو تتضمن ما يخلُ بالاحترام الواجب للملك أو بالنظام العام...

كما يمكن أن يُمنع لنفس الأسباب وبمقرر معمل للوزير الأول، نشرُ الجرائد أو النشرات الدورية أو غير الدورية الأجنبية المطبوعة في المغرب.

وإذا وقع عن قصد عرضُ الجرائد أو النشرات الممنوعة للبيع أو توزيعها أو إعادة طبعها، عوقب عن ذلك بحبس لمدة تتراوح بين ستة أشهر وثلاث سنوات وبغرامة يتراوح قدرها بين ١٢٠٠ و ٥٠٠٠٠ درهم وببشائر الصجر الإداري للأعداد والجرائد والنشرات الممنوعة، وكذا الأعداد المنقول عنها. وفي حالة الحكم بعقوبة يُنص في الحكم على مصادرة الأعداد وتلافيها

• الفصل الواحد والأربعون: يعاقب بالحبس لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وبغرامة يتراوح قدرها بين ١٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ درهم، كل من أخل بالاحترام الواجب للملك أو أصحاب السمو الملكي الأمراء والأميرات بإحدى الوسائل المنصوص عليها في الفصل ٢٨. وتطبق نفس العقوبة إذا كان نشر إحدى الجرائد أو النشرات قد مس بالدين الإسلامي أو بالنظام الملكي أو بالوحدة الترابية. وإذا صدرت عقوبة عملاً بهذا الفصل، جاز توقيعُ الجريدة أو النشرة بموجب نفس المقرر القضائي لمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر. كما يمكن للمحكمة، بموجب نفس المقرر القضائي، أن تأمر بمنع الجريدة أو النشرة.

• الفصل السابع والستون: يعاقب الأشخاص الآتي ذكرهم بصفتهم فاعلين أصليين بالعقوبات الصادرة زجراً للجرائم المرتكبة عن طريق الصحافة، وذلك حسب الترتيب التالي:

- ١ - مدير النشر أو الناشر، كلما كانت مهنتهم أو صفتهم.
- ٢ - أصحاب المقالات المتسببون، إن لم يكن هناك مديرون أو ناشرون.
- ٣ - أصحاب الطابع، إن لم يكن هناك أصحاب مقالات.
- ٤ - البائعون والموزعون والمكفون بالإصاق، إن لم يكن هناك أصحاب الطابع.

• الفصل السابع والسبعون: يجوز لوزير الداخلية، بقرار معمل، أن يأمر بالحجر الإداري لكل عدد من جريدة أو نشرة دورية تمس بالنظام العام أو تتضمن الأفان المنصوص عليها في الفصل ٤١ أعلاه.

• المادة الثانية - الفصل الخامس والخمسون، الفقرة ٣: كما يُمنع نشر بيان عن الدالات الداخلية إما لبيئات الحكم وإما للمجالس القضائية والمحاكم، وكذا ما قرر القانون أو المحاكم سماعه في جلسة سرية. ويعاقب عن كل مخالفة لهذه مقتضيات بغرامة يتراوح قدرها بين ١٢٠٠ و ٣٠٠٠٠ درهم.

الفقرة ٤: كما يعاقب بنفس العقوبة من نُشر بغير أمانة، وعن سوء نية، ما جرى في الجلسات العلنية للمحاكم.

• الفصل الستون: يعاقب بحبس اقضاء شهر واحد، وبغرامة تتراوح بين ١٢٠٠ و ٦٠٠٠ درهم، أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط، كل من يُسمع الناس بسوء نية علانية أغاني أو خطباً تتنافى والأخلاق العامة والأداب العامة أو يحرص على الفساد.

عبد الحق لبيص

مراسل الأدياب في المغرب.



## الرقابة في زمن الانفتاح

عبد العزيز كوكاس

لا أحد يجادل في أنَّ الرقابة، حتى في الحظ صورها إنَّ كان للرقابة لطفٌ يُذكر، تظلُّ شكلاً من الأشكال المقينة لعنف الدولة تجاه مبادرات المجتمع ورغبات الأفراد. ولواجهة عنف الدولة المتمثل في الرقابة، تناضل جهاتٌ عديدةٌ لإسقاط كلِّ شرعية تستند إليها القوى المهيمنة من أجل أن تفرس نُظم تفكيرها على المجتمع. والصحافة الحرة والنزوية مدعومةٌ إلى مواجهة هذا العنف من خلال تبني لغة الاحتجاج، وتوجيه الرأي العام ضد سلوكيات ذلك العنف وضد القوانين المُشرعة لها.

في ٢٠ يناير ٢٠٠٣ صدر قانونُ الصحافة الجديدة ونُشر بالجريدة الرسمية، العدد ٥٠٧٥. غير أنَّه لا يُعمل من صفات الجودة والتجديد سوى أنه صُنِّعَ في ظل حكومة «التناوب» التي كان يرأسها الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي. فالقانون الجديد ظلَّ، في صلبه وجوهره، قانوناً للفصل لا للوصل؛ عنيتُ أنَّه قانونٌ يقدم في فصوله على اليات الزجر والمنع، ولم يقارب مجالا تشجيع الصحافة وضبط هيكلها العام. لقد ظلَّ القانون الجديد مسجوناً العقليّة الأمنية المبنية على التخصُّب للمخاطر والمزالق، ولم يُؤدِّ إلى مستوى اللحظة التاريخية فيفتح بابَ تطوير الأداء المعنوي وتهبئة المناخ العام لممارسة مهنة الصحافة في استقلاليته ونزاهة وموضوعية.

إنَّ قانون المنع، الذي ناضلت كافةُ الفعاليات السياسية والحقوقية والمهنية من أجل إلغائه وتعويضه بالاستناد إلى شرعية القضاء، النزوية، ما يزال قائماً، وبخاصة المنعُ الإداريُّ الذي يخول السلطة التنفيذية أمرَ إصدار قرار بمنع مطبوع أو منشور أو غير ذلك من الأعمال الإبداعية والفكرية

### فقه الرقابة الذاتية

صحيح أنَّ الرقابة بشكلها الفجِّ والاستفزازي قد توارت إلى الخلف، بحيث لم نعد ننتظر طعنةً الرقيب الذي تبعثه وزارةُ الداخلية إلى المطبعة ليقرأ مواءً المطبوع وابقُر بعد ذلك إجازته أو منعه أو حلفَ مقاطع منه. إلَّا أن تداعيات هذه المرحلة العنيفة في تاريخ المغرب امتدت إلى نفسية الصحفي الذي صار يفعل القمع الذي سُورس عليه يمارس نوعاً من الرقابة الذاتية في تعامله مع صحيفة نشر الخبر أو تحليله أو التطبيق عليه. وهذا الشكل من الرقابة يُنذِّرُ لخطر من الرقابة الإدارية، لأنَّه يقلّص من حجم المسموح به أكثر ممَّا يقلّصه الرقيبُ الخارجيُّ الذي قد يُغلَّظ عن أشياء عديدة في المقالة وبخاصة إذا نُصِّتَ منحه الإيحاء.



للناضل الحقوقيّ ورئيس حكمة التناوب، عبد الرحمن اليوسفي، هو الذي ملغ جريدته

وقد تبرز الرقابة الذاتية أكثر ما تبرز في الصحافة الحزبية. فبالرغم مما قدمته هذه الصحافة من أعمال جليلة من أجل حماية المجتمع، وصيانة رموز الكيان الوطني، والدفاع عن مشاريع التنمية والحداثة، فإنها باتت اليوم البلية محافظة، قياساً إلى تطور الصحافة الحزبية وبروز جيل جديد من الصحفيين الذين باتوا يتوقفون إلى التجديد والتغيير حتى من داخل الصحف الحزبية نفسها. فالصحفي في الجريدة الحزبية أصبح مرتبلاً إلى رقابة ذاتية تُفرضها عليه طبيعة المؤسسة الإعلامية التي يعمل داخلها. فلكي يحافظ على مركزه، لا بد له أن يستحضر كافة أشكال العلاقات التي تزكّي مجالاً حركية الحزب: من علاقات بالقوى الحليفة التي يجب عدم إغضاها ولو جاء ذلك على حساب مصداقية العمل الصحفي، إلى التضامن مع الحكومة بحجة «نصرة الحليف طاماً أو مظلوماً» وإلى حرمان الصحفي من الخوض في شؤونه الخاصة والعامة، والأخيراً في الاعتبار موقع الزعيم وأتباعه وحساسية الوضع إزاء هذا الماخذل أو ذاك الرفيق. هذا النوع من الارتعان من شأنه أن يحد كثيراً من مجال الحرية المتاحة أمام الصحفي الحزبي، إذ قد لا يُسمح له باختراق المظهر والتعامل مع الخبر كما هو دون الاحتكام إلى اعتبارات خارج المسؤولية المهنية.

### تجاربنا مع المنع

أما وضع صحفي ينتخب داخل مؤسسة الحزب القائمة على الانضباط والامتثال الذي لا يتسجعا وطبيعة العمل الصحفي، كان من الضروري بروز الصحافة المستقلة. فمن شأن هذه الصحافة أن توسّع من مجال الحرية في العمل الصحفي، خاصة وأنّها لا تخضع لهرمية العلاقة التي تُحكم الصحافة الحزبية. ولا تُشعر عن جهات تُضبطها البيئات الصراخ من أجل امتلاك السلطة والوصول إلى الحكم - وهي البيئات قد تُبرز مجموعة من السلوكيات حتى وإن تنافت وأخلفت مهنة الصحافة.

وجريدة الصحافة الناطقة باللغة العربية ولوجورنال الناطقة باللغة الفرنسية من الصحف المستقلة التي تسعى إلى ترسيخ قيم استقلالية العمل الصحفي والنأي به بعيداً عن أحضان الدولة والحزب معاً. ومن شأن هذا المنع أن يعرّض الجريدين إلى كثير من المضايقات والممارسات العنيفة، سواء من طرف الدولة، أو من طرف شرائع من المجتمع السياسي. وقد أدى خطفهما التحريري المستقل والساعي إلى نشر الخبر على الناس وامتهان لعبة الفصح والكذب إلى تعرضهما فعلاً إلى مسلسل من المنع والمصارعة والمحاكمة، الغاية منه إسكات هذا الصوت أو محاولة ترويضه من أجل الحد من قوته، ولأسيما أنّ الجريدين يُعتبران أهم أسبوعيتين مغربيّتين. وما يُميز مسلسل المضايقات والمنع والحجز الذي تعرّضت له الجريدتان أنّ حلقاتها كلّها عُرضت في زمن حكومة التناوب، التي كان يرأسها المناضل الحقوقي الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي؛ معنى ذلك أنّ منغنا ومحاكمتنا وقعا في زمن التبحر بالديموقراطية وحرية التعبير، وبالندوة الرسمية إلى دفن الماضي وإتلاف متعلقاته!

• بدأت أول حلقة من مسلسل المنع الذي تعرّضت له الأسبوعيتان يوم ١٥ أبريل ٢٠٠٠، بحجز العدد رقم ١٠٨ من

جريدة لوجورنال، والعدد رقم ٨٠ من أسبوعية الصحافة بطار مراكش ومنعها من الدخول إلى المغرب (وكنا يومها نطبع الجريدين في فرنسا). وقد تمّ الحجز والمنع بقرار من الوزير الأول، الذي استند فيه إلى الفصل ٢٩ من قانون الصحافة، والذي يجيز له حقّ حجب أو منع كلّ مطبوع أو منشور وعدم السماح له بالدخول إلى أرض الوطن. وقد جاء تبرير الحكومة لهذا المنع بحجة نشر جريدة لوجورنال في ذلك العدد المنوع «استجواباً» لمديرها السيد أبو بكر الجامعي مع رئيس جماعة البوليساريو عبد العزيز المراكشي بمناسبة لقاء تكريمي أقامته بعض الجهات الأمريكية لهذا الأخير. وقد اعتبرت الحكومة أنّ ما أقدمت عليه الأسبوعيتان يمين بوجدتنا الترابية، علماً أنّ العدد لم يتضمن أيّ استجواب حقيقي بقدر ما احتوى مقالاً سلط الضوء على الموقف الجديد للبوليساريو في شأن النزاع حول الصحراء. وقد كان إلى جانب مدير الأسبوعيتين في الحفل المذكور السيد محمد عبد العزيز، مراسل جريدة الاقتصاد الإفريقي، لسان حال حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، وكاتبه العام هو الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي رئيس الحكومة الذي أصدر قراراً للنزاع ضدينا؛ وما يُمكن أن يستنتج من التتبع لهذه القضية أنّ المنع يرتبط بالتوجه التحريري العام الذي تسلكه الجريدتان، ويكفي أن نقرأ هذه العبارة من البلاغ الحكومي لنُذكر القصد من المنع:



الاستجواب مع رئيس البوليساريو  
٢٠٠٠-١٠-٢٢

«التجاوزات التي ما فتئت تسير عليها الخطة التحريرية للصحيفتين في مجالتهما قضية وحدتنا الترابية». وهو ما يعني أن المنع كان فعلاً مبيهاً لدى الحكومة حتى قيل أن تُنشر جريدة لوجورنال ما تنشره.

المسألة الثانية المثيرة في سيناريو هذا المنع هو أن تصانر جريدة الصحافة رغم أنها لم تنشر أي شيء عن الموضوع، الأمر الذي يعني أن الموقف الذي أسست عليه الحكومة قرار المنع كان جاهزاً ربما حتى قبل وصول الأسبوعيتين إلى المغرب. وانتظر في هذا السياق أننا كنا قد أصّلنا بعد صدور قرار المنع بالسيد وزير الاتصال آنذاك، الأستاذ محمد العربي المساري، نقيب الصحيفين المغاربة سابقاً، نستفسره عن موضوع منع الصحافة فاجابنا: «لقد نشرتم الاستجواب [مع المراكشي]». وبعد أن أكدنا له خلوّ العدد من أية إشارة إلى موضوع الاستجواب استدرك قائلاً: «لا بد أن في الأمر التباساً ما»، ووعدا بتصحيح الموقف. غير أنه عاد ليؤكد قرار المنع. لكن هذه المرة بسبب ما كانت قد نشرته الصحيفة في أحد أعدادها السابقة عن موضوع الصحراء، وهذا، كما يظهر جلياً، وجه سافر من وجوه الرقابة الانتقامية التي يلتجئ إليها «المُخزن» فُصّد التليب، وتقليم الأظافر.

وقد يكون قرار المنع الإداري مبرراً بحكم قوانين الصراع التي تُعرضها مرحلة من مراحل حياة حكومة أو جهاز إداري ما لكن الذي لا يُمكن تبريره هو أن تُنتهك الصحافة ذاتها حرية التعبير، ويُظهر بالعودة إلى ضرورة الضرب على يد كل من سَوَّكت له نفسه التطلُّل على «المقاسات» والمُحرّسات. فقد أعلنت أغلب الجرائد الحرب علينا وأُثْمِنّا بـ «الخيانة» والهرولة الطائشة وراء الشهرة والمصالح، وإثارة الضجة وفتح المجال لخصوم المغرب ويحدثه الترابية. في وقت لم تتألف فيه هذه الجرائد حقّ المواطن العادي في معرفة سيروية قضيتنا الوطنية التي يلغها غموضٌ شديد.

• الحلقة الثانية من مسلسل المنع الذي تعرّضنا له جاء للمرة الثانية من طرف الحكومة، وبالتحديد من لدن السيد الوزير الأول، استناداً هذه المرة إلى الفصل ٧٧ من قانون الصحافة الذي يُعطي سلطة غير محدودة لمن منشور أو مطبوع بـ «يمنع بالمقاسات الوطنية» أو يُخلّ بالأمن العام». ومن المفارقات العجيبة في زمن حكومة القنابل أن هذا القانون ظلّ حبيطاً منذ ١٩٥٨، إذ لم تفعّل أية حكومة مبنوية أو تكتوقراطية، إلى أن جاء إلى سدة الحكم من كانوا بالامس يُنكبون به وبطالين بلغائه من قانون الصحافة!

كان سبب منع العدد ١٤٥ من أسبوعية لوجورنال، الصادر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٠، نشرها لرسالة المناضل البصري محمد البصري الملقب بـ «الغفي»، والتي كان قد حرّرها سنة ١٩٧٤، أي بعد سنتين من بداية الانقلاب الفاشل الذي قاده الجبرال أرفغير ضد الحسن الثاني سنة ١٩٧٢. وتتهم الرسالة، التي كان قد سلّمها الفقيه البصري في إقامته في الجزائر آنذاك إلى مناضل اتصادي ليسلمها بدوره إلى عبد الرحمن اليوسفي في إقامته بفرنسا، اليسار المغربي بضلوعه في محاولة الانقلاب - ومنهم الرحوم عبد الرحيم بوعبيد الكاتب العام السابق للاتحاد الاشتراكي، والأستاذ عبد الرحمن اليوسفي، والفقيه البصري

ذاته. ويدل أن يصطبّ النقاش حول مضمون الرسالة ويتم استفسارُ المهني بالامر - وهذا، بالمناسبة، لم يكتب ما ورد في الرسالة من اتهامات - طُلّع علينا السيد رئيس الحكومة آنذاك بقرار يُنتع بموجب لوجورنال وجريدتي الصحافة ونومان الناطقة بالفرنسية يدعى أن الأسبوعيات الثلاث «تمسّ قضية المؤسسات» وتسمى إلى «زعر البلبلة في صفوف الجيش» و«الإخلال بالأمن العام»، وأوضح أن هذه التهم مفاهيم أخلاقية عامة يمكن الاختلاف حولها، واحتجاج إلى كثير من التوضيح والتحقيق، إذ ليست هناك في نظرينا قواعد ضابطة للمقدس والأمن العام مثلاً. والقانون يجب ألاّ يُسمح بتعدد التاويلات، بل هو مطالب بأن يكون مفصلاً ومشتعلاً لجميع الحالات، كما أنه مطالب بتحديد الانفلاتات من خلال مزيد من العقلة وضبط العلاقات والمصالح داخل المجموعة الوطنية، بدل انتهاج سياسة الزجر والمنع. وهنا يَكن دور القضاء الذي يَنكح وجهه حقّ تولى



الصحيفة سوزنة بسنن مسافر عن موضوع الصحراء

المفاعيم واستصدار الأحكام بناءً على حيثيات هذا التحويل. ولأيدي القضاء هذا الدور لا بد أن يكون متمتعاً باستقلال تام عن الجهاز التنفيذي؛ وهذا ما لم يتحقق بعد في قضائنا المغربي.

• ويذكرنا لوضعية القضاء في المغرب تكون قد مهدنا للحديث عن نوع آخر من المصادرة كان وراءها هذه المرة القضاء، فقد رَفَعَ وزير الخارجية الحالي السيد محمد بن عيسى دعوة قضائية يقمها فيها بالتشهير به ونشر أخبار كاذبة عنه. وأصل القضية يعود إلى الفترة التي كان فيها السيد الوزير سفيراً للمغرب في واشنطن، إذ نشرت جريدة واشنطن بوست تحقيقاً أشار إلى القيمة المالية الحقيقية لغز إقامة السفير آنذاك، وهي غير القيمة التي سبق أن أعلن عنها السيد السفير آنذاك بل تتجاوزها بأضعاف مضاعفة. ولأن الأمر يتعلق بالمال العام، فقد كان لزاماً علينا الكشف عن الحقيقة كاملة. لهذا السبب سافر السيد مدير الأسبوعيتين بصحبة طاقم صحفي إلى أميركا، وأجرؤا اتصالات موسّعة مع جهات أمريكية، ثبّت لهم بعدها أن هناك اختلاسات وعادوا إلى المغرب ومعهم وثائق دقيقة استلموها من الكونغرس الأمريكي حول الموضوع، ونشرنا ذلك على الرأي العام المغربي ليطلع على الحقيقة. ولكن أثناء المحاكمة لم تأخذ المحكمة في الاعتبار الوثائق التي ضمتها ملفاً، بل ولم تستمع إلينا. كما أن السيد الوزير لم يُشعر بجلسات المحاكمة، ولم يُنكج الشجاعة الأدبية ليطالب إلى وزير تابع له أن يتجرع من كل مسؤولياته حتى لا يؤثر بنفوذه في السير العادي للقضاء فكانت حصيلته الحكم إدانتنا وتحميلنا غرامة ٢٠٠ مليون سنتيم مغربي. وكما يبدو فإن الحكم كان يريد إقبار جريدة لا إنصاف «مظلوم».

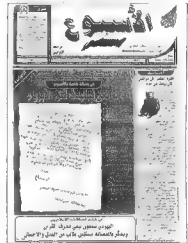
• وفي السياق نفسه أصدرت المحكمة حكماً على أسبوعية الأسبوع السياسي بالسجن لمدة ثلاث سنوات وغرامة مالية. كما قضت بحرمها مديرها السيد مصطفى الطوي من مزاولة مهنة الصحافة.

هذا هو الجو العام الذي تعيشه الصحافة المغربية، وهو جو مشحون بالتناقضات الصارخة. فمن جهة، هناك مؤشرات واضحة على زمن الانفتاح ممثلة في إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، ورفع الإقامة الجبرية عن الشيخ عبد السلام ياسين المرشد العام لجماعة العدل والإحسان الإسلامية، وعودة أسرة الشهيد المهدي بن بركة، وعودة المعتقل السياسي الأقدم في المغرب إبراهيم السرفاتي، ورجوع المعارضين السياسيين إلى أرض الوطن، والسماح للصحفيين باقتحام معاليز سجن تازمامارت الرهيبي ولكن، في المقابل، مؤشرات الردة واضحة من خلال منع الجرائد والتضييق عليها وممارستها، وخلق جرائد لهاجمتها، صبّ الملايين في خزيرتها من أجل مقايمة الصحافة الجادة، واختطاف بعض المناضلين الإسلاميين، وعودة مخافيش الظلام، إلى استئناف مهامهم الليلية التي ظننا أنها وأدّ دون رجعة. وإزاء هذا الجو للترتب كيف يُمكن للصحافة أن تؤدي مهامها وإن تنفتح وتتأسس على قواعد الحرية والاختلاف؟

## الرقابة الاقتصادية

علما تعجز آلة «الخزن» في المغرب عن سحقك بالأساليب المباشرة كالنزع والحجز والمصادرة، فإنها تلجأ إلى أشكال أخرى من الحصار، وعلى رأسها الحصار الاقتصادي. فقد عمدت الدولة إلى حرمان أسبوعيتنا (الصحيفة ولوجيوئال) من كل دعم، وخاصة دعم الإشهار (الإعلانات)، علماً أن الصحيفة هي أكبر أسبوعية مغربية مبيعاً، بل إنها تتجاوز حالياً من حيث المبيعات جرائد عريقة مثل العلم بثلاثة أضعاف، والاتحاد الاشتراكي بضغفي، والصباح بأربعة أضعاف. وقد قامت وزارة الداخلية وبعض النافذين في القصر بالتدخل لدى أصدقائنا لما من أجل أن لا يمدوننا بالإشهار. وهذه خطة للخزن التي يقصد من ورائها إلى دفعك إلى التوقف الذاتي أو الموت البطيء، حتى لا نكسب به تهمة إعدامنا. وما نحن اليوم نواجه بتدابير من تحت الطائلة، إذ تعيش على مبيعاتنا فقط ولا تستطيع أية أسبوعية في العالم أن تتعيش من مبيعاتها ما لم يكن هناك دعم من الإشهار.

الدولة اليوم تدمع والصحافة الحزبية فقط بعدما تكدت من أن اللال إذا شكّل السياسة يُمكنه أن يكيف مواقفها حسب رغبات وتوجهات الجهة المانحة. وإذا كانت الدولة تُكسّد من دعمها تطويع الأداء المهني للصحافة والرقي بها لتؤدي الدور المنوط بها، فلماذا لا تُدعم الصحافة المستقلة، ولماذا لا توجه المستثمرين إلى المساهمة فيها كما تفعل مع الصحافة الحزبية؟ سؤال على الدولة أن تجيب عنه إن كانت بالفعل منشغلة بالانتقال بالبلاد إلى مرحلة جديدة



الأسبوع السياسي، اعتُقل مديرها في يونيو ٢٠٠٣  
أشهر ومجلة الصحافة



## وقائبات أخرى

إلى جانب الرقابة الاقتصادية هناك حصارٌ آخر يراجهنا ليس أقلُّ ضراوةً من كلِّ أشكال المنع والمحصرة التي اتُّبِنا على ذكورها وتعني به حصارُ الإعلام الرسمي لنا. فنحن على سبيل التمثيل لا الحصر ممنوعون من الظهور على شاشة القناة الثانية، بل مُنعنا رسميًا من المشاركة في برنامج «الصحافة رأي» من لدن مديرية البرامج التي أكدت لنا أنَّ الصحيفة ولوجورنال ممنوعان من الظهور في القناة الثانية مادامت هي مسؤولة عن البرامج في هذه القناة. وقد قامت هذه القناة مؤخرًا بتوزيع إعلانات استقالات منها الجرائد المغربية، وأقصينا نحن بدون سبب.

ولا تغف محاصرتنا عند هذا الحد بل إنَّنا نواجه بنوع من المنع عندما يُركّض مسؤولٌ أو وزيرٌ التعارض معنا، أو عندما يقاطعنا صناعُ القرار السياسي في البلاد أو يمتنعون عن تزويدنا بالأخبار والمعلومات.

إنَّنا لا نحتاج اليوم في المغرب إلى شعارات بركة وخادمة، ولا إلى نوع من ديمقراطية الواجهة التي نسوّفها إلى الخارج، بقدر ما نحن مطالبون جميعًا بإطلاق المبادرة لحوار وطني حقيقي حول المسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية التعبير. فمن شأن هذا الحوار الوطني وحده أن يضع المغرب على سكة التحول والتغيير المنشودين.

عبد العزيز كوكاس

رئيس تحرير اسبوعية الصحيفه المستقلة سابقًا.



## قراءة في المجالات الممنوعة خلال الثمانينيات

عبد الحميد عقار

### دفعة واحدة... وإلى الأبد

في الأسبوع الأخير من شهر يناير ١٩٨٤ صدر قرار عن السلطات يقضي بمنع أربع مجلات مغربية من التداول دفعة واحدة وبصفة نهائية هي:

١ - **الثقافة الجديدة** (مجلة فكرية إبداعية) بعد عشر سنوات من الصدور، إذ تأسست في نوفمبر ١٩٧٤ وقد صافد قرار المنع عندها الثلاثين، والترخيص لها بالتوزيع في تونس وفرنسا.

٢ - **الزمان المغربي** (بفانتر ثقافية) بعد خمس سنوات من الصدور الذي ابتداء سنة ١٩٧٩، وصافد قرار المنع عندها الثامن عشر.

٣ - **البديلة** (ملفات للبحث والسؤال) بعد ثلاث سنوات تقريبا من صدورها الأولى في ربيع ١٩٨١.

٤ - **البصير** (مجلة الفكر الديمقراطي الجديد) في الذكرى الثالثة لصدورها بعد ستة أعداد، وقد صافد قرار المنع عندها السابع الذي كان قد طُبع، والترخيص لها بالتوزيع في تونس وفرنسا.

٥ - وقبل يناير ١٩٨٤ تم منحه مجلة الجماعة للسيد عبد السلام ياسين بعدما تعرّض بعض أعضائها للحجز إثر توزيعها.

٦ - مُنعت مجلة **أمازيغ** بعد صدورها الأولى بالعربية وخمسة أعداد بالفرنسية.

٧ - في يونيو ١٩٨٨ أكرهت مجلة **لام الف Lamalif** بالفرنسية على المنع الذاتي بعد أكثر من عشرين سنة على صدورها، وبعد أن وصل معدل السحب إلى حوالي ١٢٠٠٠ نسخة.

٨ - في أبريل ١٩٨٩ أجهزت مجلة **كلمة Kalima** بالفرنسية على المنع الذاتي أيضا بعد سنتين من الصدور شهريا، ويسحب يصل إلى ١٠٠٠٠ نسخة. وتمّ ذلك بعدما تعرّضت المجلة للحجز ثلاث مرات في سنة واحدة.

ولم يكن مسلسل التوقيف أو الإكراه عليه معزولا، فقد مُنعت بعض الكتب المغربية والعربية. ووجهت الصحافة الوطنية بحملة تضييق ومنع قلّ مثيلها. فقد مُنعت جريدة **المحرر** (يونيو ١٩٨١) وما تزال كذلك إلى اليوم. وأوقفت جريدة **البيان** بصفة مؤقتة خلال عام ١٩٨٤. وطال للمنح صحف الطريق، والصباح، والإصلاح. وتعرّضت صحف العلم، والاتحاد الاشتراكي، والرأي، وانوار، والمساء، والأسبوع الصحفي، للرقابة والتضييق والمحاكمة أحيانا.

### قراءة في محتوى الممنوعات

**كلمة** مجلة نسائية تميّزت بخطاب رصين وجيد التوثيق.

وتسلّ لام الف أحد أهمّ مكتبات الذاكرة الثقافية للمجتمع المغربي خلال العقدين الأخيرين. فللمتابعة التحليلية للأسئلة والإشكاليات التي تفرضها سيرورة النموّ والتحولات المشوّقة.



الزمان المغربي مُنعت نهائيا بعد خمس سنوات من الصدور

واسلوبُ المُلَاقَاتِ المُتَخَصِّصَةِ والمُكَرَّسَةِ للقضايا المحليَّة وطنيًّا أو جهويًّا أو دوليًّا، والانتظامُ في الصدور، كلُّ ذلك جعلها تُستقطبُ جمهوراً واسعاً من القراء بالفرنسية، وتصبح لذلك مرجعاً له أهميته بالنسبة إلى وقائع المجتمع المغربي خلال العشرين سنة الماضية.

وقد اهتمت مجلة أمازيغ، وخاصة العدد الصادر بالعربية، ببعض قضايا الثقافة والتراث الأمازيغيين في علاقتها بالهوية، واشتدت بلهجة في تناول لا تخلو من حدة.

وحارلت مجلة الجماعة، بلسونها الخاص، الدعوة إلى حقِّ الجماعات الإسلامية في التعبير السياسي وتقديم ما يُعتبر بمثابة برنامج عمل سعت للجلة على أساسه إلى توسيع استقطاباتها. كما اهتمت بالدعوة إلى إقامة حوار مفتوح مع الفئب التي تعتبرها «مفرقة». ولم يخلُ خطابها من النزوع الوصائيِّ والميل إلى الحديث بلغة المُلَاقَاتِ.

اما مجلات الثقافة الجديد، والزمان المغربي، والبديلة، والجسور، فبالرغم من الاختلافات التي تميّزها بعضها عن بعض في المادة واللهجة والتفكير ونوعية الأسئلة التي تحظى بالأولوية لديها، فإنها تلتقي بهذا القدر أو ذاك في بعض العناصر من ذلك. الانتماءُ للشرق بين هذه المجلات، كلٌّ من موقعها، ببعض جوانب المسكوت عنه في الفكر والممارسة، ومحاولة إبرازه ومساءلة سياقاته وأنساقه. كما انشغلت بتقاربينها أيضاً، ببعض القضايا المُلَاقَةِ التي تُصمِّرُ عادةً أن النظرة لم يمتنع بعد طرحها، في حين يتعلّق الأمر في الواقع بدور من المراهنة، بكلِّ ما تحيل عليه هذه الكلمة من تجريب وقلق وشك. والملاحظ أن صدور هذه المجلات الأربع، رديماً مجلات أخرى، جاء امتداداً لمرحلة سياسية ومحاولة للتعبير عن إغراضاتها. وفي مرحلة تميّزت في طابعها العام بتيارات فكرية وسياسية جعلت من نفسها قوةً على هامش القوى الوطنية والديموقراطية بالمغرب، وفي سياق معارضة جذرية تتبنّى شعارات ثورية ضدّ المؤسسات. هذه التيارات راودها حلم التغيير، ووجهها أو فرقها كذلك الانحسار ببعض المآلق التي افترض خلال السبعينيات أنها أصبحت متعلّقة القوى الوطنية والديموقراطية عن إنجاز مشروعاتها للتغيير والتحرير. ومن هنا نلاحظ الضعف المكثف في هذه المجلات لمساهمات العقول السياسيين، ولنفعة النقد العنيف وغير المؤسّس أحياناً - وهو نقد يمسّ كلَّ شيء.

في ضوء ذلك نقول ما أشتيمه طابع «المراهنة» الذي تقلّ فيه الحسابات الاستراتيجية الحقيقية لموازين القوى والشرط مصادقية الخطاب والممارسة معاً، ويقال للتعمير العقلاني والتاريخي، بين ما هو كليّ يُشمل سمات مشروع مجتمعي متماسك وبين ما هو ملوح رومانسي في المستقبل، إيجابي ومشروع وضروي، إلا أنه يستلزم بالإرادية تارةً وبالمالية تارةً أخرى حتى وهو في عزّ التفكير والممارسة الماديّين.

## ملحوظات

نستنتج من هذا الجرد السريع لملاحظات الصحافة المغربية خلال الثمانينيات، ومن موجّه محتواه المختزل بحكم السياق، جملة ملحوظات منها:

١ - ليس للتعلم بالمغرب حدود ولا قيود، سواء بالنظر إلى التوجه والمحتوى أو بالنظر إلى اللغة وأساليب العمل وضرويه. وهذا يعني أن حالات المنع لا تضعنا أمام محرّم معيّن تمّ اختراقه فتدخّلت السلطات بالخطر، ولئما نوجد قبل كلِّ شيء، أمام شعائرية الظرف بسبب ارتفاع حدة التوترات الاجتماعية والاحتجاجات الشعبية، حيث يغايّر للقدس حالته الشاوية والمتواضعة عليها يدعو وقعه تحت «التهديد ومجاهدة الخطر» ويؤس لذلك صيغة التعمية الراحمة.

٢ - أخذ المنع خلال الثمانينيات صيغتين: حظر الشفوي المباشر، والإكراه على المنع الذاتي، دون تدخل مباشر من أجهزة السلطة. وفي الحالتين معاً، ليس هناك لدى الممنوعين - حسب علمي - ما يؤكّد الطابع الرسمي لهذا المنع.



مجلة كلمة: لجبرت على المنع الذاتي عام ٨٩ بعد هدى على مودوما

٢ - يتم المنع بطريقة عشوائية تحكمية ويقترون في الغالب بارتفاع وتيرة الصراع الاجتماعي وصخب الفئران الشعبي تحت ضغط غلام المعيشة أو الزيادة غير المشروعة في الأسعار، أو تحت ضغط بعض الإجراءات الاستثنائية كما كان الحال بالنسبة إلى مواطني الناظور وتطوان تجاه «ضريبة» مغادرة التراب الوطني خلال ١٩٨٤. ولا أدل على هذه العشوائية التسلقية من الرّبط بين منع أربع مجلات دفعة واحدة خلال عام ١٩٨٤، والوقائع واحتجاجات التي كان المغرب مسرحاً لها على امتداد الفترة للتراوحة بين ٥ و ٢٢ يناير ١٩٨٤، وشملت ما يُقرب من خمسين نقطة، ووصلت ذروة انفجارها يوم ١٩٨٤/١/١١ عندما بلغ الاصطدام أوجّه بين المظاهرين من التلاميذ والطلاب والصيادين والمهشّمين وبين القوات المساعدة والحصرية والدرك في كلّ من الناظور وتطوان ومراكش. ومن حيث التوقيف جاء إبلاغ قرار المنع إلى مدراء المجلات، من طرف مصالح الأمن الإقليمي بالرباط، تأليفاً لحدثين أوّلهما خطابٌ مكثيٌ تميّز بالتشدد في اللهجة تجاه المظاهرين والمُخبرين، وبالتأكيد على عدم تطبيق الزيادة في أسعار المواد الأساسية. وثانيهما قيام السلطات بحملة واسعة لمراقبة أسعار المواد الأساسية في مجموع التراب الوطني ابتداءً من ١٩٨٤/١/٢٤. وقد أخذت هذه الحملة طابعاً إعلامياً بالغ «الاحتفالية»، وتُلفت فيه الإذاعة والتلفزة بشكل لا يقلّ زجراً عن الإجراءات التي مُسّكت بعض الذين شملتهم الحملة بالمقاب والتفريم.

إنّ المنع العشوائي التعمّمي يبدو من زاوية السلطات وفي سياق تنفيذه كما لو أنّه أكثر بلاغةً من المنع وفق مقتضيات القانون. إنّه أكثر بلاغةً بمعنى أنّه أكثر قدرةً على التخويف والإفraz وأدنى للاعتبار والحالة هذه، فالطبيعة لم تعد تكفي لالتزامهم بحسب، بل لإصدار القرار بالمنع والتوقيف أولاً، ويتمّ بعد ذلك الاقتضاء تكيف نصوص القانون وتآويلها لتبرير هذه السياسة.

٤ - غير أنّ عشوائية المنع ليست بدون دلالة سياسية. فمنع الإبداعات الأدبية والفكرية يُبرز تصوّر السلطة للعمل الثقافي من حيث هو ممارسة بإمكانها أيضاً أن «تخلّ بالتوازن»، وهي لذلك «تستحقّ» العنف الذي قد يؤدي إلى الموافقة ويدون شروط هكذا تصبح الإجراءات المُتخذة ضدّ المجلات والأعمال الثقافية والصحفية امتداداً لتلك التي تُتخذ ضدّ العمل السياسي والقمي. كلاماً ينبثق من وهم «حفظ التوازن» مهما يكلف ذلك من ثمن حتى ولو كان الثمن هو إبطال سيادة القانون. وعندئذ يصبح الهاجس الأمني هو للسيطر، ويمش في قلب كلّ قرار يُتخذ به السلطة، وعموماً لا يسيطر الهاجس الأمني على رجال السلطة إلاّ عندما تكون هذه الأخيرة فاقدةً للشرعية أو متهاجرةً لها. وكما يذكّر عبد الله ساعف، ففي المغرب «تُخترق السلطة السياسية القانون وتتجاوز به من أقصاه إلى أقصاه، ومن أعلاه إلى أسفله». القانون يتجرّأ على مقاس السلطة السياسية ويتشكّل على هيئاتها، فتنبع الشرعية التشريعية والتشريعية وتتكيّف معها. وهذا ما يفسّر قدرة السلطة على تعديل القانون وإبطال مفعوله، وبراعتها الفاعلة في تسفيره.

...

لكنّ إلى متى تستطيع التشريعية أن تُخشب الشرعية الفعلية وتحوّل دون وجودها؟

عبد الحميد علّال

استاذ جامعي، مدير مجلة الجسور التي منعها السلطات في بدايات الثمانينات.



## الرقابة الصحفية في المغرب: الصراع بين معسكرين

عبد الرحيم أريزي

هل اختفت الرقابة نهائياً من المشهد الصحفي بالمغرب؟ سؤال قد يبدو ساذجاً لكون عدد من المهتمين يُظنون وجود رقابة على ما تنشره الصحافة المغربية. وهذا الظن يتم وبطء بكون تلك الممارسة كانت سائدة إلى حدود الستينيات، عبر تحكّم الرقيب في الأطلاع على مستويات الصحيفة قبل أن تُطبع وله حقّ حذف ما يراه «مضراً بالأمن العام».

من الناحية الشكلية يُشكّن الاستئناس بهذه الواقعة ليقول المرء إنّ الرقابة لم تُعدّ سائدة في بلادنا، إلا أنّ هذا القول واهٍ لماذا؟

الجواب عندنا يتجلى في أنّ الرقابة هي فعلٌ نتوخى منه الإدارة الحيلولةً لئلا تداول معلومة معينة وسط المجتمع واعتاداً على هذا التعريف، فإنّ الإدارة المغربية، في عدة قطاعات عمومية وشبه عمومية، مازالت في ظنيّ تمارس رقابة خفية على الصحف، وتمارس من ثمّ المسّ بحقّ فئة من المواطنين في الأطلاع على ما يهمّ الشأن العامّ وتبنيّ المواقف.

وبالعودة إلى النقاشات الصحافية التي ميّزت تعديل قانون الصحافة، يُمكننا الوقوف على المواجهة الحادة التي جُنعت الجسم الصحفي المغربي مع الحكومة والبرلمان. إذ تشبّث الصحفيون بضرورة إدراج «حقّ الصحفيّ في الحصول على المعلومات» من بيانات ووثائق ودراسات ومحاضر رسمية. فيما تمسكت الإدارة والبرلمان برفض هذا المقترح رفضاً مطلقاً، ألهم إلّا ما عالجته المشرع بشكل فضفاض ومحتشم بشأن التماسه من كلّ المعنيين «تسهيل ولوج الصحفيّ للوصول إلى الخبر» [١].

المجتمعات المتمنّية والديموقراطية ترتكز على تداول المعلومات بشكل حرّ وميسر حتى يتسنى لكلّ مواطن أو فئة اجتماعية معرفة تدبير الشؤون العامة، أو معرفة كيفية صرف المال العام وحيليات سنّ سياسة عامة في هذا القطاع أو ذاك. وإما المجتمعات المتخلفة سياسياً فتجدها تعتنق «ديانة التكتّم» واحتكار المعلومات، مع ما يترتّب عن هذه السياسة من تشجيع الإشاعات وتناقل الأخبار الكاذبة والملوطة.

في ظنيّ لا يُمكن عزّ هذه السياسة، أي التكتّم، عن خاتمة الرقابة. ذلك لأنّ الأجهزة العمومية تدار بواسطة ضرائب المواطنين. وكلّ ضريبة يقابلها حقّ معرفة إرجو صرّفها فإذا كان المبدأ العالمي يتصور حول «لا تمثيل دين دفع ضرائب»، فإننا يُمكننا القول بأنّه «لا ضرائب دون إخبار وإطلاع المواطنين عليها بشكل ديموقراطي». وبما أنّ المواطن منشغل بدراسته أو عمله أو ترفيهه ويستحيل عليه طرُق أبواب الإدارات لمعرفة ما يجري، فقد ابتدعت المجتمعات اليّة أليفة تُسمّى «الصحافة» لتتوب عن المواطنين في البحث عن الأخبار والتحري في شئناها لظفر علانية للنقاش. ومن ثمّ فإنّ كلّ سلوك يرمح حسب الوقائع والبيانات والمعطيات يُعدّ رقابة واعتداء على حرمة الصحفيّ - بوجهه مثلاً للرأي العام - واعتداء على أقدس حقّ من حقوق الإنسان، ألا وهو الحقّ في الخبر.

بناءً على هذا الطرح، بحقّ لنا أن نقسم المغرب اليوم إلى معسكرين: معسكر الشفافية، ومعسكر التشفّي... أو بين معسكر البوضوح واحترام نكاه المغاربة، ومعسكر الغموض واستغلال تضجّع المواطنين؟

عبد الرحيم أريزي

صحفيّ، مدير أسبوعية البليضاوي



## الرقابة ومصادرة حق الصراع الحضاري

عبد القادر الشاوي

### الرقابة ومصادرة شرعية القانون

تجس كلفة النظم إلى وضع ترسامة من القوانين الناظمة لكيفيات الممارسة داخل المجال العام. وتبدو الرقابة، استناداً إلى هذا الفهم، أداة موضوعية تجتنب إليها تلك النظم، مهما بلغت درجات تماثلها للديموقراطية وشرعية الاختلاف وحق التعبير الحر؛ ذلك لأن هناك منظوراً لاية دولة تُحرس من خلاله على الصفا على توازن وأوضاع محدّدة، وأي خرق لتلك التوازن أو لهذه الأوضاع يشكل مساساً بما هو قائم ومتوازن ويكون - بالتالي - موضوعاً للمنع الذي يأتي معللاً تمييزاً قانونياً.

صاغت المجتمعات المتقدّمة أنظمة وتصورات وقوانين تحكم عملية المصادرة؛ فكل خروج عن تلك القواعد هو خروج عن المجال المتفق عليه، انطلاقاً من الحقوق الأساسية للمواطن والمواطنة والتجربة المغربية الحديثة انضبطت هي الأخرى إلى تصوّر قانوني شديّد في مراحل مختلفة من التاريخ المعاصر للمغرب: ابتداءً من الترسامة القانونية التي وضعت في بداية الاستقلال، وهي ما اصطلح عليه بـ «قانون الحريات العامة لعام ١٩٥٨»، مروراً بالتغييرات التي شملت هذا القانون في مراحل تاريخية مختلفة وينظم هذا القانون، فضلاً عن الممارسة السياسية والاجتماعية المباشرة، الممارسة الثقافية بتنوّع أنماطها وتوليقاتها. وفي هذا المجال بالذات، هناك تخصيص مباشر وواضح في ظهير ١٩٥٨ على مسألة حرية الطباعة والنشر، إذ يحق لكل مغربي يستأنس في نفسه القدرة على إصدار صحيفة أو مجلة أو كتاب أن يتمتع بهذه الحرية دون قيد أو شرط. وجميع القيود التي سنتها، فيما بعد، سواء أكانت مذكرات أم مناشير صادرة عن جهاز من الأجهزة كوزارة الداخلية أو وزارة العدل، ما هي إلا للحد من الحرية الواسعة التي يضمنها المشرع في ظهير قانون الحريات العامة ذلك، لذلك، فعندما نبحت في المجال الثقافي المغربي عن أشكال المنع الصادر عن سلطة قانونية ضد ممارسة ثقافية أو مطبوع من المطبوعات، فإننا نواجه بغياب الرقابة القانونية. ذلك أن التقليد المنبع من طرف السلطات في المغرب دأب على مصادرة الممارسة الثقافية المغربية وفق مبدأ الرقابة الإدارية التي لا تخضع لضوابط قانونية، وإنما تستند إلى ممارسة استبدادية صادرة عن جهاز أو فرد، قوامها مفهوم «المؤامرة» الذي تملأ به إقدامها على ممارسة مصادرتها - كما تزعم أن هناك قضية حكّاء ضد البلد أو ضد هيئة أو جهاز - فتمنع نفسها الحق في الإنابة عن القانون في استصدار الأحكام، دون أدنى احترام للضوابط القانونية الذي لا يحق لسواه ممارسة هذه السلطة.

مس هذا الشكل الرقابي التعسفي جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. صحيح أن الرقابة السياسية في فترة من الفترات كانت أشد وطأة على الممارسين السياسيين، إلا أن ذلك لا ينفي مجموع أشكال الرقابة والمنع التي مورست على الخطاب السياسي باعتباره



محمد السادس، صارت السلطات الإدارية مجموعته لدراسة الغلال الماضي بسبب السياسة

خطاباً ثقافياً بالأساس؛ فالأمر متعلق، لأن الممارس السياسي يجد نفسه في حاجة إلى إنتاج خطاب ثقافي ملازم لممارسته السياسية اليومية.

وفي المجال الثقافي تحديداً، مورست الرقابة عبر القانونيّة منذ فترات بعيدة بعمد الاستقلال، وفي مرحلة بناء الدولة الوطنية، وفرض سيادة تصوّر مفرد للدولة لممارسة المجال العام وتنظيمه، وكذا مفهوم الحياة العامة للمواطن وربما كانت أقوى الفترات التي مورست فيها هذه الرقابة، بصورة مكشوفة، تلك التي ارتبطت بالعديد من التحولات السياسية والثقافية والإيديولوجية، عنيت الفترة الممتدة من الستينيات إلى حدود بداية التسعينيات، فبدأً من أواخر الستينيات وبداية السبعينيات ظهرت الرقابة غير القانونيّة على المنتوج الثقافي، ومن المصادر التاريخية آنذاك نذكر إقدام السلطات الإدارية على مصادرة المجموعة القصصية المكتوبة باللغة الفرنسية اغلال الماضي للكاتب والصحفي محمد بريني، لأن خطابها كان خطاباً سياسياً مباشراً «يتناول» بدءاً من عنوان المجموعة وانتهاءً بأخر قصة فيها، على ملاسة جوانب قائمة من ظاهرة الاستبداد المعشّة في تلك الفترة فمحمد بريني، للثقاف والمناضل السياسي في صفوف الحركة القلّميّة الداعية إلى تأسيس قيم جديدة، وجدّ نفسه في مجموعته القصصية مدعوً إلى إعادة إنتاج خطابه السياسي وفق شروط مجال آخر محكوم بضوابط واشتراطات مغايرة ولكّنه - أي المجال - فتأدّى مقمّلاً للبرج بالقناعات الفكرية والسياسية والثقافية الجديدة في مواجهة نمط السلطة السائد الذي أعلن عن هويته في حملات الاعتقال وضرب الطوق على الأحزاب ومنع الصحف.

إن عنصر «الاشتباه» كان حاصلاً، إذن، في ما يزعج إلى تلك المجموعة القصصية الملاي بنفحات التعبير القلّميّ عن مشاكل المجتمع، والمضمّن لما يثبته الإدانة لممارسة سياسية تُغلب على الحياة المغربية. فكان أن اشتبه الرقيب في هذه النصوص الأدبية فقلّّم على مصادرتها الأمر ذاته حصل، وإن في فترة متأخرة، مع رواية مسعود لعيد الحق سرحان، وكانت قد صدرت في فرنسا ولكّنها مُنعت من التداول في المغرب لما تنفّست من إبهامات مباشرة إلى مظاهر الجنس. كما تعرّضت مؤلّفات فاطمة المربيسي للمصادرة لأن الرقيب اعتبرها مُسّاً وأضحى ينسّق التفكير الإسلامي في علاقته بالمرأة ويواقعها، ويخلطه لتجربة المرأة في التراث العربي الإسلامي، وتشويشاً على علاقة المرأة بالمجال الدينيّ.

كل هذه المصادرات، إذن، خَصّصَتْ لمزاجية الرقيب الإداري وأهوانها وتلوناتها بحسب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية السائدة في مرحلة ما من المراحل التاريخية للمغرب المعاصر. وقد خلّق هذا التورّع من الممارسات غير المشروعة نوعاً من الرقابة غير المرئية؛ فإذا كان المصّ القانوني مرئياً بفعل التطفل الذي يُرتبط به، فإن المصّ الإداري مصادرة غير مرئية تُحكّم إلى الأواء، إذا إنّ الشخص الذي تصادر أعماله يُجهل الرقيب بل



مسعود لعيد الحق سرحان مُنعت من التداول بسبب الجنس

ويجهل المعايير التي احكم إليها من أجل فرض المصادرة. وهذا ما تركّز المجال الثقافي عرضةً لنوع من التسيب في ممارسة «سرعية الرقابة» على الإبداع والممارسة الفكرية

سعت الدولة في المغرب على امتداد العقود السابقة إلى تقديم نفسها كإيديولوجية على المجتمع، متوقّعةً أنّها الجهة الأكثر قدرةً على تاطير المجتمع بفضل الأجهزة والإمكانات التي تتوافر عليها، وإيماناً منها أيضاً بوجود مصلحة فعلية في سيادة تصوّراتها وإيديولوجياتها العامة؛ فهي الجهة الوحيدة المتمكنة من ضبط إيقاع نهضات المجتمع في كافة المستويات؛ وهي الجهة القادرة لوصفها على الصفات على دائرة التوازنات التي تفتقرضها للمجتمع؛ وهي الجهة المتمكنة من فرض اشتراطات بلورة الممارسة المتعدّية في داخل المجتمع. ولأجل كلّ هذا تلغي السلطة ما عداها. غير أنّ إلغاء السلطة في المغرب لمطلق التطوّر المجتمعي، القائم على التعدّد والتنوّع، عمّل دور التشكيلات الاجتماعية والسياسية والدينية المفترضة في تحقيق ديناميّة تساهم في صوغ المشروع المجتمعي وإحداث نهضة تُكفّع في اتجاه التقدّم والنمّ. فقد شَرّكت الدولة المغربية لنفسها حقّ مصادرة حريات هذه التشكيلات وحرمانها حتى من شرعية الوجود، ولم تُفكّج المجال

للأطراف المجتمعية والسياسية وبغيرها لكي تُقرَّر اختلافاتها وتتوَعَّاتُها فتعملُ بالتالي - هي ذاتُها - على التوافق على أرضية مشتركة لتبوير هذا الاختلاف والتتوُّع.

### الدولة وشرعنة العنف

إنَّ اعتبارَ الدولة نفسها وصيةً على المجتمع، والتجاسُّم إلى طمس كلِّ مظاهر التتوُّع والاختلاف بتسليط رؤيتها وممارستها، دليلٌ على ممارستها للعنف ضدَّ المجتمع. وكانت الدولة في المغرب قد شرَّعت منذ تأسيسها بعد الاستقلال مجموعة من القوانين، غير أنَّها كانت سيَّاقة إلى خرقها. وعندما تصبح الدولة، التي تقدِّم نفسها راعيةً للمجتمع ومحدِّدةً لمجالات الحياة فيه، أوَّلَ مَنْ يُخرق هذه الأساق، فإنَّها بذلك تشرِّع العنف وتقدِّع إلى تركيس ممارسة لا تعترف بحدود القوانين. فالدولة المغربية شرَّعت "قانون الحريات العامة" الصادر سنة ١٩٥٨ ونظام الانتخابات، إلا أنَّها قامت هي نفسها بخرق القانون بدافع من الدوافع المرحلية. ومن هنا نشبَّع لامشروعية جميع المصادر التي مورست في تاريخ المغرب.

كما استطاعت هذه الممارسة أن تُكرِّس سلوكًا في الاستبداد والخوف والإقصاء والقمع المضاد. ونتائج هذه السياسة تُخصمها اليوم في مستوى نقاشاتنا الفكرية والثقافية. وفي صراعنا السياسية، بل الأخطر من ذلك أنَّها كُرِّست نوعًا من الاستبداد الذي أضفى قاعدةً في الكثير من السلوكات، بما في ذلك اعتماد أشكال بدائية أو متطرفة للرقابة الذاتية المرتبطة بخطر معيَّنة افترضتها هذه الدولة لجميع الممارسات (في وقت لا نجد قرينةً قانونيةً تحدِّد طبيعة الموضوعات ذات الخطوط الحمراء). وبهذا كُرِّست الدولة ثقافةً رهيبةً في علاقة الفرد بالسلطة، وفي علاقته بالمجتمع، وفي علاقته بنفسه، وفي علاقته بالكتب.

ورغم التطورات المهمة التي وُقِّعت في المجال السياسي المغربي في السنوات الأخيرة، إلا أنَّ المنع والمصادرة لم يتوقَّفا، إذ ظهرت أشكال من المنع القانوني المرتبط بالتوازنات المنسوجة على صعيد المجتمع. وبذلك صار المنع أقرب ما يكون إلى التفتُّن من خلال افتراض ضوابط وخطوط لممارسات عامة. وتركيس هذا التفتُّن جاء حصيلةً تجرية الاستبداد السياسي في المغرب، بحيث وكَّد حالة من الرقابة الذاتية يتشعَّر بها كلُّ ممارس ثقافي أو سياسي فالرقابة الذاتية تدعوه إلى كتابة ما أو تمنعه منها، بحسب تقديره لشروط الأوضاع المحيطة به ويطرؤها؛ ثم وضعت من أجل ذلك تعريعات غير مكتوبة صارت يفلل إرغامات فترة الاستبداد السياسي قاعدةً موضوعيةً لإنتاج الخطاب أو الممارسة.

### رقابة التعادف

إذا كنَّا نؤمن بأهمية القانون في تحقيق العدل على صعيد المجتمع ككل، فإنَّنا يجب أن نُقدِّر لرقابة القانون وأن نعتبره هو السيد الأقوى بالنسبة إلى المجتمع. هذا التوجُّه سيُتيح لنا إمكانية التعاضل بناءً على قواسم مشتركة، وإمكانية الاختلاف على أسس قواسم مشتركة أخرى، ولكنَّا في اشتغالنا وتعايشنا معًا قد نلتجئ في لحظات التوتر والأزمة إلى القانون.

قد يرى البعض أنَّ الإبداع، لكونه عمليةً فنيةً ولغوية حرة لا تُخضع القوانين جاهزة، يناهض القانون كما يناهض كافة وسائل المنع والمصادرة. إلا أنَّنا يجب ألا نفترض أنَّ البعد يوجد بمعنى من شروط محدِّدة لعمله يُثبِّط بها - إنَّ لم يكن في معاشه فهي الضرورات التي تُفرض عليه باعتباره ممتثلًا إلى دائرة من الدوائر المجتمعية. إنَّ سيادة القانون قد لا تظلي إشكالاً أخرى من الممارسة تُفرضها شروط تاريخية معيَّنة، أهمُّها وهذا التماقذ على جملة من القضايا يُمكن أن تكون قاعدةً للممارسة، إيمانًا بأنَّ التحوُّلات الموضوعية، على أيِّ صعيد من الصعيد الداخلي أو الخارجي، هي تحولات متصارعة تتعاون أحيانًا الإطَّار القانوني الوطني. مثلًا، نحن ككتَّاب مغاربة نتوافق، بناءً على رزمة من المقررات والاعتبارات الوطنية والسياسية والاجتماعية والدينية، على حدود معيَّنة لا يُمكن تجاوزها. ويُمكن مثل هذا التعادف أن يشكِّل أداةً متحضرةً وميكانيزمتًا متطوِّرة لتبوير الاختلافات والتناقضات على الصعيد العام وعلى الصعيد الفردي.



عبد القادر الصافي: المنع الصافي له يكن إبداعاً  
فصحب بل من رفاق السون إيفان



غير أن التعاقد يستوجب توفر ممارسة ديموقراطية واسعة، وتركيزاً لسيادة حق الاختلاف والتوزيع، وأساساً في مناخ الحرية المأموس على المبادرة وعلى تكوين قوى نقدية بقتلة تقع في اتجاه ترسيخ الحق والقانون. وبهذا المعنى فإن رقابة التعاقد، التي يسعى العديد من الأطراف إلى سنها في الممارسات داخل المجال المغربي العام، لم يتبلور تصور موضوعي حولها نظراً إلى غياب الممارسة الديموقراطية الواسعة. فالتفتي بالديموقراطية والاختلاف والتوزيع ودولة الحق والقانون سبقي شعاراً عاماً في المرحلة الراهنة. ولكن من دون محتوى حقيقي يُستند ويوطيه مدلوله الفعلي. فكيف نريد لمجتمع أن يتطور في اتجاه الوعي بذاته ويمرقلته ويكياه الحضاري إذا كان مجتمعا ممرّكاً بين معويشه اليومي وتطلعاته الفكرية، بين حرية ممكنة والحاجة التي قد تلغي الحرية وهذا التناقض من شأنه أن يمدّق السير نحو مرحلة الذواقي والتعاقد الاجتماعي بين كافة التشكيلات السياسية والاجتماعية والثقافية على تعبير الاختلاف

## دكان واخواتها وعنف المصادرة

يبدو من الصعب الحديث عن الدواغ التي مكنتني في لحظة ما من كتابة نص مثل كان واخواتها. لكن المسافة الزمنية الفاصلة بين تاريخ الاعتقال وتاريخ وجودي الحالي مكنتني من اختبار تأويل من التاويلات الممكنة: وجودي في السجن، ارتباطي بتجربة سياسية معيّنة، علاقتي بالكاتب الذي كنّه حتى وجدت نفسي في شروط استثنائية أكتب ذلك النص الذي لم يكن بالإمكان كتابته إلا داخل السجن وراء اسوار المنع. واعتقد أنني لو لم أعتقل لما كتبت هذه الرواية: فقد كانت تعبيراً فنياً عن تجربة خاصة في علاقتي الشخصية، وفي علاقة جماعة معيّنة بالقمع

الكتابية في السجن عن السجن كانت في مرحلة الثمانينيات شكلاً جديداً من اشكال التعبير عن الحرية المصادرة، وعن تحمّل الذات المتنوعة والمغلولة، وعن ملاذ ذهني وعاطفي وجدته في الماضي وفي الطفولة وفي المنسار الشخصي العام. أي أنّها كانت محاولة ارتقاء ذهنية إلى جميع المجالات التي مُنعت منها بقوة القهر أو للمصادرة أو الاعتقال. من هذا الفضاء انبثقت كان واخواتها. وكان التحدي الكبير الذي يواجهني هو أن أكتبها من داخل السجن وأن أشرها وأنا في السجن: ذلك لأنّ النتائج المترتبة عن ذلك كانت بلاغة في التعبير عن خطورة المكتوب في علاقتها بنفسي وفي علاقتي بالآخرين. فقد كان أول رد فعل هو الذي صُنّف عن رفاقي الذين كنّ أتناسم وإياهم بتجربة الاعتقال. ومن بعده جاء رد الفعل الثاني من السلطات التي قرّرت مصادرة الرواية ومنعها من التداول.

والظاهر أنّ الحديث عن القمع من طرف المقموع كان، في تلك المرحلة، ظاهرة جديدة في المغرب إذ لم يمتدّق لأي شخص داخل دائرة الاعتقال أنّ أصدر كتاباً حول تجربة الاعتقال: عنيت أن يكون قد أصدره عن وعي نقدي لإنذنة تجربة الاعتقال وإبطالها. كما أنّ المنع كان تكريساً لمصادرة سابقة لحق الكاتب – الإنسان في الصرية والصيغة. إنّ رواية كان واخواتها سيرة ذاتية ذات أفق روائي، إلا أنّها تتممّ بشكل من اشكال للمباشرة في الحديث عن تجربة القمع. وقد حملت تعرية لما كان قائماً وراء التصنّف عليه – وذلك هو الجور الممكن في نظر أي قاص لمصادرة الكتاب ومنع من التداول.

لكن يبقى أنّ المنع الذي صانفته لم يكن فحسب منعاً إدارياً عند إلى إقصاء الرواية من حقل التداول الثقافي وخزمني من ممارسة حق التعبير الحرّ عن وضع استثنائي في مرحلة تاريخية من تاريخ المغرب للعاصر، وإنما كان أيضاً منعاً من نوع آخر: منعاً أحصسته في علاقتي الرفاقية داخل السجن. فالرواية كانت تعبيراً عن مسارات وحيوات لأفراد ولو بأسماء مستعمارة، أو بالأحرى الأولى من الاسماء. ولهذا قرّرت النص المكتوب وفق اشتراطات القراءة المباشرة. فكتبت من القراءة داخل المعتقل ونجّوا اسماً معيّنة على أسماء أخرى، وصارت تلك قاعدة في السلوك



كان واخواتها أول كتاب من تجربة الاعتقال: مصادر في الثمانينات

والعاملات مع النصّ والكاتب معًا لحفظها أحسنستُ أنّ أخطر أشكال الرقابة والمصادرة هو قراءة النصّ قراءة مباشرة وخرفيّة، قراءة بوليسية لما وراء السطور، تتقصّد البحث عن النوايا أكثر ممّا تتعقّب الأشكال والعلامات والبحث عن النوايا يقود إلى مصادرة النوايا، أمّا البحث عن الأشكال والعلامات فيقودنا إلى إنتاج صيغ مواتية لتلك الأشكال.

وهكذا قيّد لي أن أعيش نوعين من أنواع الرقابة والمصادرة. مصادرة إدارية لأسباب سياسية يُمكن تفسيرها في ضوء لتفاعلات السياسية والثقافية في مغرب الثمانينيات، ومصادرة معنوية لأسباب ذاتية مرتبطة بتجربتنا فقد تحدثت في الرواية عن هذه التجربة بمنظور نقديّ اعتبرتُ من خلاله أنّ تجربة النضال الثوريّ لم تكن سوى وهمٍ فيها نحن نستقيق، بعد هذه القلّة الإيديولوجية، على واقع موضوعيٍّ فالسلطة اجتمعتْ جذورنا، وهذمتْ تجربتنا، ووضعنا أمام امتحانٍ عسير هو أن نكون أو لا نكون. فاعتبّر رفاقي أنّ هذه نظرةً انهماكيةً لتجربة ثورية ومضالية، وهي في الواقع لم تكن كذلك، وإنّما هي اعتراف بوضع قائم كنّا نعيشه يوميًا ونحن أسرى داخل المعتقل، لم يكن في الرواية أيُّ خطاب انهماجيٍّ، بل كان فيها نقدٌ لحصيلة التجربة الماضية ومواجهة للوضع الحقيقي الذي توجد عليه كالكرد وكحركة سياسية.

لم تزدني هذه المصادرة المزوجة، فيما بعد، إلّا إيمانًا بالتصورات التي أدافع عنها، ولم يعد يهمني إنْ قبلها أو رفضها هذا الطرف أو ذاك. فبعد رواية كان وأخواتها كتبتُ رواية لليل العنقوان، وهي تعميقٌ للتأملات التي كنتُ قد بدأتُ بها في الرواية الأولى وإنْ في مجالٍ آخرٍ بعيدٍ عن المؤسسة السجنية. وتتناول الرواية الحديث عن شباب عشقته، وعن شباب افترضته لحباتي بلوضاعه وسلوكاته وأهوائه ونزواته لقد عدتُ إلى الموضوع نفسه، إذن، ولكنّ بصيغ مختلفة تحكّم فيها - على الأرجح - التطوّر الذي انضاف إلى تجريبي مع الوقت.

عبد القادر الشاوي

كاتب ومناضل سياسي عاش تجربة الاعتقال السياسي خمس عشرة سنة



## رقابة الصورة

مصطفى المسناوي

### الرقيب والمخرج والمشاهد

تأسست الرقابة على الأفلام السينمائية بالمغرب في فترة الحماية الفرنسية، وعملت داخل «مصلحة السينما التابعة مباشرة للقسم السياسي» داخل إدارة «الإقامة العامة». وبعد حصول المغرب على استقلاله انتقلت هذه المهمة إلى المركز السينمائي المغربي، الذي صار يتعين عليه تقرير صلاحية أو عدم صلاحية الأفلام للمعرض داخل القاعات السينمائية المغربية.

وعموماً صار يتعين، منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي، الحصول على تأشيرتين قبل توزيع أي فيلم أجنبي بالمغرب: تأشيرة الاستيراد، وتأشيرة الرقابة. التأشيرة الأولى تمكن من إدخال الفيلم إلى البلاد عن طريق الجمارك؛ والثانية تمكن من عرضه في القاعات.

يقوم بمهمة الرقابة داخل المركز السينمائي لجنة تتشكل، نظرياً، من مدير المركز السينمائي المغربي وممثلين عن قطاعات مختلفة من بينها: الديوان الملكي، والتشريعات للأكية، ووزارة الاتصال، ووزارة الداخلية، ووزارة التربية الوطنية، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ومن مهام هذه اللجنة مشاهدة الأفلام الأجنبية والوطنية قبل إصدار قرار بعرضها، أو بمنعها، أو بعرضها مع بعض الحذوفات؛ إضافة إلى تحديد الفئة العمرية المناسبة لمشاهدتها.

وقد شهدت هذه اللجنة، على مستوى أدائها الوظيفي، مجموعة تغيرات في أنماط العلاقة مع المادة المشاهدة، وفي طبيعة القرارات الصادرة عنها، وذلك استجابة مع تغير الصلاحيات والرؤى لدى الرقيب والمشاهد معاً. وتُحَظَر ذلك بصورة خاصة بعد الانفتاح الذي عرفه مجال المشاهدة، مع ظهور الفيديو في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، ثم مع بزوغ عصر البث التلفزيوني الفضائي المباشر ابتداءً من أوائل التسعينيات.



المركز السينمائي المغربي، مكتب الرقابة

لكن هذا الانفتاح الذي عرفه الرقيب همّ، بالخصوص، جانباً واحداً فقط من الجوانب الثلاثة التي يركز عليها اهتمامه، ألا وهي الجنس والسياسة والدين. فقد صار أكثر تساهلاً مع اللغات والمبادئ الجنسية التي تتضمنها الأفلام الأجنبية، شريطة ألا تتضمن لقطات مقرّبة للأعضاء التناسلية أو تصويراً مفضوحاً للاتصال الجنسي... علماً أنّ الرقيب كان أكثر تساهلاً في تعامله مع الحوارات الجنسية داخل الأفلام الأجنبية، على أساس أنّ هذه منطقة بالفرنسية التي لا يُلَاحَظ فيها سوى نخبة محدودة من المشاهدين.

للثير هنا أنّ هذا التساهل من طرف الرقيب تجاه الأفلام الأجنبية، صاحبة - في المقابل - تشدّد كبير إزاء بعض مشاهد العري أو الجنس، المحتشم، في أفلام مغربية. بل إنّه كان من المستبعد تماماً، حتى حدود مطلع تسعينيات القرن الماضي، مشاهدة قُبُل في الأفلام المغربية. وذلك بسبب الرقابة الذاتية التي يقوم بها المخرج نفسه احتراماً منه لقيم المحافظة في مجتمعه (وهي الطائفة) أكثر ممّا هو بسبب حضور الرقيب. وانتكس، في هذا السياق، حكاية طريفة حصلت للمخرج مصطفى الدرقاوي أثناء إعداد فيلمه «عنوان مؤقت» للعرض في منتصف الثمانينيات. فقد طلبت منه الرقابة حذف لقطة لامرأة عارية، من منطقة من ظهرها، وهي جالسة على ركبتَيْها - وهي لقطة تدوم ثواني محدودة فحسب. لكنّ للخروج رفض ذلك. غير أنّه «احتراماً» منه للرقابة والجمهور المشاهدين، كان يُعْمَد مع الفيلم، أثناء عرضه، أحد مساعدي لكي يقوم بوضع قطعة من الورق المقوّى أمام عدسة آلة العرض في لحظة بثّ اللقطة الممنوعة ليتمّ حجّبه عن المشاهدين!

إنّ المتفجع المغربي غير متعود على مشاهدة نفسه (المغربية) على شاشة السينما. وفي حين لا يجد أدنى غضاضة في مشاهدة صور الآخر «العارية»، بل وفي أقصى درجات عريها، نراه يُرفض كلّ الرفض مشاهدة عريه الخاص ولعلّ من مشاكل الرقابة الحالية على الأفلام في المغرب أنّ نزعة المحافظة لدى عموم المشاهدين يصاحبها نوع من التحصّن لدى السينمائيين المغاربة، الذين صاروا أكثر ميلاً إلى تضمين أفلامهم لقطات أو مشاهد جنسية. ومن أمثلة ذلك: عبد القادر لقطع، ومصطفى الدرقاوي، وحكيم توري، وببيل عيوش. وهذا الأخير يبدو أنّه تجاوز كلّ الحدود في فيلمه الأخير «لحظة ظلام»، الأمر الذي حدا بالجنة المختصة لهرجان مراكش السينمائي الدولي في دورته الثانية في أيلول ٢٠٠٢ إلى رفض عرض الفيلم ما لم يُزَلَّ منه صاحبه ثلاثة مشاهد بدا أنّها مستفزّة لأعضاء اللجنة قبل الجمهور الذي تفجّعت من ردّ فعله.

ينفي الاعتراف هنا، بأن «جرأة» بعض المخرجين المغاربة في هذا المجال لم تصاحبها جرأة مماثلة في مجال السياسة مثلاً، رغم جوّ الانفتاح الديموقراطي الذي يعرفه المغرب في الوقت الحالي، ورغم فتح العديد من ملفات الماضي القريب (الاختطاف، التعذيب، الاعتقال السياسي...)، بهذا المعنى، فإنّ السينمائي المغربي على الصعيد السياسي كان أكثر جرأة في سنوات القمع (السبعينيات والثمانينيات) منه في سنوات الانفتاح السياسي الآن. هذا الأمر هو الذي جعل الرقابة تُنَمِّع مجموعة من الأفلام مثل «الشركي» (١٩٧٥) لمومن السميحي، و«أحداث بلا دلائل» (١٩٧٤) لمصطفى الدرقاوي، و«حرب البترول لن تقع» (١٩٧٤) لسبيل بيزركة (قبل أن تسمح بعرضه في أواخر الثمانينيات) كما جعلها تُستعمل المقص ضد أفلام أخرى مثل «عنوان مؤقت» (١٩٨٤) لمصطفى الدرقاوي، و«اليام الياء» (١٩٧٨) لأحمد المغنوني، و«باب السماء مفتوح» (١٩٨٧) لفريدة بليزويد، وسيكون من المهمّ مشاهدة أفلام الميمينيّات والثمانينيات في الوقت الحالي للوقوف بالموس على هذه المفارقة.

### السينما المغربية والرقابة الاقتصادية

إذا كان اللغز يشكّله الفنّ قد توارى إلى الخلف ابتداءً من تسعينيات القرن الماضي، فإنّ السينما المغربية تعاني اليوم منغنا آخر تُكرّضه شروط وسياسات تداول الفيلم المغربي. فنحن في المغرب لا نملك تقاليد سينمائية عريقة كذلك المتوفرة في مصر مثلاً، حيث تعود الإنسان المصري مشاهدة أفلام محلية كثيرة،



دياب السماء مفتوح، لفريدة بايرود (١٩٧٧). عرض للمصنّ



أحداث بلا دلائل، مصطفى الدرقاوي (١٩٧٤). تصوير

فامتلك بذلك عادة التردد على قاعة العرض السينمائية لمشاهدة فيلم مصري. لقد اعتاد المشاهد المغربي استهلاك الفيلم الأجنبي (الأمريكي، الهندي) فأطَّر هذا الفيلم نوعه، وشكّل مرجعيته البصرية في ما يتعلق بالإنتاج السينمائي، ونقعه دفنًا إلى الاحتكام إلى معايير محددة من أجل مشاهدة فيلم سينمائي ما. وقد تَمَّ ذلك في غياب ترسيخ تقاليد داخل المجتمع المغربي لتلقّي الفيلم المغربي والاحتفاء به كإنتاج وطني يستلزم دعم الجمهور المحلي له فُصِّل تطوير أدائه النوعي من جهة، ومن أجل تحقيق عوائد مالية تُثَغِّع بونيرة الإنتاج السينمائي الوطني من جهة ثانية.

مع هذه الوضعية نشأت رقابة أشدّ وطأة من رقابة الجهات الرسمية، وهي ما يُمكن الاصطلاح عليه باسم «الرقابة الاقتصادية»، أي تلك التي يمارسها المؤرّعون وأرباب قاعات العرض إزاء الفيلم المغربي. وساهم هذا النوع من الرقابة في الحد من فعالية دورة الإنتاج السينمائي، ذلك لأنّ المنتج أو المُخرَج الذي يُحسّر في فيلم ما قد لا يكتسب تجربة الإنتاج ثانية - وهذا في حدّ ذاته منع غير مباشر. فقد يُنكر أن نجد فيلمًا مغربيًا تجاوزت مدة عرضه الأول أسبوعًا واحدًا. ولنا في الفيلم الأخير «عشاق مأكادور» الحُجّة والبيّنة، إذ لم يُعْمَل هذا الفيلم أسبوعه الأول من العرض في قاعات السينما. بل إنّ فيلم «عود الريح» للمخرج داوود ولد السيد، الذي اشتهر في المهرجانات الدولية، لم يُدَّم عرضه التجاريّ الأول أكثر من أسبوع واحد!

إضافة إلى ما سبقَ بسطه من مظاهر الرقابة على الصورة في المغرب، لا بدّ من الإشارة إلى رقابة «صندوق الدعم» فعدم وجود شركات إنتاج خاصة يُجَعِّل المُخرَجين يلجأون إلى القطاع العامّ ممثّلًا في «صندوق الدعم» الذي يغطي مبلغًا مهمًا قد يصل إلى ٧٠ في المائة من تكلفة الإنتاج. ولحرص المُخرَج على الفوز بالدعم، فجنده يفتار - بوجه عام - موضوعات ومعالجات لا تثير، في اعتقاده، حفيظة الرقيب بمختلف أشكاله ودرجاته.

### رقابة النقد السينمائي

ظهورت في السنوات الأخيرة كتابات تُدعى الاهتمام بالسينما. وأغلب أصحاب هذه الكتابات يتعاملون مع الفيلم كمنتج أخلاقي، لا كعمل إبداعي ذي فريدة متميزة وخصوصية محددة. ولغز، كيف تعامل هذا النوع من النقد «الأخلاقي» مع الفيلم الأخير للمخرج مصطفى الدرقاوي، «غراميات الحاج مختار الصولدي». فقد واجهه بنقار شديد، إذ ركّز على الجوانب «الأخلاقية والدينية» على اعتبار أنّ الفيلم سُخِّلَ بالحياة العامة ويتنصّر لمطوفاظر سينمائية مزعجة للأن، ومكسرة للأعراف الاجتماعية القائمة على المحافظة، وتعرض على التلفك الأسري. وهذا النوع من «الكتابات النقدية» يكاد يخلو من أية ملامح للتحليل الجماليّ أو التقنيّ للفيلم.

ومن مظاهر نمّ هذا النوع من النقد الأخلاقيّ، الذي يمثل رقابة أخلاقية، مشاركة الفقهاء في الكتابة النقدية السينمائية، كما حصل في كتاب صورة المرأة في السينما المغربية الذي هو في الحقيقة نقد أخلاقيّ لتبرج المرأة في السينما المغربية ومخالفتها للرجال وإظهار «مفاتها قصّة الإثارة والإغراء» «أراجع الفقرة ٧ من «جريدة» عبد الحق لبيض المنشورة هنا - (الآداب) وهكذا أصبح بعض «النقاد» واعتمادًا على المرجعية الدينية، يُعتبرون أنفسهم أصحاب حقّ في التعبد عن آرائهم في السينما، فراحوا يضعون أسسًا للنقد الأخلاقيّ في مجال السينما. وهذا النقد لا يكتفي بالحيثيات ومراتبة الفيلم المغربي، ولأما صار يصبّ انتقاداته في اتجاه الفيلم الأجنبي الذي يتضمنّ مشاهد «منحلة وخبيثة»، ويحتجّ على مصفقات الأفلام المعروضة في الشوارع.

### مصطفى المسناوي

قاص وباحث سينمائي بارز. له العديد من المؤلفات والأبحاث في مجال السينما. آخرها كتابه أبحاث في السينما المغربية

(٢٠٠٨)



## السينما المغربية شهادة على تجربة المصادرة

عبد القادر لفظع

### الرقابة بين السلطة والفوضى

يُخضع الحقل السينمائي في المغرب لما يسمى بالرقابة البقيّة، إذ لم نسجّل طيلة عهود من تاريخ السينما المغربية ممارسةً قُبليّةً للرقابة على الإنتاج الفيلمي. ويبدو للعديد من المنتجين أنّ «صندوق الدعم»، الذي يساهم في دعم إنتاج الأفلام المغربية، يقرم بذوق من الرقابة القُبليّة من خلال اشتراطه مجموعةً من مقاييس يتمّ على أساسها منح الفيلم الدعم. غير أنّ هذا الصندوق، في واقع الحال، وعبر لجنة القراءة، يفضّل بتقديم تقويم ماليّ للعمل يُستند إلى دراسة المفتوح الفني كمشروع فليمي، وعلى تحليل جوانبه الجمالية والمالية، ولا يُصدر أيّ نوع من الرقابة عليه.

تُشرع لجنة الرقابة السينمائية في عملها، إنّ، بعد إنتاج الفيلم، ولكنّ قبل مرحلة التسويق العام، وتتسكّل، وفق قانون يعود إلى بداية الاستقلال، من رئيس هو مدير المركز السينمائي المغربي وممثلين عن وزارات الثقافة والاتصال والشبيبة والرياضة والداخلية. واللافت للانتباه أنّ أعضاء هذه اللجنة غير معروفين بأسمائهم وبكفائاتهم، ويبدو أنّ لا علاقة لهم بالإنتاج الثقافي والفني، فهم مجرد موظّفين صغار في وزاراتهم. لذلك يبدو التساؤل عن صلاحية هؤلاء للنظر في طبيعة العمل الفني السينمائي ذي الخصائص المعقّدة والدقيقة، والاستفسار عن مشروعية القرارات التي تُخرّج بها هذه اللجنة، من أولويات المشهد السينمائي والثقافي عامةً في المغرب.

يتربّط من هذا الوضع استصدار لجنة الرقابة قراراتها في المنع والمصادرة لا تُستند إلى مقاييس علمية مضبوطة ومتعارف عليها. وفي الغالب الأمر تتشبّه لجنة الرقابة في عملها الرقابي بمعاييرين: معيار سياسي أمني يُفسّر أسباب التخوف من الأشياء التي يُمكن أن تُؤثّر سياسيًا ضدّ الحكم والنظام؛ ومعيار اجتماعي أخلاقي يُفترض وجود ضوابط أخلاقية اجتماعية لا بدّ من حمايتها للحفاظ على «انسجام مجتمعي» مرسوم سنّاً في نهاية الرقيب وفق ميكانيزمات تُراعى على التحكم الحديديّ في صيرورة الاجتماع وبنيتهم.

إنّ الشكل الذي تمارس به الرقابة في المغرب اليوم يعود، في نظري، إلى منظور سلطوي استبداديّ مُؤسس طيلة عقود من تاريخ المغرب المعاصر، وبالتحديد مغرب ما بعد الاستقلال، فالتّجسّد نوعاً من الممارسة الفاشستية للسلطة من خلال إقصاء تامّ للمحتدات للقانونية والمسوغات الديمقراطية التي تصوّر حريّة الفرد وحقوقه للحياة. وقد أدّ الأوان لتقصية الحساب مع هذه الممارسة البدائية، وفُتح آفاق جديدة للحركة الثقافية المغربية تُستند إلى مبادئ للحريات العامة والديمقراطية وحقّ الاختلاف. إنّنا في المغرب محتاجون إلى نوع من التعاقد وفق مقاييس محدّدة للاعتراف بها من طرف الجميع، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأميركية، حيث يوجد ما يُسمى بعقد «كروهايس» الذي يقوم على مقاييس ومعايير



عبد القادر لفظع: تمرّكس الرقابة ثلاث مرات في مسرحية الإعراب

معروفة، فالقُبلة مثلاً لا يُمكن أن تزيد عن كذا ثانية، وتصويرُ الإجهاض محرّم، والعلاقاتُ الجنسيةُ بين الرجل والمرأة مقننة بطريقة محدّدة، إلى غيرِها من الضوابط والمقاييس التي يتواءم عليها الجميعُ. وعندما تُمارَس الرقابةُ على فيلمٍ ما هناك، فإنَّ التعليقات تأتي أنسبَ للمتعارف عليه من المحدّدات والضوابط في التعاقد المجتمعي في الغرب.

في غياب الثقافة المنشودة تبقى الرقابة السينمائية، وغيرها من أنماط الرقابة التي تمارَس على أشكال إبداعية أخرى، أسيرة القرارات الغامضة والتهمة والخبرة للكثير من ردود الفعل السلبية من لدن المشتغلين بالحقل الثقافي، ومحكومةً بمنظور استبدادي وتجرّلي أسوأ صور هذا المنظور في أنَّ قرارات اللجنة بالمنع أو للصادرة لا تأخذ بمبدأ التصويت وينسبُ الأغلبية والأقلية، وإنَّما يحقُّ لأيِّ عضو من أعضاء هذه اللجنة أن يمارس سلطته في منع الفيلم أو حذف مشاهد منه، وليوجد الأعضاء الآخرون أنفسهم خاضعين لهذا القرار!

### تجربتي مع الرقابة

تعرّضتُ للرقابة والمصادرة ثلاث مرّات في مسيرتي الإبداعية كمخرج سينمائي. كانت المرة الأولى سنة ١٩٧٦ عندما أخرجتُ فيلمًا تسجيليًا قصيرًا، بهم وإنتاج من المركز السينمائي المغربي. يحكي الفيلم قصّة الأطفال المرحّلين ذهنيًا. وبعد أن عرضته على مدير المركز السينمائي قبل إتمام المونتاج، كان رايه أن بعض المشاهد في الفيلم غير مقبولة اجتماعيًا، ذلك لأنَّ الأطفال الذي صوّفهم كانوا يسكنون «المدن السفلى»، «مدن الصفيح»، واعتُبر أنَّ من غير الممكن اختراق هذا الفضاء المهشّ والمحرّم بالصورة، ولا عرضه على الجمهور، لأنَّ ذلك -بمباشرة- من المحرّمات التي لا يُمكن الاقتراب منها. وأضاف السيّد المدير تحليلًا آخر إلى تحليله السابق، فاعتبر أنَّ هذا الواقع الاجتماعي المحرّم يمثّل شريحة مجتمعية بدون مستقبل، وأنَّ الدولة ليس مستعدةً لأن تستثمر أموالها في واقع لا مستقبل له ولا مردودية تُرجى منه. فكانت النتيجة أن مُنعتُ من إتمام إنتاج مشاهد الفيلم، وقيل أن أنتهي ممّا يسمّى في لغة السينما بـ *post-production*.

المرة الثانية التي تعرّضتُ فيها أعمالي للرقابة كانت سنة ١٩٩٥، حين قمتُ بإخراج فيلمٍ إظهارية عن المهرجان الوطني للسينما بطنجة، بتكليف من إدارة المهرجان. غير أنَّ لقناة التلفزيون المغربية الأولى كانت قد منعتهُ من العرض لأسباب أخلاقية سياسية. وقد أخذ قرأَ للنخ مدير مؤسسة التلفزة السابق السيّد محمد الإيساري وحُصِّلَ ونُكِّثَ بعد ذلك وزارة الاتصال. في هذا الفيلم قمتُ بإنتاج ما يسمّى بـ *micro-trottoir* لتقديم المهرجان، فالتجأتُ إلى استجواب مجموعة من النماذج اعتمادًا على سؤال مركّز: كيف تصوِّرون السينما المغربية في المستقبل؟ وقد تضمّن العديد من الأجوبة بعض المواقف الهزلية والتهكمية، الأمر الذي أثار حفيظة الرقيب واعتبره سلوكًا منحرفًا يستوجب الإقصاء والمصادرة. من هذه المواقف الساخرة أذكر أن سُتجوبتُ عُثُر عن رايه قائلاً: «اتمنى أن أشاهد فيلمًا مغربيًا يصوّر الواقع بكلِّ حذافيره، وأن تنجّر أفلامٌ عن بن بركة». ثم يستطرد مبيّنًا ومُضغًا: «.. أعني المناضل المهدي بن بركة، لا مدير المركز السينمائي المغربي

سهيل بن بركة» كما قال إنّه يطمئن أن يشاهد فيلمًا عن البصري، قبل أن يُوضح: «... الفقيه البصري بطبيعة الحال، لا إدريس البصري وزيرنا في الداخلية» مستجوبًا آخر يجيب عن السؤال، ويخلفه مصلحٌ إعلاني لفيلم أميركيّ بطله نسي مرس، فيقول: «اتمنى أن تكون لنا أفلامٌ بطلانها في مثل جمال نسي مرس، أو مارلين مونرو، أو بيبي [يعني بريجيت بارولا]» معتمدًا أثناء حديثه على تشكيل قوام الجسد الأنثوي بنوع من الإجراءات الجنسية التي تركز على خصر البطلة السينمائية المغربية المنشودة ومُحرّثها. واستجوبتُ كذلك امرأة بوجواز في منزلها وهي تكتفّ للسيجارة وتقول في سخرية: «السينما الحقيقية هي تلك التي تُضْحَكنا على سياسيينا وعلى وزيراننا وكذلك على تلفرتنا». ثم قمتُ باستجواب فقيهٍ ملتج فبادرتني قائلاً: «السينما بئمة، وفي الحديث: كلُّ بئمة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار».



سهيل بن بركة، مدير المركز السينمائي المغربي المسؤول عن الرقابة، ويُخرّج في الوقت نفسه

لقد اعتبر الرقيب هذه العينة من الإجابات غير لائقة لأنها تتضمن مواقف ساخرة وإيحاءات جنسية، متناسياً - أو غير مدبر - أن الفيلم، وإن كان يحتوي مواقف ساخرة، إلا أنه كان يقدم مواقف الناس من السينما الغربية وبين مستويات تفكير الناس فيها. وتوضّح لي من خلال هذه التجربة أنّ مسؤوليتنا ليست لهم القدرة الكافية على رؤية الواقع مغير ذلك للظن التجميعي للفروض على كلّ من يحاول الاقتراب من واقع الناس لم يُحتمل الرقيب، إنز، رؤية الذات الغربية في حقيقتها وفي استيهاماتها، وكأنّ أية محاولة من أجل ذلك ستكون كافية لإحداث ثور في الفرد والمائلة والمجتمع.

إنّ الرقيب الاستبدادي يتصّب نفسه وصيّا على المجتمع، بناءً على مجموعة من التصوّرات المجتمعية التي تكوّنت من قناعات الشخصية للكلمة بالهاجس الأمني والخوف من الحقيقة، إن رقيباً تخاف مجتمعتها، لذلك فهي تسعى إلى إخفاء كلّ ما من شأنه أن يخلخل توازنه المفترض وهي تتناسى أنّ الرقابة المتخضّرة التي التي تقدم على تبوير الاختلاف وإشاعة روح الديمقراطية البيئية على التعاقد والتوافق المجتمعي، بدل تكريس السلطة الفرعية التي تُفرض وصايتها على كلّ كبيرة وصغيرة في المجتمع وتُخرمه من أن يمارس رشدّه وكمايته في اتخاذ القرار.

في سنة ١٩٩٩ تعرّضت أعمال السينمائية لمص الرقيب للمرة الثالثة، فقد واجه فيلمي «الباب المسدود» لجنة الرقابة بالعديد من المشاكل، فاضطرت إلى مشاهدته أكثر من خمسين مرة بسبب نوعيته المعقّدة التركيبية ولم تقتصر اللجنة على ذلك، وإنما قامت بعرض الفيلم على جهات أخرى حتى تتأكد من مخرسة رقيبته بشكل أكثر دقة وحذراً. ذلك أنّ أعضاء لجنة الرقابة أجسّوا أنّهم إزاء عمل فنيّ يتطلّب أكثر من مستوى واحد من الرقابة، فالمشاهد التي يجب أن يَخترقها القصر كثيرة ومتراصة، وينبغي من ثمّ تبين رؤية «المجتمع» وعدم الاكتفاء برؤيته الخاصة.

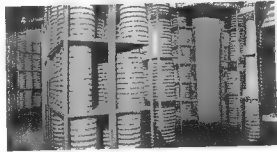
كنت أظن أنّ تجريبي الجديدة في فيلم «الباب المسدود» ستثير كلّ هذا الجدل، وستكون كذلك باباً مسدوداً أمام وجه الرقابة نفسها، فالفيلم يؤسّس خطاباً على مشاهد علاقة البطل المشبوهة بزوجة أبيه، وهي مشاهد موزّعة على مساحة الفيلم كلّ وتُخل في علاقة تركيبية ودلالية مع مشاهد أخرى موازية، كمشهد شخصية معلّم بإحدى المدارس الحكومية يعاين شذوذاً جنسياً ويُخل في علاقة مشبوهة مع الأطفال إضافة إلى مشهد فتيات يهود عارية ..

لم يجد الرقيب نفسه أمام لفظة أو لفظتين «مشبوهتين» فحسب، وإنما أمام تيمة متكاملة تتأسس على مشاهد كلّها أو أغلبها «مشبوه» ويمسّ «الأخلاقية للمجتمعية» حسب ذهنية الرقيب وتفكيره، فاضطرّ في الأخير إلى حذف العديد من المشاهد: مشهد التمس، مشهد البطل العاري، مشهد علاقة المعلّم بالاطفال الذين يدرّسهم، مشهد النهود العارية. وما حاجتي أن تُلمّ الرقابة على حذف مشهور سطر في الحانة؛ فمثل هذا سبق أن أدرج في العديد من الأفلام الغربية من دون تدخل من الرقابة، وهو ما يبيّن درجة الارتباك التي تنتاب مزاجية الرقيب من مرحلة إلى أخرى ومن الطبيعي أن يؤثّر حذف هذه المشاهد الرئيسية في مقرونية الحكاية التخيلية: ذلك لأنّ المفترج إذا لم يُعرف العديد من الجوانب في حياة الأبطال، ولا المعاناة التي يعيشونها وتقوم هذه المشاهد بالتفصيل فيها، فإنّه لن يُثّر عنّي للتصرّفات الشخصية التي تتربّع عن هذه الأحداث.

اعتبرت هذا الإجراء الرقابي بمثابة مصادرة كلية للفيلم. كما اعتبر أنّ المشاهد السينمائية غير المشاهد التلفزيونية فالأول يختار الأفلام التي يفتنّ من أجل رؤيتها ويؤتي بدلاً ما يديّ مقابل اختياره، فسلوكه إنّه إرادي وليس فيه أيّ إكراه، ومن حقه أن يرى الفيلم بكلّ تفاصيله، وبناءً عليه، كأنّ يكون

اللجوء إلى حلول أخرى مُورست بشكل عاديّ في الدول الغربية، كأنّ يُستلر الفيلم الذي يتضمّن مشاهد جنسية على الأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن حدّ معيّن، وعندما يُعرض على شاشة التلفزيون تمارس عليه رقابة زمنية فيُعرض في ساعة متأخّرة في الليل، يترك عرضه في ساعات البثّ التي تُعرف إقبالاً جماهيرياً مكثّفاً.

لكن الرقابة التي تعرّضت لها لم تكن رقابة مؤسسية فحسب، وإنما مُورست على أفلامي رقابة اجتماعية أيضاً. فجريدة النشرة كانت قد أصدرت مقالاً يطالب فيه صاحبها بمنع الفيلم كلّ حجّة أنّه أساء لسمعة رجل التعليم والصورة التعليم في المغرب. كما تعرّض هذا الفيلم



الطابق من الأفلام في المركز السينمائي المغربي



لرقابة أَقَدَمَ عليها أصحابُ قاعات العرض السينمائية: فمجموعةٌ من هؤلاء رَقَصُوا عرضَ الفيلم في قاعاتهم لأنَّ الفيلم قد يستفزُّ جمهورهم العائلي الذي كَوْنُهُ بجهنم كبير ولا يُمكنهم أن يَفْرطوا فيه، فاضطرت - باتفاقٍ مع الموزَع - إلى عرض الفيلم في قاعات سينمائية «شعبية». والجمال أنَّ رقابة أصحاب صالات العرض السينمائية قد تكون في كثير من الأحوال أقوى من أية رقابة مؤسسية.

وما يزال فيلم «الباب المسدود» يواجهُ بالمتع من طرف التفرقة المغربية. وأذكر أنَّ القناة الأولى نظمت منذ سنوات ندوةً حول السينما المغربية. وانشاء الحوار مثلاً مدير الندوة، وهو صحفي بالقناة، للأفلام التي لا يُمكن أن يُقدم التفرقة المغربية على عرضها بفيلم «الباب المسدود». وما يُؤسف له أكثرُ هو أنَّ هذا الكلام قيل في حضرة مُخرجين وناقدين سينمائيين دون أن يُصنر عنهم أي تعقيب!

في الوقت الذي كان فيه فيلم «الباب المسدود» محاصراً من لدن الرقابة، تمَّ توزيعُ فيلم آخر لي اسمه «بيضاوة». وقد ارتأت مزاجية الرقيب، في اعتقادي، ألا تمنع من جديد فيلماً آخر للخرُج نفسه. ولذلك لم يُخضع «بيضاوة» لمقنن الرقيب، ولم يُحذف منه مشهد واحد. غير أنَّ مَنْ قام بدور الرقيب هذه المرة هم أصحاب القاعات الذين رَقَصُوا عرضَ الفيلم دون حذفِ بعض الكلمات «الشينة». وبالفعل اضطرونا إلى حذف هذه الكلمات تحت ضغط صاحب القاعة السينمائية

### رقابات أخرى

أما شطط سُلط الرقيب، وعنف «الرقابة المجتمعية» ورقابة صاحب صالة العرض السينمائية، كثيراً ما تلجأ إلى نوع من الرقابة الذاتية. وهذه الرقابة تنطلق من المعرفة بالواقع الاجتماعي والسياسي، وتكون مشبعةً بأخلاقيات عامة يحكم توازن العلاقات الاجتماعية، ومن المعرفة بالنظم الأخلاقية لمجتمعنا التي تحدد حيزَ الحرية الذي يجب التعامل في إطاره. بأعتقد أنَّ هذه الممارسة مخالفاً لروح الإبداع ولجوهر العمل الفني فوظيفة المبدع ليست المحافظة على الحيز المأثور، وإنما العمل على توسيع حدوده وهذا بالفعل ما قصدت إلى المخاطرة فيه في جُل أفلامي التي أختيرتها تحدياً لسلطة الرقيب، وتجارباً لخطوطه وحدوده، وانتهاكاً لـ «مقدساته». إنَّها مجازفة، والإبداع عندي مقامرة. وبدون المجازفة واللامعة يُبطل أن يكون إبداع.

إنَّ وضع الرقيب أمام مسؤوليته وأمام الواقع الذي يُهرب منه هو هدفُ إنتاجي السينمائي. كما أنَّ هدفي هو أيضاً الدفاع عن حقِّ المشاهد في رؤية الأفلام كاملةً غيرَ متوترةٍ مادام هو أحد الموكنين للإنتاج السينمائي المغربي من خلال ٥٠٪ من ثمن البطاقة التي يكتنيها لمشاهدة الفيلم والتي تعود إلى خزينة صندوق الدعم السينمائي.

إنَّ روح الرقابة تُشعل في المجتمعات التي تُفتقر إلى المشروع المجتمعي المتكامل وتخاف على «سلامة النسيج الاجتماعي» من التفكير... وكأنَّ مشهداً يصور الهامش والمُهمشي والمحرم يُمكنه أن يُقلب كلَّ معادلات ذلك النسيج ويفكِّك أصوله ويعجزُ انسجاماً!

إنَّ للمشروع المجتمعي هو الذي سيدعم عملية استئطاف الهامش والمحرم، لأنَّ هذه الأخيرة ستبني مشروعاً مادامت ستساعد على تسلط الضوء على الجوانب المغمَّية في الحياة والمجتمع. وإذا كنَّا نعتبر أنفسنا مجتمعاً يقيم مشرقة وتطلعات موحدة، فلماذا يضيفنا هذا الهامش إذا أُنشئ الاقتراب منه وتعرُّفه إلى إعطاء ديناميكية مجتمعية جديدة؟ إنَّي أظنُّ أنَّ التخوف الذي ينتاب لجنة الرقابة من العمل الإبداعي صادرٌ عن الهشاشة التي يصحبها الرقيب تجاه مجتمع بدون مشروع يُلهم أجزاءه ومكوناته. وفي غياب ذلك المشروع الحضاري الكبير الذي ينظم مساهمة المواطن داخل مجتمعه، تلجأ السلطة إلى التعليقات الحكومية بالهامش الأمني والهامش الأخلاقي، في غياب قدرة المؤسسات على احتضان آمال المجتمع والدفاع عنها وعلى بحث حوار حول بعض المواقف التي تُصنرها لجأُ الرقابة. واجدني افكر في دور مؤسسة الأمة في هذا الصدد؟ وما هو دور البرلمان في حماية تطلعات الشعب - والإبداع أحد هذه التطلعات؟



«بيضاوة» لم يُسمح لأنَّ الفيلم آخر للخرُج نفسه من أي قاعة رقابة!

أذكر أنه في تجربة المنع التي طالت مشاهد عريضة من فيلم «الباب المسدود» كنت قد راسلت الوزير الأول ووزير الاتصال، إنضممتما التدخل لرفع الحيف غير أنه لم يحصل أي تدخل. ونهضت ساعتها أن ويزانا ليسوا على استعداد لتحمل المسؤولية؛ فهم يخافون أن يُثير تدخلهم لصالح عرض الفيلم قلاقل من جهات إعلامية أو حزبية أو من نشطاء إسلاميين، فيترقب عن ذلك مشاكل قد تهدك وضغهم على قمة هرم السلطة.

#### خاتمة: وهم التماثل

في نهاية هذه الشهادة أود أن أشير إلى أن الرقابة أثرت بشكل بليغ في الحقل التداولي لأفلامي، وأثرت - من ثم - في المردود المالي لهذه الأفلام فالمتفرج المغربي محكوم هو كذلك برهبة الرقابة الداخلية حين يواجه بقضايا المسكوت عنه والمنوع، فيطلب بدوره حداً أدنى يُرضى تجاوزه وحتى لو كان يُعتبر السينما مرآة للمجتمع، فإنه يُرضى جزءاً من هذه المرآة التي قد تخلخل توازنه الأخلاقي والمجتمعي الموروث ففي ملتقى سينمائي في فاس مؤخراً للتحقيق شبيثاً يطالبوني بإيراد النكّل الإيجابي في أفلامي دون النكّل السلبي. هؤلاء الشبان لم يكونوا قادرين على رؤية صادمة لشخصية معلم «شاذ جنسياً» وهم بذلك يُرضون هذا الآخر المختلف، بحكم سقوطهم في حُجْر الرأي العام، الذي غالباً ما لا تكون له تطلعات للتغيير. إنَّ فيلمًا كـ «الباب المسدود» وضَع، وبإصرار، الفرد أمام مسؤوليته في اتخاذ القرار أمام واقع مخرج مُعرّصه وضعية الفرد/الآخر في مجتمع محافظ كالمجتمع المغربي يتسمك بهم التجانس والتماثل. وهكذا فإن أزمة الرقابة المؤسساتية والرقابة المجتمعية والرقابة المهنية، قائمة في اعتبار المجتمع كلاً متجانساً وجسداً محمّلاً لا تعتريه الحركية ولا يفترقه الاختلاف.

عبد القادر لقطع

مخرج سينمائي مغربي



## حوار مع النائب عبد الصمد الحيكري: لهذا أردنا منع «لحظة ظلام» وأفلام أخرى!

أجراه: عبد الحق لبيص

ليبص: ما هي الخلفيات التي اعتمدها الفريق البرلماني لـ «حزب العدالة والتنمية» في دعوته إلى منع فيلم «لحظة ظلام» للمخرج نبيل عيوش، إلى جانب الأفلام الأخرى، منها «ويعد» للمخرج محمد إسماعيل؟

الحيكري: بسم الله الرحمن الرحيم. في البداية نؤكد أنّ السينما هي أداة من أدوات التأطير الجماعي. لذلك فإن لها أدواراً خطيرة في تشكيل التفسيرات وصياغة العقليات وترسيخ القناعات. وكما أنّ بإمكان السينما أن تقوم بأدوار إيجابية في اتجاه غرس قيم الخير والحق في المجتمع، فإنّها يُمكن أن تُطعم أغراضاً سلبية، الغاية منها تكريس قيم الشر والباطل. وبما أنّ الإنتاج السينمائي المغربي قد شهد في الفترة الأخيرة نموّاً مطرباً صار للمغرب بفضل حضور ثلاث في اللقطات السينمائية الدولية، فإنّ من المفترض نظرياً أن يُمكن هذا الإنتاج اهتمامات الشعب المغربي وخصوصياته ومقوماته الثقافية والحضارية، وأن يعرف بالبلاد، وبما تُؤخر به من ثروات ومقومات سياحية وغير ذلك. إلّا أنّ الملاحظ هو أنّ أغلب إنتاجنا السينمائي يات بنحو منحى التشبيه بالأفلام الأجنبية الخلية، وذلك من خلال تضمينه للكثير من المشاهد واللقطات الخلية، وكلّها المادة الرئيسية للفيلم ولا يستقيم إنتاج بدونها. ويُمكننا أن نُذكر، مثلاً، فيلم «بيضاوة لعبد القادر لقطع، حيث ممارسة الجنس واضعاً ومكتشفة بين مثليين مغربيين مسلمين» وفيلم «ويعد» لصاحبه محمد إسماعيل» ودرجة أقلّ، فيلم «عشاق مكدور» لمسهل بن بركة. ويبقى فيلم «لحظة ظلام» أبشع من غيره لأنّ مخرجه لم يكتف بإدراج مشاهد مكشوفة لممارسة الجنس بين رجل وامرأة عاريين بالكامل، وأنما جاء كي يصف ويكشف عن ممارسة الجنس/الفاحشة بين الرجل والرجل، في محاولة للتطبيع مع الشذوذ الجنسي واعتباره ممارسة عادية.



عبد الصمد الحيكري: نقيب إنتاجنا السينمائي... لخط

إنّ حديثنا عن فيلم «لحظة ظلام» هو تعبير، أولاً، عن استنكارنا لمشاهد الخلاعة في الإنتاج السينمائي المغربي ضدّا على هوية الشعب المغربيّ لاسلم وثقافته وتقاليده. وثانياً، إنّ هذا الفيلم، وبشبه إجماع النقاد السينمائيين مغاربة وعرباً، رديء فنياً، ويمثّل سقطة فنية وجمالية في الإبداع السينمائي للمغربي، ولا أدل على ذلك من قرار لجنة التحكيم في مهرجان القاهرة الأخير استبعادته من ترشيحات أفضل فيلم عربيّ رغم مشاركته في المسابقة الرسمية للمهرجان؛ كما امتنعت لجنة الدعم الأولى عن منحه الدعم الماليّ الذي يقمّه المركز السينمائي المغربي، وإنّ حصل عليه في السنة الموالية بعد تغيير الأعضاء السابقين. ولا ندري بأيّ منطق يُسمح لثل هذا الفيلم الساقط أن تُصرف عليه أموالٌ مفرّدة ومحتاج يعماني كثيراً من اللبس الاجتماعيّة،

خصوصاً إذا علمنا أنَّ الفيلم سبق أن استُخدِمَ بنسبة ٨٠٪ من كلفته الإجمالية من القناة الفرنسية - الألمانية Arte ، وهو ما يُخرِجه قانونياً الاستفاضة من المال العام المغربي.

تلك هي الخلافات التي نَدْعُوها إلى مطالبة الجهات المسؤولة بعدم السماح بعرض الفيلم صوتاً لاختلافنا وهاويتنا، على حدِّها على استرجاع الدعم الذي استُخدِمَ منه مخرج الفيلم بالنسب والاحتياط وإضافةً إلى ذلك، طابقتنا بحسابة المسؤولين الذين منحوه الدعم. وأنا أقترُ أنه مادام قد حصل على هذا الدعم فإنَّ من ورائه جهات متنفذة لها مصلحة في إشاعة الفاحشة وتدمير الأخلاق

لبعض الإبداع صنو الحرية. وعندما نفقُر في الاتفاق اللامتناهي لإرادة الإنسان في الخلق، ونُغمد إلى إخضاعه لمقاسات الأخلاق والقيم المتواضعة عليها، فقد نجَّره من جوهره وتبدَّدَ ماهيته. إنَّ ما يحرِّك الإبداع هو حرية الخيال واتساع مدارات المخيّل ومزيمَةُ اللغة، باعتبارها الصانِغ الأوحد لتفاصيل المادة الإبداعية التي تنتلي فيها الصحوِّ بين المقدَّس والمُنس والحلال والحرام. فكيف تستقيم دعوتكم إلى تخليق الإبداع وإخضاعه لضوابط خارجة عنه؟

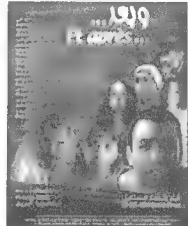
الحكيك. أولاً، إنَّ لكل إبداع أخلاقاً. فإِما حسنة، وإِما سيئة. ونحن نشترط أن تكون للإبداع أخلاقٌ حسنة ونقص الأخلاقُ منا بمعناها الشامل للنفس والفكر أخلاقُ الخير وأخلاقُ القوة، كبديل من أخلاقُ الشر.

ثانياً، في مجال الإبداع السينمائي العالمي، هناك تقنيَّة الرمز والإيحاء بدل الوصف المكشوف والمباشر، ويُحصرني هذا فيلم «الدار البيضاء» يا لدار البيضاء! للمخرجة فريدة بلزيف. هذا في الفيلم سَتَع المخرجة إلى معالجة العديد من القضايا الاجتماعية الواقعية، ومنها مسألة القتل المترتب عن الاغتصاب في حالة سَكْر الممَّه إنَّ جميع مَن شاهد الفيلم ذُهِمَ أنَّ هناك حالة اغتصاب وزني دون أن يرى ذلك المكشوف. لقد وصلت الرسالة بالإيحاء، وأثَّرت وغيَّفتها على أحسن حال. من هذا المنطلق فنحن عندما نتحدث عن السينما وعن الاتفاق اللامتناهي للإبداع السينمائي نجدنا نميِّز بين مبدلٍ في معالجة القضايا الواقعية للمجتمع المغربي، وطريقة عرضها ومعالجتها.

ثالثاً، يحدِّد الإبداع السياق الذي تُرُف فيه الظاهرة. فهناك السياق الإيجابي، المتمثل في التطرق إلى الظاهرة ومحاولة خلق صورة ذهنية لدى المتلقي تجعله يُلْتَمَع بأنه يصعد ظاهرة مرفوضة ومشينة وينبغي مقاومتها. وهناك السياق السلبي الذي يتعامل مع الظاهرة كمعطى عاديٍّ ومقبول اجتماعياً. وإذا كنَّا لا نعتزُّ على السياق الأول من حيث المعالجة الفنية، فإنَّنا نناهض السياق الثاني الذي يُهَلِّف إلى ترسيخ قيم اجتماعية بديلة والترويج لفكر غريب عن المنظومة الفكرية والدينية للمجتمع المغربي. هذا التوجه نعتبره سياسةً لغاية منها تخريب أخلاقيات المجتمع وتحريف سلوكياته.

لبعض: قد يكون من اختصاصات فريق برنامي، كهلما كان لونه أو مذهبُه، الدعوة إلى فتح نقاش عام بخصوص مُنْجَز إبداعِي ماء خاصة إذا كان هذا المُنْجَز يهَمُّ شريحة هامة من الجمهور ويموِّل من خلال المال العام كما هو حال السينما. لكنَّ ما لا يستساغ هو أن يتحوَّل هذا الفريق البرنامي إلى جهاز دَعْوِيٍّ يُصنِّر الفتاوى، ويخذ من المناسبة فرصة لتنصيب نفسه فيصلاً وحكماً وصيًّا على الأخلاق العامة للمجتمع؛ أو إلى نادرسيماضي يُناقض النواهي الفنية والجمالية في هذا الفيلم أو ذاك!

الحكيك: كما نَظْلمون، نحن حزب سياسي يعطي للمسألة الأخلاقية بعداً واعتباراً خاصين والحقيقة أننا ننفر بهذا التميِّز في المشهود السياسي الرسمي في المغرب. لكنَّا، في الوقت نفسه، لا ندعي أنَّنا للمُثَلِّين الشرعيين الوجهين للدين في هذا البلد. ومع ذلك فنحن لا نتوان لحظة في إيمانة الاعتبار إلى موضوع الدين والأخلاق في الحياة العامة للمواطن المغربي. ذلك لأنَّه، في تقديرنا، عندما غابت الأخلاق عن السياسة وعن تدبير شؤون الحياة العامة للمواطنين، حُلَّتْ بنا كُلُّ المصائب والكوارث، والذين يتحدثون اليوم عن الفساد اليسوا يُقَوِّن في حديثهم البعد الأخلاقي في الموضوع؟ إنَّنا نحْمَل على عاتقنا، كحزب، يُقَدِّم المرجعية الإسلامية وحظي بدعم الجماهير الدفاعة إلى التغيير، مسؤولية تخليق الحياة العامة وما الإبداع، بشتى أنواعه، إلَّا جزءٌ من هذه الحياة العامة. وبحسبنا إلى تخليق وتَهِبِز حتى يتلازم مع خصوصياتنا الحضارية والعقيدة. وعندما ندعو إلى رفض الإباحية



ممارسة الجنس واسعة وبكثافة بين مثليين مغربيين  
مسلمين في ويحد لحد إسماعيل ..

والخلاعة وكل أنواع الفساد، فإنما لا ننطلق فقط من خلفيات الوعظ والإرشاد والشعارات الأخلاقية العامة، وإنما نحمل برنامجاً نفعله على مستوى الممارسة اليومية، سواء في علاقتنا بالجماهير أو في عملنا المؤسساتي من خلال فريقنا البرلماني داخل الجلسات العامة أو داخل اللجان النيابية. وما يجب أن يُترك أولئك الذين تُصنّفوا لدعوتنا، ويحاولوا أن يصادروا حقنا في طرح قضية منع فيلم «لحظة ظلام» أن من حقنا، كقوّاء برلمانيين نمثّل الأمة، أن نصاير عملاً اجتمع فيه كلّ حالات الردة الأخلاقية والفنية، إضافة إلى المتأدّة والحيل والكتير التي مارسها مخرج الفيلم على لجنة الدعم.

ليبيض: قد تُفِرُّكم على شيء واحد وهو مطالبكم باسترداد الدعم الذي خصّنا عليه المُخْرَج من المركز السينمائي المغربي، مادام الأمر يتعلق بالمال العام، ومادام المُخْرَج قد استفاد من دعم خارجي لإنتاج فيلمه. لكن أن تطالبوا بمنع الفيلم لأسباب أخلاقية أو فنية، ففي اعتقادي أن هذا هو شأن المختصين. فهناك لجنة للرقابة، كما أن هناك نقاداً وجمعيات سينمائية يُؤكّل إليهم أو إليها أمر النظر في الجوانب الجمالية للفيلم. ثم لا ترون أنكم يدعونكم هذه قد تُفَحِّصون الباب أمام تناسل مراكز القوى التي لا تتوَّع في أن تحدّد القيم حسب هواها ومزاجها وقناعاتها، وتنطلق من ثم إلى استصدار الفتاوى والقرارات؟  
الحكيك: أولاً، موضوع الردة قد تتجاوزته. لكن في إطار مشروعنا للمجتمع...

ليبيض (مقاطعاً): أولاً، مشروعكم المجتمعي مشروع حزب لا يحظى بإجماع المغاربة كلهم. إنّه اجتهدنا، فحسب، من بين اجتهدات عديدة تمور بها الساحة السياسية المغربية. ثانياً، أنتم غير معنيين بتحرير وتغير البناء الفني للفيلم. وإذا كان لدين، كما تدّعون، رجالته وخبرائه، وللاجتهد أمارؤه وسلطتيه، فلا تُشَسِّرْ أن هناك من سيقول لكم اليوم إنّ للإبداع رجاله ونساءه كذلك، وإن يكون يوماً ما في متناول الكل.  
الحكيك: من الذي يمنعنا من ذلك؟

ليبيض: مهامكم التي ناطكم بها الدستور، فأنتم فريق برلماني لا جمعية لتقلّد السينما.  
الحكيك: من أخبركم بذلك؟ أنا شخصياً مهتمّ بالفن السينمائي ومتابع له منذ زمان.

ليبيض: لا أعنيكم كشخص يُمكن أن تكون له اهتمامات بالفن السينمائي أو غيره. أنا أبحث إليكم باعتباركم أنية تشريعية من مهامها المركزية مراقبة أداء الحكومة، لا ملاحظة المجتمع.  
الحكيك: كما أسلف القول، نص حزب نملك مشروعاً مجتمعياً ونحمل رؤية محدّدة للأمر في مختلف المجالات. وبالتالي فنحن في غنى عن اعتراف الآخر لنا بذلك، أو إنكاره علينا. إننا نقوم بالأدوار التي حُكِّمنا إياها الشعب المغربي؛ ولذلك نرى من حقنا - بل ومن واجبنا - أن نشير القضايا الأساسية التي من شأنها أن تشغل الرأي العام، وأن نعرّف بالموقف الرسمي للمسؤولين في هذه القضايا.

الردة، إذا كانت لا تولّد فساداً تربوياً وفكرياً ومجتمعياً، لا ضرر من عرضها على الناس ليُحكّموا عليها بأنفسهم. أما أن تأتي الردة مصحوبةً بأشكال من الانحراف الأخلاقي، فإن مشروعنا المجتمعي يُفرض علينا



جدايم لملكة فلام أبيض من فبره لأن مخرجه (ديوك مويش) حلول التوقيع مع للشدة الجسدي

الاستئناف ساعطينا من أجل حماية المجتمع والدعوة إلى الالتزام بالضوابط الأخلاقية التي تراضقنا عليها جميعاً. وكيفنّا سلوكنا وفق قيمها الراسخة في المجتمع. فحين، كقوّاء للأمة، ملتزمين بتماقيرم الجماهير التي طوّقنا بالمسؤولية. وهذا الالتزام هو الذي حقنّا على الكشف عن مواطن الفساد التي تُنتهك فيها الأخلاق ويؤكّد فيها بالقيم المجتمعية والحضارية للشعب المغربي لاسلم.

نحن حزبٌ نناضل من أجل صيانة القيم الأصيلة للأمة وحمايتها من كلّ تخريب أو انتهاكٍ مقصودين. هذا هو شعارنا، وأملنا أن تتباه الأحرارُ المغربية الأخرى لتقف في صفِّ للداعمين عن عقيدة الشعب المغربي الذي تنتمي إليه، وعن خصوصياته الحضارية، فذلك مآلٌ للجميع لا لنا وحدها.

ليبشر: الشعب المغربي ليس قاصراً، فلقد حاولت فرنسا، بكلّ جيوشها المتفرعة وباسطولها الحربيّ الذي لم يكن يُظهر في زمن الحقبة الإسرائيلية، أن تجتثّه من جُذوره وتُغيّر ملامحه الحضارية، فما أفلحت. فهل تظهرُ أن مشاهد لا تتعدى مدّة عرضها دقائق معدودات يُمكن أن تهزّ بقيقه بما تسوّمه «خصوصياتنا الحضارية»؟ ثمّ اليس هذا الشعب الذي تخافون عليه من فيلم لحظة فلام، وفيلم دويعد، وإن كان أصلاً لا يتردّد على نور السينما المغربية وليس مغرباً بالفيلم المغربي، هو ذاته الذي يجلس يومياً أمام القنوات العالمية لمشاهدة العري والاستبداد بتفاصيل الأجساد، والمتوحّشة والمترنّحة؟ ومع ذلك لا أحد من أبناء هذا الشعب استيقظ يوماً فوجّه هويته منقوصة أو عقيدته قد استُئبلت باخرى.

الحكيك: أولاً، نحن لم نُدع يوماً أنّ الشعب المغربي قاصر، ولم يصدر عنّا كلام يُلهم منه أثنا نذوب عنه. نحن، ببساطة، نتحدث باسم الشعب المغربي الذي اكّدت لاختياره لأعضاء من حزينا ليمثّوه في البرلمان، ثانياً، هناك فرق كبير بين أن يشاهد المغربي الأفلام الجنسية الأجنبية، وبين أن تُصرف أموالُ الشعب على إنتاج أفلامٍ تعارض مع مقوّمات الأمة وثوابتها الحضارية.

ليبشر: إذن الأصل في الأمر هو الإباحة، ما لم يقيّد بشرط استغلال المال العام؟

الحكيك: إطلاقاً. نحن نقرّ أنّ مشاهدة الأفلام الجنسية الأجنبية تمثّل تراجعاً تربوياً في المجتمع. ونسعى في إطار مشروعتنا العامّة إلى أن نعيد الاعتبار إلى الدور التربويّ للإنسان ليستقيم على منهاج الله عزّ وجلّ في حياته الخاصة والعامة. ذلك أنّ استقامة الفرد ومؤسساتنا على هذا المنهج، والتشبُّث بالمرجعية الإسلامية، واعتماها في ترسيم توجهاتها وسياساتها، كلّ ذلك كفيلٌ بإصلاح أمر البلاد والعباد. لقد جرّبتنا السياسات التي أبدعها وأقرّها المسؤولون اللبيراليون، وبينّ يثّهم الاشتراكيين، فما أفلحت وما خصّنتنا منها إلا الكوارث والمصائب. وقد أن الأوان لكّي نجرب الخيار الإسلامي في برامجنا ومشروعنا، وهو خيارٌ سيكون فيه – لا محالة – نجاحنا وفلاحنا.

#### عبد الصمد الحكيك

نائب برلماني، وهو واضع السؤال الشفوي في الجلسة العامة للبرلمان المغربي باسم حزب العدالة والتنمية، الإسلامي حول منع فيلم لحظة ظلام، وأفلام أخرى.



## تأملات في مقدس الممارسة الثقافية وممنوعاتها بالمغرب

عبد الحميد عقار

بلغت الكاتبة إلى الماضي، لحظة انشداده إلى مستقبل مبهم، بغير قليل من الارتباك والدهشة ومعابدة التطلع. وهو يفعل ذلك محققاً برغبة مزدوجة: رغبة في تثليث الوجدان بصورة من ذلك الماضي ويقاياه الموشومة في مجاهل الذاكرة؛ ورغبة أخرى في إضفاء المعنى على حاضر إناءه. وفي التثليث والمعنى معاً ما يسوِّغ ترجيح الكتابة بين رضوان مبعثه ما يُشبه اليقين، وقلق منبهه ما يُحمل على الريبة والتساؤل. إذك تلهّض الذكرى سواهاً للفصم والخياب، وإيقاظاً للسؤال عن الحاضر والمآل. ويمسي التذكُّر ملقياً قوَّراً عنيف بين لما قبل والآن. ومن لحظة التوابع هاته ينبجس ويميض ذلك الآتي المجهول المقترح على كلِّ الاحتمالات

غير أنَّ عملية التذكُّر ليست بريئة: فقد يُحدَّث أحياناً أن تُلْساب من بين ثغوب الذاكرة بعضُ مكوناتها منطقة البياض والتسيان، تلك التي يحكمها مبدأ الإقصاء. فبينما كنتُ ألام عناصر هذه التثليلات باستقطار المحفوظ والمؤن معاً، انثالت عليَّ الصور والرؤى الشاوية في غياهب الذات ومناطقها الظليلة، وظلت الواحدة منها تغالب الأخرى وتُدفع بها إلى الظل من جديد. وفيما تواصل الانتياح لامتدت المغالبية وتَسارَع إيقاعها. لكن أيام الدم المباح والحظر المشاع بالجملة هي التي استأثرت بالمشهد، وكان أن سُوِّت هذه الحروف إحدى ليالي تلك الأيام فزاد وعشاهد، ناسجةً إياها نصين في واحد:

### من ليالي الدم المباح

في ليلة تقع بين الحادي عشر والرابع والعشرين من يناير ١٩٨٤  
هبط على الذات حنينٌ حاصبٌ إلى مغازلة نخبيلات الرباط في  
وحشيتها، وفي النفس هذا الرجوع: «الفرية في الفرية أنسُ  
ومسرة». لمجتاحني هذا الحنين وأنا ألثم الكلمات الأخيرة من  
مقال نقدي استغرق مني اليوم كله، وكان بعنوان: «مترجم مركب:  
الديكتاتور من منظور اليخو كاريانتييه، وسيفيل أنجيل  
استورياس، وغابرييل غارسيا ماركيز».

ما إنْ لحثَّ النخيل على مرمى البصر حتى بدا مكتسباً. كان  
واضحاً أن الأمر يتجاوز الشعور بالوحدة إلى الإحساس  
بالحاصرة: فقد اصطفت على جنباته قِرم طوأل اللامات، كالحو  
الوجه، مدحجرون بالخوذات والهرارات، بين الواحد والآخر  
مسافة موزونة مفقاة، وأمامهم واحدٌ أكرش يتَّرع الأرض جيئة  
وزهاًباً ويبدو في عجلة من أمره.



عبد الحميد عقار. منحت السلطات مجلته الجسور في  
بدايات الثمانينات

بسرعة ففترت إلى ذهني صورة «الكوم» (وهو كائن يتم تخويف الأطفال به - عبد الحق ليبر) تحكيها الأمهات في النصف الأول من الخمسينيات لتخويف الصغار وإغرائهم بأن يتحصنوا داخل البيوت قبل مغيب الشمس. كان الكوم أيضاً من ذوي الإيدان الغارعة الطول، واللون الفاحم، والقفاه المتهرقة وقيل أن تتلكني عدوة الحكايا، صرخ في صوت بغرور ظاهري: «اسمي محمد» إنه صوت شرطي مداوم، سمعته قوية، ولا يكاد يترج وأجبه بجاذبية تغمرها صور مختلفة الأحجام والهيئات. تجاهلت النداء لعل الشرطي أخطأ في الاسم، أو أخطئ لست لمعني، ولكنه في دمعة عين اعترض طريقي احتدت لهجته قليلاً:

— ففقدت سنعك

— مساء الخير أولاً.

— لا مساء الخير ولا صباح الليل، البطالقة!

وبينما هو يتقخصها ويعيد التخص من الجهتين، تسالط هل يختلف مضمون ما هو مكتوب بالإنجليزية عما هو مكتوب بالعربية؟ ودون أن أنتظر الجواب أو يستعني بالأحرى، سرح الذهن بعيداً مرتدّاً في القهقري نحو هتئات لم اثنين زمنها. في نقطة ما من رحلة الشرود هاته، برز ذلك الشيخ بوجهه اللثمي وبأساسه الأبيض المظلم بالبنّي والرمادي، وحوله أطفال كثيرون متطفلون تحجب الألوخ أوجههم، وتتعالى أصواتهم بالنهجي والتزليل دفعة واحدة؛ فيما يصغي هو إليهم جميعاً، فينهر هذا، ويوقظ ذلك، ويصحح للآخر، ويردّ التحية على مارّ عابر. وإذا أسلمت منه لؤحي بعد أن صمّحه وضبط علامات الوقف من الوجهين، صرّت استظهر من سورة النمل وأرسل في نفسي: «حتى إذا أنزى على وار النمل قالت نملة يا أيها النمل انحلوا مناسككم لا يعضكم سگلمان وجنوده وهم لا يتنعمون»

سليمان، النمل، الكوم، عوامل حبكة رائقة من دون شك، في بنائها من التمتع على قدر ما يتحبه من التامل الكوم في انتظار الإشارة، النمل يتلاقي أقدام الجند المصفحة. لقد تأمّن الكوم، وأخذ النمل يحاول ذلك، وانتقلت حركة التحرين والدورة والنصف دورة، تسارع الديبّ وانفطر الصفّ. أما سليمان فبدأ منهمكاً في الشؤون السماوية غير عابئ بالشؤون الأرضية. أولاً نظارة سوداء غير مالوفة، وأولاً عوداً التجميدة وثباتاً الجبهة إلى البروز وهي تكاد تفرج بما لم يكل بعد في حضرة سيد. سبياً! انطلقت سبياً! أينصنا أنا أم بالرياطة

لا. الليلة لم تقف سمك قطع بل عقلت أيضاً على ما يتظاهر. زبحر الشرطي الأسمر وتابح: «ما علينا. أنت قريب من هنا يا الله بسرعة، أرجع من حيث جيت». حاولت أن أقول له «قبل ساعتي شاهدت النشرة السنائية، لم أسمع منها ما يفيد الحاجة إلى الامتناع عن النزعة والتجوال ليلاً». شاهدته وقد هامت به فصاحة الألفاظ الديوانية ورينها، وأطلق العنان لحجرتي كما لو أنه فوق منبر فصاح:

À L'INSTANT MÊME OÙ  
ON VOUS MET LA MAIN  
DESSUS, VOUS CÉSSEZ  
D'ÊTRE UN HOMME.  
VOUS ÊTES UN NUMÉRO  
À L'OMBRE DES MURS  
DOUILLETS OÙ DE  
DES LIEUX DISCRETS.  
DISCRETS. PAS DE SOUCI  
À SE FAIRE.  
IL EN EXISTE UN PEU  
PARTOUT DANS LE PAYS.  
YA DE LA PLACE POUR  
TOUT LE MONDE...  
DAR MOGRI,  
LE COMPLEXE KALAT  
MAQUINA, DES MOULAY  
CHÉOUF. ET BIEN  
D'AUTRES ENCORE.  
C'EST DANS CE DOMAINE  
QUE NOUS ALLONS  
VOUS ACCUEILLIR.  
VOTRE OUBOAT SERA  
FORTEMENT SOLICITÉ  
PAR UN MÉLANGE  
SUBTIL DE RENFERME,  
DE SOUVA, D'UZINE.



من رسم عبد العزيز مريد في جدران الشانينيات



- بلادنا اليوم أعظم بلاد، من حقها أن تزده بنفسها بين الأمم العظيمة. فهي اليوم ملتقى الأجناس ومجمع الأمم نظراً للسوء تلتقيها عين الصمود وحدها، وميز أذناها هي في جرد ممكن....

وقبل أن يأتي على ما للآذن به طاقا كتمت صوته وخرجت. كتم الشرطي بدوره صوته، واعترض على ما سألكه متوقفاً: «شوف اسي ليست السياسة من شطلي. هذا الكلام عايزو لنفسك. اسفل إلى دارك دابا وباركا [أي: يكتفي، والآن]» بجانبه، أخذ متخزني يحرك سوطاً جلدياً ويثبت به، شارحاً بذلك فعوى ما فاه به المداوم: «لماي اكون لبيباً فاعطيها بالانصراف من وزير الشهادة، أو عنيداً فاعطيها جواز الضمارة

ينش على وقع وعيد التماس وتحريك السياط. عند الإغفاءة الأولى تابعت لعبة المبارزة بين الكرم والتمل فميمما يُطلق الأذن الهراوات نحو الأمام، يكون التمل قد اصطف إلى الوراء، وفيما يقوم الكرم بنصف دورته نحو الراء، يكون التمل قد تسلق الأشجار يضع الكرم الأيدي على الزناد: يُشرع التمل صدره للضرب والبيكا، أعطيت الإشارة انطلق وإبل الرصاص يُشطر الأشجار ناراً وبخاشاً. قطرات الدم تنزل تُرَف الدم تسيل، سعت النخيل وعراجينه تبتل ويتساقط بعضها، تُهدم الأرواح، فيتلاشى الضحك والبكاء، لكن صداهما يواصل الرنين والتردد ويضربي بقية الدم والدم. أحمل نفاً إلى حيث لا أدري عند الوصول قيل لي: «ما انت في جنة الجنان، نهارها كليها، لا ياتيها الضوء ولا الطعام ولا الخير» فيها يصبح الكائن هو الكل في الكل، من جلده يطعم وفيه ينام. فتحت فمي وعقيبت: «لكن الجنة ليس فيها ليل، إنما هو نور متلا،» قاله ابن منظور.

ضرب كذا بكف وأخرج سجلاً من جيبه بعد التمعن أمر أعوانه: «خذوا عنوان هذا البيت. لعله من المبتدئين، أو لعله من خلية أخرى لم تكتشف خريطها بعد». أحمله بما معه من كراريس وانتزهوا به في جنة الجنان كي يُحسن وصفها استقبلاً ويكن عن تحريف الكلام، وتابع أوامره: «أما الموصل إلينا فأولكها به من يوفي له الضيافة، فحسابه لدينا وفير. فقد تعلم ورأي وسمع وخاض في القيل والقال، وها هو يهيم بالحكي وله أن تصبوا عينيه إذا لم يرغب في مشاهدة الطوقس»

في لمح البصر وجدته نفسي ممدة فوق خشبة رؤوس مساميرها الحادة إلى الأعلى يحيط بي سبعة أشداء عداً واحتساباً، ثلاثة منهم عن يميني، ومثلهم عن يساري، وفي أسفل الخشبة عند قدمي وقف سابعهم يراقب الأمر كانت الوليمة دسمة، دعات الضربات سيافاً ثلاث تعقبتها ثلاث توالى الكلمات شتماً بذيلاً لسان يتلوه لسان، ومن السباع يأتي التنبيه إلى السواطين: «احذروا أن تصيبوا الرأس، فلم تقف بعد على ما بظده. ولا بأس إن بالذم من الاهتمام بالياف من أعضاء البدن،» وفيما الجسم تقيده أصول الضيافة البالغة الضفارة، تامت الروح قليلاً بحثاً عن ملاذ أو مخرج، وتوقاً إلى مطلق الاشتها، والقوي القوي من يحتمي بالشهوة حين يُصب عليه الزبانية سوط عذابهم! فلا يمتنع تباريح الضرب إلا تباريح الشوق. وكذلك كان.

كانت الوليمة دسمة، دعات الضربات سيافاً ثلاث تعقبتها ثلاث توالى الكلمات شتماً بذيلاً لسان يطعوه لسان. ومن الصباح جاء العذبة ست وستون حلة وأنا تُشَف الجسم بعد نَظَر إلى ساعته، ثوب الفجر ساعتان، مزيداً من الأطباق إذن وصرخت فيهم، فيه، «يا فاجر! هات عذابك، ومث في غيظك: فقد سلمتني بوابات الشهوة كل المفاتيح،» وواصلت حديث للعشق والإبحار وتوهم الشهوة المستحيلة.



من رسوم أخرى لروى

كانت الحفارة مسخية. تضاعفت الضربات سباطاً. ستُثَقِّبها ستُ. ارتفعت الكلمات شتمةً بنيتاً. لسانٌ سُكِّتَ لسان ومن السباع جاء الختَمُ: «لن لنا مقلبة من جسد الناقمين بمرور جثة الكوايبس، مائة جلد وواحدة تكفي خبيثاً اليوم. نُشَا عليه ماءً يارداً. تمشواً به قليلاً».

وأراني أمشي في موكب جنازتي يحيي الناس فيه جمّاً غفيراً. هي مكانٌ مستدير استدارة الواحة. تراكم الناس أوقواً أوقواً. ومقرس الدفن قائمة في صمت مهيب ارتفعت الأصوات تهزج وتشدّد. لقد أغرس المائت في رمشة عين تعالت الصراخات. ولَوَّت صفارات الإنذار والإسعاف. كَرَّ الاشتياك. عمّ الصخب. طلقات

النتفضت من نومي مدعوراً. وجدت نفسي مضطجماً على ظهري وأنا أقرأ في صحيفة معدنية متحركة كُتِب عليها بالاحمر القاني: «يُحظر عليكم، وفق قانوننا، ترويض الكوايبس، والتعرُّض على احتمال الآلام، واستدعاء الشبهة وتحريضها للذليل من عزيمة تلك الآلام». قانونكم هو فعلاً يا أبناء اللعنة والحرام. ماذا نالنا منه سوى الحظر والتقييد وملازمة البيوت والدخول إليها قبل الأوان؟

توالى الطرق. فتحت الباب. كان هو بصلبته الممتدة بين الجبهة ومنتهى القفا، وعلى محيّا علامات الخجل الكاذبي فوجئ بمن يُعرف بعض أضيائه الخاصة. سلّمني ورقة لا أتذكر لوئها كُتِب عليها بالأحرف البارزة «مستعجل». بعد ساعة من رتابة السؤال عن الأصل والفصل وما شابه، صاح أحدهم متهجهاً «من الآن فصاعداً، عليك أن تُغَيِّر النهج سباحةً؛ فلا جسر يُقَرَّر بعد اليوم».

أخذت حبالاً للشهد في التلاقي والتعكّب ما إن انتصف النهار حتى كانت وسائل الإعلام لما وراء البحار تُثقل الصدى، وتُجبل من الهمس صحفاً يشرّش على الانضمام العريضة لقارئ نشرة الأخبار المبشّر بالفترحات. في المساء، كلم سليمان الطير والإنسان والجن، وشاهدت لكل مقارعة الصورة للصورة؛ فيما وراء البحار صوّر للأشلاء والشظايا والجنث والهلوكتير وبعض البات أخرى؛ وعلى ضفاف الأطلسي بقايا حروف، وأشلاء كلمات ماثلة بالأرقام والأسماء، وتزيّف الدم «بنائز» جديداً مجلّلاً بالسود والرماد، وفي رجمه دماء نار من ربيع آخر لارب فيه. وتهتّر الصورة الثانية لتعتمد بالسيف والنار «منطق» للمشروعية الناهلة لركائزها من مَعيّن غير مَعيّن القانون. تنجلي خطوط الحكمة من حصار معيّن يُغيّر الخرق على الواقع، وتُشجح الوطن الأسير الأوسر في شلالات العصي والإقصاءات، ويُثبب للتقييد مخالبه يُثَقِّلُ – بالشبهة ويندوها – الجسد والروح.

فقرت إلى الزمن من جدير صورة النيكيتاتور بوصفه مرجعاً مرجئاً للتخيل الروائي بأميركا اللاتينية. وفيما أعطف خاصة الكلام على فاتحته يحاصرني هذا السؤال: «هل يمكن للمستبد في ثقافة ما أن يكون مرادفاً للديكتاتور في ثقافة أخرى؟» إن الفرق بينهما دقيقة وذات أوضاع تاريخية متباينة. غير أن هناك حبلأً سرّياً غير مرئي يصل بينهما إلى الطاغوت المحكوم سلطة الإجماع على التوازن. انطلاقاً من مبدأ العنف والموافقة. وفي مثل هذا الوضع فإن القوة الأكثر متانةً، على حدّ تعبير موريس غوبولييه، «ليست عتف السائدين فقط، ولكنّها أيضاً موافقة المُسودين على سيادة الأوائل». إن لحظة التقاطع بين العنف والموافقة هي الوضع الذي يزدهر فيه المقدس ويستعيد تطاوله. ففيها يتخلّى عن اشتغاله للضمعي والذاتي، يحكم كونه يقوم على تواضع متبادل بين طرفي المجتمع ولو افتراضاً. ليأخذ في اشتغاله وضعاً خارجياً تُشكّر السلطة فيه الحظر والعنف ضدّاً على الآخرين خارجها أو الذين هم في تعارض معها. عندئذ يصطبغ المقدس بخطاب أسطوريّ مشبّع بالروبية والطلق ويمارسه عشوائيةً مُخَمَّمة بالوعد والوعيد.

كما يُفَرِّق ذلك الروائي التشيكي ميلان كونديرا في قوله: «فحيثما تواجه السلطة تحدياً، تُثبِّج إلى الأمامها الخاص بها». ويمتدّ المنع في هذه الحالة إحدى صيغ هذا الإنتاج، وقواشها «نهج النسيان المنظم». وتصبح علاقة المقدس بالمنوع علاقة تبادلية. فيها يستمدّ الحظر مشروعيته وتبريره من المقدس، ويكتسب هذا الأخير من المنوع امتيازَه ونفوذه. وفي منوعات التمانينيات بالمغرب أحد تجسيدات هذا الآلم السعير النابع من عمق هذا الزواج المسيحي بين العنف والموافقة، أو بين التقييد والمنع. من هنا تُدرك أهمية إشاعة الحديث عن ظاهرة المنع؛ فمثل هذا الانقسام بإمكانه أن يساهم في تعرية أوليات اشتغال الموافقة بوصفها رديفاً للعنف. وفي تحرير موافقة المُسودين من سليلتها، وعظف السائدين من لاشروعيتها.

عبد الحميد عمار

سبق تعريفة ص ٤٩



## رقابة بصيغة الجمع

### خاتمة بنونة

كان قدرُ الكتابة، دومًا، أن تقف في منطقة التماسٍ مع نصوصٍ تنعي لنفسها حقَّ الإلحاقية والحقيقة والقداسة، وأن تتحمل عبءَ فضح وتفسير المحرّم. لذا ظلت الكتابة ترفض أن تكفل إرادتها سلطةً رقيبٍ أو شرعيةً مشترِكوًا ترميماتٍ إيديولوجيةً. فالكتابة صنو الحرية، بل امتدادها للمعوس والمرفي في واقعنا العيش، ولهذا كُتِبَ عليها أن ت رابط في قلعة الصراع المصوم ضد فقه المنع والمصادرة.

والكلام عن الرقابة حديث مباشرٌ من خصوصية البنية الذهنية لاجتمع من المجتمعات، سواء أكانت هذه البنية فعلاً مرتبطةً وعلومًا مثلًا في القوانين الجزرية التي تُعنى بتنظيم العلاقات الاجتماعية وتمثيل النظام العام، والإتابة عن الهوية الناطقة لسلوكيات المجتمع؛ أم كانت متعالية لا تنظم داخل المدون وإنما تعمُّ بروحها تصرفات الأفراد والجماعات، وتُكمن في شكل مواضع اجتماعية يتوافق المجتمع حولها. بهذا المعنى، ظلت الرقابة بحرًا بلا شطآن، أينما وأُتيت وجهك فم رقابة، وأينما ارتحلت يطالوك سوط الرقيب.

والرقابة فعل يترى بنا، كامنٌ في مداخلنا، لا يهدأ. نشور حين يُجَلِّنا بسياطه، وننلذذ به حين يكون سلاسلنا في مواجهة الآخر المختلف معنا أو عنا!

### من ذاكرة المنع

عندما أعود بذاكرتي إلى فترة اللياليات، كان كلُّ شيء في مرحلة التكوين: مجتمعًا خارجيًا من زبانة الاستعمار ويتقلب لانتلاقة ناجحة نحو المستقبل. وكانت تمارض دأله الغزوات والرغبات والأحلام: فهناك جيلٌ حالمٌ بالثورة والتغيير، وفي الطرف المقابل حراسٌ شدادٌ غلاظٌ يُحَصِّنون المجتمع ويغلطون ما يُؤْمَرُونَ به وما لا يؤْمَرُونَ من أجل عوق المسير خوفًا من انزلاقات تُقصف بمصالحهم. أصوات تنطلق في صيحات مدوية، فاتحةً فواصل جديدة في الزمان المغربي من جهة؛ وإياها تُشمل الأكمام والسياط من جهة ثانية، معلنة أن لا صوت يعلو على سوطها لأنها حاميةٌ للمجتمع والوصية عليه. هكذا فعلوا بالأمس حين سَطَّروا علينا أجهزةَهم وآلياتهم للشعبية وشغالة حلفائهم ليبتدوا أحلامنا البهيمية؛ وهامم اليوم يتسربلون بمفاهيم الليبرالية والتراخي ويؤمرون علينا بطاقات الزمن الجديد، مبدئين بانبلال صبح جديد. شوقًا آخر من معركة الإبداء. فبعد أن تكشرت النصال على النصال، وبعد أن مُدَّ هذا الجسمُ للمقاوم الموشوم بالأمم، طالبيه بأن يُبْعَث ثانية ليشارك في ترتيب طقوس جنازته.



خاتمة بنونة: قدر الكتابة أن تتحمل عبءَ فضح وتفسير المحرّم

على إيقاعات هذا الزمن المظوف بالغضب والعنف والعنف المضاد، والذي كانت فيه أشكال الرقابة متعددة ومتولدة بالغ لون، خلطت أولى خطواتي في عالم الكتابة. كان الوضع العام مشحوناً بتصورات وأنماط سلوك متداولة، كُرسَتْ برمزية سلطتها ضوابط الحركة الإبداعية، وسنَّت بقرار سلطان الأسبقية في الزمان قوانين اللعبة فلم تُراهن على المحتمل الذي ينبعث من رحم الثبات، ولم ترض أن ترتحل عبر خلوات الكتابة حيث نضُّ المكنى أقوى من أن تلغية خطابيات للتداول المصوغة في قوالب لاهنية اللغة والرؤية.

لم يكن المشهد الثقافي المغربي في بدايات الستينيات قد اعتاد الإلتصاق إلى الصوت المختلف فكان قُفري أن احارب على كل الجبهات: فلا أسرتني أقرئتي في البدء على اختياري، ولا المجتمع الثقافي رَحِمَ اختلافي كانت عائلتي، التي ترحلتني من الله بعد خمسة ذكور، تهتئني لمصير خدعت معاله سلطاً في أزمنة الحرمان الأنثوي زوجة تُزهر في بيت زوجها وتُجَب وتُسهر على تربية ابنائها لكنني كنتُ أحسُّ أنني مرهونة لشيء آخر لم تُصَحِّ انذاك معاله. يكفي أن أسوق هنا تلك الكلمات التي كانت ترتدّها أمي، رحمة الله عليها، كلما أحسنت بخصّة تجاهي، «لعدّة الله على اليوم الذي أمدخلناك فيه المدرسة». فقد كان التعليم، بالمسبة إلى الانثى في ذلك الزمان، منةً لا حقاً. وكان أبي، رحمة الله عليه، يقول: «ما لُثِّني حتى أمُتحتُ بهذه البنت التي كنتُ أرجوها من الله بعد الذكور الخمسة؟» وكان عندما يُسأل في منطقة للقيصرية بفاس العتيقة: «مَنْ هي خناتة بنونة؟» يجيب، والصّفة في حلقه، «لا عرفها». كان قصدي أن يريد أن يُعرف خناتة بنونة المتزوجة والحالة خارج المألوف والمتداول، والتي قالت له يوماً وقد خاطبها في أمر زوجها يعني لم تتجاوز العتبة الأولى لمرحلة المراقبة. «والله لو أهديتني لزوج لأقتله وأقتل نفسي». ولن انسى في هذا السياق الدعم الكبير الذي أحاطني به زعيمُ الأمة الأستاذ علّال الفاسي عندما واجه أبي قائلاً: «خناتة ابنة المغرب وليست ابنتك، فلا تَنفُكها بهذا الزواج المبكر» وحتى عندما استسلم أبي للآراء الواقع واجهني أمراً: «أريد معك وعداً خالصاً بأن تحافظي على شرفي وشرف عائلتك...» وكان الإبداع إلتافاً للشرف!

لم تكن تلك وجهة نظر أبي فحسب، وإنما هي فكرة يتداولها الناسُ عندما في حكاياتهم عن مجتمع المظفون، إذ لم يكن يُسمح للمرأة بالدخول إلى عالم الكتابة إلا بعد أن تضحي بكل مقوماتها كإنسان لتستباح لرغبات الآخرين وليس غريزاً أن تُسَمِّع بعد ذلك أن المرأة تُبدع بجسمها وإغرائها أكثر مما تُبدع بذكرا وجسدها. بل حتى عندما يُقَرّ الآخر بما تُبدعه المرأة يستكثره عليها، فينسبه إلى رجل يكتب نيابة عنها. هذه أول مصاروة تواجه المرأة وهي تتحمم عالم الكلمة الخلاقة مصاديرها حفا كجمجمة فائرة على أن تؤسّس لنفسها شخصية مستقلة عن مؤسسة الزواج. وكان السؤال الذي يترقني، لماذا هذا الإصرار على إلقاء المرأة وقبر أحلامها؟ أتذكر هنا كيف أن إخواني الخمسة، لنا علما حين سفرني الأول في وفد من المثقفين المغاربة خارج المغرب، أجمعوا أمرهم وأوعزوا لي أبي بأن يمانع في أمر سفرني، وأقسموا لي هو لم يفعل. وسافرت مع هؤلاء الرجال «الفراة»، لتيُجرّوا الحِمى وليُطْفِروا لحامهم انتقاماً من العار الذي لحق بهم من جراء مصاحبتهم للأغراب. ولم أعد أذكر إن كان إخواني قد حلّقوا لحامهم، وإن كنتُ متيقنة أنهم لم يُجرّوا الحِمى!

بهذه الروح المقاومة اقتحمْتُ عالم الكتابة والإبداع، فكانت لي خير زائر في مواجهة ما سياتي من أصناف المنع والمصادرة. لقد كنتُ في مسيرتي الثقافية مشحونة بكل ما أنا مرهونة له. وكنت أعلم، وأنا أضيق رجلي على هتية المجهول في عالم الإبداع، أن فعل الكتابة لصقتها، وبالنسبة إلى أنثى من وسط معي، قد يخلّف كثيراً من الاستفسارات البريئة والمفومة. وكان استاذي علّال الفاسي يقول لي: «لقد جئتُ في زمان غير زمانك»، وكنتُ أرى عليه في تحد: «لو أن هذا الجدار الذي أمامي هو المستحيل نفسه لظننتُ لأضرب عليه رأسي حتى أموت دونه أو أصنع فيه كوة تُلقح منه الأجيال اللاحقة باباً للمستحيل لاكون جديرة بهذا الوطن».

عندما كنتُ أجيء بهذه اللغة المتحمية، كانت هناك صفوف شتى من أشكال المنع والرقابة والمصادرة تلاصقني، ليس أمونها رقابة السلطة، إذ كانت رقابة المثقف وأمثالي المصادرة التي يمارسها في حق الإبداع المتخلف عنه أنفسي وأمر من رقابة السلطان. فبعد أن انتصرت في معركتي ضد رغبة العائلة في إهدائي إلى زوج، أجدني أعظم بالرغبة ذاتها من المثقف الذي يزعم من حضور المرأة إلى جانبته في المنقبات والندوات الفكرية - وهو الذي تعوّمها ظلاً له في البيت - فلا يلبث أن يستمرجها في مؤسسة الزواج. وهو بذلك، عن قصد أو غير قصد، لا يرى فيها إلا الأنثى التي تُجَب للتمتع وتؤر له أسباب النجاح، فيكون بذلك قد مارس عليها نوعاً من المصادرة والرقابة الذكورية للمجتمع. ليس المثقف هنا مثل تلك الأنا التقليدي الذي أُنْع لي مستقبل أكون فيه خادمة مطبوعة لزوج أنتظر طعمته كلّي امرأة تُسَمِّح أحلامها في شرفنا هذا اللبثي بالتهاب الذكور؟



انضمت الشعرة حين تقديم شعروق وإفادات بنونة إلى الشعر

## النقد وسلطة الرقابة

كنتُ أشربُ، في البدء، إلى أنْ القدر رمى بي في زمن مشحونٍ باحتقانٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ وثقافيٍّ. وكان النقد الأدبيّ جزءاً من سلطة الرقابة العليا للرجل في عالم الكلمة الخلاقة فقد وُجِهُتْ بِفَرَشِشٍ من لُبنِ مؤسسة النقد الأدبيّ التي كان يُشهر عليها أيامها دعاءُ التقديّم في الماركسية الرثيعة، الذين كانوا يقيسون الإبداع بمعايير الإيديولوجيا والانتماء السياسي والطبقي. وعندما أصدرت مجموعتي القصصية الأولى النار والاختيار هاجمني النقاد المصنويون على الماركسية، ولم يعترفوا بها نصّاً إبداعياً، لا لضعف إبداعيتها وجاذبيتها، وإنما لأنها صادرة عن مبدعة قُتِرَ لها أن تنتمي إلى طبقة اجتماعية ومُسيّنة بالها بورجوازية محافظة، ولأنّي استعصمتُ فيها بالقرآن والحديث في زمن كان فيه المرء يُخفي إيمانه ويمارس معتقداته بعيداً عن الانظراف حتى لا يُنعت بالرجعية والتخلف. وعندما كتبتُ عن الفقراء والطبقات المحرومة قيل لي إنّي بورجوازية لا يحقّ لها أن تكتب عن الطبقات الفقيرة، وبعثوني بخيانة طبقتي وأنا اليوم أسألهم، وقد احتلوا المناصب واعتلوا الكراسي المنوحة: «من الذي خاس طبقتك؟» مكمّ تجرّ إخواننا «النقاد» وغالوا في «تقدّميتهم» ومارسوا إثم المصادرة والإقصاء والمنع غير المباشر من حق الكثير من الأصوات الإبداعية والثقافية المغربية، فالغوا من ذاكرة ثقافتنا الوطنية العديد من الإسهامات الإبداعية والفكرية الحرة والملتزمة، ولعمري فإنّ رقابتهم هذه أشدُّ بطناً من رقابة وزارة الداخلية ذاتها. إنّ الذين كانوا يُحْمَلون سيفٌ منقُص ويهشّمون به الرؤوس وتُطَعَنون به الألسن ويُكَيَّرون على المرأة حقّ الإبداع، هم الذين يتصايقون، اليوم، على المنابر ويتجهمون بخطابات عن حرية المرأة وحق الاختلاف!

لقد ألمى النقد النصّ ومصادره، ليصادر معه حقّ الكاتب في التعبير. لم يكن النقد - وهو في برأئي الإيديولوجيا - قادراً على أن يكون مجالاً للحوار وللخلق وللتطوير، بقدر ما كان محكمة للإدانة وللاستصدار أحكام الإيابة والإقصاء والمصادرة في حق الإبداع المختلف والمتنمي بصديق إلى هيموم وطنه. ورقابة المؤسسة النقدية، في تصويري، أفلتت وأشرس من كل رقابة، لأنها تُصنّر عن معرفة وإرادة واعيتين بعملية المصادرة.

## المنع وتجربة «شروق»

وكدتُ مجلة «شروق» في الحيّ الجامعيّ يظهر المهرز بفاش العقيدة، وكانت معي الأستاذة غيثة بزويج المحامية بمدينة فاس، فيما التحقّت بنا بعد ذلك الأستاذة بديعة ونيش الفاضية بالمجلس الأعلى. وكان الأستاذ عبد الكريم غلاب والأستاذ عبد الجبار المسحيمي يقفان لنا الدّمعُ الفَنّيّ والتّقنيّ.

قبل إصدار المجلة كان عليّ أن أزوّر مكتب وكيل الملك لأخبره بأمر الإصدار. وكان مما قاله لي الوكيل مستغفراً: «لم يجرؤ الرجال على مفاتيحي في مثل هذا الموضوع، فكيف لائتي؟» كنتُ، على حدّ علمي، المرأة الأولى التي تُصدر مجلة في المغرب تعني بقضايا المرأة في هذه المرحلة كانت مجلة «إيل» (Eile) الفرنسية قد أصدرت عدداً خاصاً عن المرأة المغربية، بغلاف أبيض وعلامة استفهام كبرى، وكتب في أعلاه «المرأة المغربية». أثار هذا العدد غضب المسؤولين، بمن فيهم الحسن الثاني، ثم وصل خبر إصدار مجلة «شروق» إلى المسؤولين، فأرادوا أن تكون جواباً على علامة استفهام مجلة إيل الفرنسية. فما كان إلّا أن عرّض عليّ وزير في الحكومة آنذاك فكرة تبني الوزارة لهذا المشروع الوليد. وبعد أن رفضتُ جاء العرض من جهات أعلى وإغراءات أقوى، فرفضتُ أيضاً. وكان للرفض ثمنه: فحين أفتنا حلالاً كبيراً لتقديم المجلة، وجئنا مبدئاً مهبطاً من المال دعماً لها، فوجئنا بالشركة تقترح علينا مكان السفل وتصادر الأموال وتقتادي إلى مخفر الشرطة الذي قضيتُ به الليل كله من أجل الاستئذان والبحث.

كانت تلك هي التحية الأولى جواباً على رفضي. أما التحية الثانية فقد كانت عبارة عن رسالة من وزير التعليم ينعني فيها من أن أكون مديرةً للمجلة بدعوى أنّي موظفة في قطاع التعليم، مع أنّ العديد من رجال التعليم كانوا يشككون مهمة مدراء مجلاتهم، وبمهم الأستاذ أبو بكر القادري الذي كان مديراً لمدرسة تعليمية ومديراً لمجلة كان ينشرها. فاضطربنا تحت إلحاح إصدار العدد الأول من المجلة إلى استبدال اسمي باسم الأخت ربيعة بونبة كمديرة للمجلة.

لم تزدني كلّ متاعب المنع والمصادرة إلّا تشبّعاً بموقفي المبدئي الذي يعني أنّ الكتابة مصادرةً للمصادرة، وتوقّ أبدى إلى معارضة كلّ أشكال الحرية. فالمبدع الحقيقي هو خارج للتداول، وفوق الجسار اللغوي والحدود الاجتماعية والضوابط الكلامية. وهو في ذلك يكون الفمّ لكل الأنواء المكتمة، وإدراكاً لكلّ ما يحو الظلمة المصمّة في أزمئتنا العربية الجهبنة.

## خاتمة بونبة

رواية مغربية. من أعمالها: النار والاختيار، والصمت الطاق والغد والغضب.



## نن نرى العالم بأعينهم

زهرة زيراوي

يعينني سؤال الرقابة الذي طرحته مجلة الأرباب إلى ما حدث منذ أربع سنوات. ذلك أنني بعثت إلى أحد منابرنا الصحفية الوطنية بقصة قصيرة عنوانها «عندما حول الثور الأرض» والقصة تُعرض ما يعانيه الأفرأء، على اختلاف دياناتهم ومرجعياتهم، من قمع قائم من سلطة الدين أو سلطة الدولة في الحوار الذي يدور بين ميشيل العلماني المغربي، وأحمد للمفوز بما يراه في الغرب، يقول ميشيل:

«...أكدوا لنا: لا للديانات، لا للمعري. أكدوا لنا على المال والجنس والحرية: أحسن مع الزمن، ومع ما اكتشفه من اصطدامي بالعالم ومن تجارب الذات، أن الحياة دائماً ليست في ما علموه لنا. تحت ماكياج الجسد كائن آخر يُفرض للماكياج، كائن غير ذلك الذي صنعه، كائن ماكياج يرى العالمَ بغير أعينهم»

هذه الفقرة كانت سبباً في ألا تُنشر القصة بدعوى أن فيها ما يسيء إلى الدين! قالوا إنه ينبغي قصُّ جملة «لا للديانات»، فاعتذرت، وسُحبت القصة. إذ التعميل أو الشطب سيريكان المعنى المراد، حيث يتطارع عربي وغربي هُمومهما المشتركة.

ضحكت مع نفسي: إذ هل بالإمكان أن أجعل ميشيل، العلماني المغربي، الذي لم يصله من إلا الصور القاتمة، يقول: «إني مسلم»؟

### حادثة أخرى

عندما تولي الشاعر أحمد بركات كتيبت نصّاً شعريّاً يَكنس حالَ الفقد العجائني لشاعر شاب له دوره في خريطة الشعر بالمغرب. وقد جاء في مطلع النص: «قال يا شبيبتي في الإثم...»

وطبناً «الإثم» هنا أعني به تلفظاً الوجداني، فلفظاً الإبداعي، خبزنا المشترك ولكن طُلب مني أن أغير «الإثم» لأنها تحمل ما تحُمل من دلالة

بالنسبة إليّ. هذا الأمر لا يُثّقني نهائياً، لأنّ للنابر أساساً تابعة للدولة أو لأحزاب سياسية، لها حوارها ومريدها ورائها ورؤاها. وإذا أردت أن أعرض فكري كما هو، فينبغي أن يُصنر عن مؤسسة لي، لا عن مؤسسات الدولة أو الأحزاب أي...

ولكن المألم هو غياب حركة جلية تتأمل الزمرة وتفكر فيها كموضوع وكذات. في التصور الفعّال أذكّر ما قاله روثيه أوبيير في فلسفة التروبية في باب القيم الثقافية: «ما يُخلق اللبس أن التصورات الجمعية بعد أن تُنظم في البنية النفسية لاجتمع ما، تجري تماماً مجرى القوي الميكانيكية الآلية. وتُغصب الثبات والانسجام، وكل ما يُمكن أن يُعْمَن بقاء المجتمع نفسه وعلى حاله. بعد أن انسحبت من أفراد كلّ ثانية وكلّ حرية خلافة»



زهرة زيراوي: مُنعت قصتي بدعوى أنها تسيء إلى الدين

إن هذا التصكُّب وهذه الآلية يدفعان إلى تصحُّر التصورات الجمعية في ظواهر ومؤسسات اجتماعية، وتصبح سلطة المؤسسة هي الحقيقة. وإن تجسَّد هذه التصورات قد نَفَع جماعة من المبدعين، الذين مرُّوا من الطلوعين نفسه عندما أسندت إليهم مهام في السلطة الثقافية، إلى أن يمارسوا ما مورسَ عليهم من سلط. وسرى الاستنساخ وفق صورته الأولى، أو قلَّ هو أشدُّ وأثقل.

أعتقد أنَّ ثقافة لا يوجد فيها حوار، ولا تُقدَّر مكانة لراي الآخر، هي منذ البدء ثقافة التمرُّكز حول الذات. إنها ثقافة تنف على بابٍ مغلق، ولكنَّها تُعْصِي رغم ذلك أنَّها الحامل لأسرار المعرفة.

ما نراه هنا وهناك هي عالمة العربيَّ يجعلنا نتساءل: هل أبو حيان التوحيدي عاش في زمن أكثر حريةً وفكرًا وتساؤلًا، وأقلَّ سلطةً من زماننا؟ ولأ فكيف تأثَّر له أن يقول في المقاميسات صفحة ٢٥ «ما أعجب أمر أهل الجنة... قيل: وكيف قال لأنهم لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح أما تضيق صدورهم؟ أما يملكون؟ أما يبرفون؟ بأنفسهم عن هذه الحال التي هي مُشاكلة لأحوال البهيمة إلا ياتلون؟ ألا يفسحرون؟»

ماذا لو قال مثل هذا الكلام، أو حتى أقله، لحدُّ المفكرين أو الأبياء العرب وسعى إلى أن يُشرِّح بالفكر إلى تأملٍ أوسع وأعمق؟ ألا تكون المحرقة بانتظاره؟ لنذكر هنا ما أثَّرت رواية وليمة لاعشاب البحر من زواجب، وكيف كان الإقبال عليها كبيرًا في معرض الكتاب بالدار البيضاء، منذ أكثر من عامين، وكيف كان نافذها في البيومين الأولين، وأتساءل: هل كلُّ هؤلاء الذين قرأوا هذه الرواية تحوَّلوا عن معتقداتهم وعُتَا آمنوا به، وأتجهَّوا إلى حيدر حيدر في وليمة؟ أم أن هناك ماربٍ معينة نَفَعَتْ بسلط معينة إلى إفعال ذلك؟

ثم بعددنا إلى الدين أساسًا، هل نجد هناك نصًّا يدعو إلى مجابهة أفكار الناس وقتالهم، أم أن هناك دعوة إلى الحوار؟

اليس عندما نطلب المحرم إلى التقيُّض يصبح الرعب داخل المجتمع سيدًا؟ لقد دأخلتُ نصوصُ محرمُ المُقَدَّس بخصوص السلطان، بل إنَّ ما تشاؤهُ السلطة هو تغيُّيبُ نصوصُ المُقَدَّس لتحلَّ في محلِّها، أو لتتداخل معها حسب الحاجة. نذكر هنا كتاب فوظيف المحرم للككتور سليمان الصيرتاني حين يقول: «كيف جرى تصنيعُ النص المزيَّف وحلُّ محلِّ النص المقدس... وكيف وظِّفَ المحرم ليخضع ماربٍ خاصةً يكتوي بها المجتمع منذ زمن بعيد وما يزال»

## دفاعًا عن الحوار

بقي أن أضيف إلى أنني، وأنا أقرأ ملفَّ «الرقابة في مصر» الذي سهرت عليه مجلة الأرباب البيروقراطية (عدد ٢٠٠٢/١٢/١١)، استوقفتني مقالة «الرقابة وتوابيها» للمفكر نصر حامد أبو زيد، إذ جاء فيها (ص ٧١ - ٧٢) أنَّ كتاب محمد لصاحبه مكسيم رودنسون قد أوقف تدريسهُ في الجامعة الأميركية بالقاهرة بعد أن كُتِبَ عنه صلاح منتصر في صونه بجريدة الأهرام. ونذكر أبو زيد أنَّ وزير التعليم العالي قال «إنَّ الكتاب يقول إنَّ القرآن الكريم ليس من ربي الله سبحانه، ولكن كُتِبَ واحدٌ كان يجيد الشعر، ولولا أنَّه مكتوب على شكل شعر من النبي ﷺ ما استمرَّ القرآن...». وقال الكتاب أيضًا إنَّ الرسول في سلوكياته تزوج السيدة خديجة لأنَّها كانت غنية، وهو كان يريد أن يرتفع إلى مستواها، ولما تزوجها وجَّعها سيدة كبيرة في السن لم تُشبع شهوة الجنسية، قرأتُ هذا وصعبتُ كيف أنَّ مجلس الأساتذة يوفيه الأمن طوال فترة تدريسهِ، ولا يتحقَّق منه إلا بعد أن يثيرة الأستاذ صلاح منتصر!

أقول هذا دفاعًا عن الحوار، اللغائب حتى داخل أكبر المؤسسات الثقافية، وهي الجامعة، ولأ فكيف يُمكن أن يُهم المرء ما أشارت إليه د سامية محرز في موضوعها «الخُصن الحافي: وثيقة الإذانة» (الأرباب ٢٠٠٢/١٢/١١)، ص ٦٢، «في أثناء أزمة الخُصن الحافي» انقسم قسم الدراسات العربية بالجامعة الأميركية الذي انتمى إليه بين متضامنٍ معي ومهاجمٍ لوقي، ووجَّهتُ إليَّ داخل القسم تهمةَ التحريض الجنسي بطلاي [١]

إذا كان هذا هو واقع الحال داخل الجامعة والقسم، فما بالك بسلط المناير وكافة أشكال السلطان؟ ليست أكثر راحة!

## زهرة زيرالوي

كانية مغربية من إصداراتها القصصية الأخيرة مجموعة: مجرود حكاية (٢٠٠٢).

# تَفْصِيحُ الظِّلِّ

♦ ياسين عدنان ♦

كان عليّ في الحقيقة أن اكتب هذه القصة منذ خمس سنوات: فالحكاية حينها كانت طرية ما تزال في القلب والوجدان. لا اخفيكم أنني حاولت ذلك غير مرة، لكنّ دون توفّق. فقد كنتُ أجد صعوبة في وصف رجاء، خصوصاً في المشهد الأول حين طرقتُ بابي أول مرة. تلك الجراءة المُجاذبة الصادرة عن كائن شفاف وخجول: ذلك هو بالضبط ما كنتُ أفضل في وصفه، فامرئُ المسوّدَةِ وأخرج. وكنتُ كلما تملّعتُ عليّ للكتابة أصقلُّ البابَ ورثائي وأغامر إلى العانة، لكنّ مع هذه القصة بالذات كنتُ أفضلُ الذُعابَ إلى الحديقة المجاورة. لماذا الحديقة بالضبط ولماذا مع هذه القصة بالذات؟ لست أدري. هناك أمور كثيرة لا نستطيع شرحها: الطريقة التي نكت بها رجاء البابَ مثلاً، والثقة التي خُلّت بها داخل الشقة وهي تقول: «اسمع لي أن ادخل أولاً». ثم الطلاقة الصاعقة التي أسرّت بها شعرياً نغمي، دين أن تنسّس التلميح إلى أنها تعرف أنه متبادل: فكأنّ الرسائل التي بعثتها إليها طوال السنة الدراسية كانت تصل، ويبدو أنني أنا من كان يُقشَل في فكّ شفرات الأجوبة مع الأسف هناك فعلاً أمور لا يُمكن شرحها. فمباشرة بعد أن قالت رجاء كل شيء، وبعد أن هزّبت ارتباكاً إلى المطبخ لأحضّر لها عصيراً، كانت البنت قد استعدت خجلها الساحر. عدت إلى الغرفة ووجدتها متكسّفة من جديد. ورغم أنني بدأتُ أهرج كما دتني حين أكون مرتبكاً، إلا أنها كانت قد دخلت قوتلعتها الصغيرة ولم تعد قادرة حتى على رفع بصرها في وجهي. في البداية، أعني في المحاولات الأولى، كنتُ أبداً بوصف رجاء وهي تُطرق البابَ ثم وهي تنخل. كنتُ أحاول وصف جرائتها وإنكسر القارئ بعد كل جملة بخطها الأصيل لكنني كنتُ أفضل صراحةً كنتُ أحياناً اكتب صفحاتي كاملتين، وحين أتجاوز دون أن أصف المشهد كما تليقُ، وأحسُّه بالضبط امرئُ المسوّدَةِ ولأسيماً أن هذا المشهد ليس أكثر من بداية للقصة الحقيقية لقصة رجاء وحدها، بل وقصة نعمة أيضاً.

...

رجاء كانت تلميذةً عندي لموسم دراسي كامل. كانت بنتاً صغيرة بوجه صبور ساحر، وجسدتُ شئيلَ الطوفان على الدوام في وزارة مدرسية بيضاء، لكنّ لمعة النكاه في عينيها، ووردة الخجل المتفتح على الدوام في وجنتيها، كانا كاشيئاً لا يُورثُ لم يكن حيّاً في الحقيقة، وإنما فرحاً أيضاً دافئاً ولذيذاً: فرحاً بها وبحضورها الشفيف. كنتُ أحسّها نعمة منمّشة أسعد بها في الصباحات وهي تفتح وجهي وتسرّب عبر فتحة القميص لتدغدغ جسدي كلّ في محاولاتي السابقة كنتُ كثيراً من هذا الكلام. شيءٌ كالشعر كنتُ أصِفُ فيه حضورها البهيّ وطبيعيةٍ إلهاسي فيها قبل تلك الزيارة. لكنني اليوم سأحاول المرور مباشرةً إلى صلب القصة دون استفاضة في التمهيد.

نسيبتُ أن اخبركم أن رجاء حينما طرقت البابَ واندمعت إلى الدخول لم تكن وحدها. كان وراءها ظِلٌّ من لحم ودم. لذا حينما أخضرتُ العصير وجلستُ قبالتها قلت: «لم تُكرّميني بريقتين؟» فاجابت في خمر بعيني خفيضتين: «إنّها نعمة صديقتي الوحيدة. بحال نفسي إعتيرها غير موجودة». ومنذ ذلك اليوم صارت نعمة دائماً معنا. وكنا دائماً نعتيرها غير موجودة، حين تُخصّن بصفنا وتبادل الفلّ، أو تنحرف في الشقة شبة غارين. بل حتى حينما نكون في غرفة النوم، كانت نعمة تداهنا أحياناً نفتح الباب لكي تسال: «أين وضعت السكّر؟» لم تكن نخفي عنها حميميتنا. كانت ظلاً حقيقياً لرجاء. ولم أكن أهمّ علاقتهما. صحيح أن نعمة ليست جميلة. لكنّ هذا لا يمنع أن لها جسداً بدأتُ مفاته تفنّح، والأكيد أن له نداداته السريّة المشتعلة. غير أن نعمة كانت تبدو سعيّدة بوضعها: فقد كانت تكتشف الحبّ والرّجل واللذة عبر رجاء. وعبر حكايات رجاء. والأكيد أنها تعرف حتى الأشياء البالغة الخصوصية التي تحصل بيننا في غرفة النوم، فرجاء تحكي لها كلّ شيء، كلّ شيء، مهما بدا صغيراً وتافهاً، ومهما كان خاصاً وحميمياً.

...

لكنّ لدى المثل الذي بلغته علاقتهما أن الحركة إلا حين مرضتُ رجاء. فقد كانت رجاء وظلّها تزوراني مرتين في الأسبوع، مساء الثلاثاء ومساءً الجمعة. ثم مرضتُ رجاء وأجرت عملية جراحية الزمّتها السرير شهرًا كاملاً فراححت نعمة تزورني. تحرص على أن تملأ الشقة بالصخب الجميل الذي كانت رجاء تنفّره في أرجائها، خصوصاً بعد أن غادرت خجلها الأول وصارت أكثر انطلافاً في علاقتها معي. مرةً ونحن في مرحنا الأبيض السعيد ربّ الهاتف، هاتفي في غرفة النوم جنبَ السرير مباشرة، هربتُ إليه. حملتُ السماعة واستقلتُ على السرير وقلت: «والى».

♦ قاصر ونضار مرفّي. أصدر ديوانيّ شعر (مانيكانيك) ووصيف للقيامَة) ومجموعة قصصية واحدة (من يصدقُ الرسائل؟)



كانت هي. تماماً كما توقعت. أقصد كما تمنيت.

- رجاء حبيبتي، كيف أنت الآن؟

- بخير. لقد خرجتُ ماما قبل قليل، فتسللتُ إلى غرفة نومها لاأهتف لك. لئلا لي، هل نعمة هناك؟

- طبعاً، حبيبتي، إنها هنا. في الغرفة الأخرى. هل أتدريها لك؟

.....

وجاءت نعمة واستلمت إلى جانبي، وبداناً نكلمها معاً. قالت رجاء إنها اشتاقت إليّ. فقبّلتها على الهاتف لكنّ ذلك لم يكن كافياً. قالت إنّ حسارة القبله لم تصلها، وطلبتُ منّي أن أقبل نعمة من أجلها. أن أغمض عينيّ وأفكّر بها وألبس قبلة حارة على شفتي نعمة. إلما يا حبيبتي... لكنّ شفتي نعمة كانتا حاسمتين. تبادلنا القليل لأزيد من عشر دقائق، ورجاء تتألم في السماعه صولها يصليها كأنها معي. وأنا أغرق في شفتي نعمة ورجاء تتألم. ثم طلبتُ منّي أن أمسك بنهدا الصغير. ورغم أنّ نهد نعمة كان أنضج وأشهى وأكثر امتلاءً، لكنّني ما كنتُ لأخون رجاء. لذا تخيلتُ نهد رجاء الصغير وأقبلتُ عليه بدات أمصمه كما كنتُ أفعل دائماً مع رجاء. أمصص الطمة والحسها بلساني، والنهد الشهي يتفتح أمامي كزهرة بريّة تُسقى لأول مرة. كنتُ أفكر في رجاء وأنسامها، وهي تتألم في الهاتف. وأما نعمة فبدت حريصة على أن تُخبس انفاسها المتطلّمة، وإنّ تتألم كانت تفعل ذلك بصوت كئيم.

...

ظلت نعمة تأتي، وكلماً حريجتُ أم رجاء لسان، تحمّل الشفحة السماعه ونبدأ. وحينما لا تتصل، نجلس أنا ونعمة بشكل عاديّ في الغرفة الأخرى، نلعب الورق ونستمع للموسيقى، أو نتفرج معاً على التلفزيون. اشتهي مراراً أن أحضنها وأن أفكّر تفاحتي سدرها، لكنّني ما كنتُ لأخون رجاء. ما كنتُ لأفعل وصولها ليس هناك. لذا كما نجلس هادئين إلى أن يرنّ الهاتف وحين لا يرنّ لا شيء يشتمل بيننا عادت رجاء. عادت إلى زيارتي مرة أخرى هذه المرة تركتُ ظهري يلمّح الباب ويتقدّم أولاً، واختفت هي وراء. لم تخبرني أنها قد عادت إلى حياتها الطبيعية وأنها غادرت السرير منذ يومين. أرابت مفاجاتي. كم أحبّ هذه البنت! حينما عانقتها في الباب أحسست نفسي خفيفاً كريح. رشيقاً كفراشة مصطخباً كمحبة. ولا أعرف كيف حلّقنا كروح طائفة لنجد جسديتنا معدّتين على السرير. كانت رجاء تقبّلي وتبكي. وكان جسدها قد استحال طيرة مقدسة وأنا أعوم فيها وأصبح.

لكنّ، ما بالّ الما يزيد ويصطبغ داخل هذه البحيرة التي ألقها هانئة؟ أحسستُ وكأنّ موجاً دافئاً يتسلّقني ويتكسّر على ظهري فيدغفه. وحين التفتتُ كانت نعمة عاريةً في الأخرى إلى جواربي، تُلحس ظهري وتقبّله وتكلم وجهها بين كفتي. وكان نهداها ملتصقاً بظهري من الخلف، يُشرحان فيه كسهرين شقيين يلهوان فوق مرج أخضر. لم أفهم كيف حصل ذلك، ولم أكن أتخيّل حدوثه لكنّ حصل ولكن. فلم أعد أعرف أين ينتهي جسد رجاء ومتى يبدأ جسد نعمة. ففي السرير كانا يستحيلان بحيرة. بحر. بحرّين. فمن يستطيع فصل الماء عن الماء؟

...

لكنّ نعمة ستبقى رغم ذلك ظلاً فحني وهي في أقصى حالات اللذة كانت تكلم تأوهاتا. وكان كلّ أنّّ الإذنان تصدر عنها خيانة لرجاء. وأنا أيضاً لم أكن أنطق غير اسم حبيبتي. وكانت نعمة بيننا. جسداً آخرس يتلوى بلا صوت، ويلبذ بلا صوت، ويلا صوريتيشي. وحين تننشي كانت تنسحب من السرير إلى الخارج. تهير لنا شيئاً: عصيراً في الصيف وشايّاً في الشتاء. ثم تُطرق علينا الباب باباً ولطلاً براسها الصغير وهي تردّد مازحة. «ألم تتعبا بعد؟ تعالوا نشرب شيئاً قبل أن نغادر.» ثم مُوجّهة حديثاً إلى رجاء: «لقد تأخرنا.» وكنا نشرب عصيرنا في الصيف أو شايّاً في الشتاء ويتسحب البتتان. ولما كنتُ أقبل رجاء عند الباب مولماً، كانت نعمة تمدّ لي يداً مصافحة. كنتُ أصافحها فقط، وحين تغادران أفكّر في رجاء كثيراً وأشعر بسعادة بالغة لأنّني عثرتُ لها في البحيرة على تفاحتين أشهى. أكثر نضجاً وأملأ، ولم أكن مع ذلك أفكّر في غيرها، حتى وأنا أكتب الآن هذه القصة.

لكنّ نعمة ظلاً. فمن يجرق على فصل الجسد عن ظله؟ ثمّ؟ ثمّ إنّ طلاح النظار أشهى... لو تكلمون.

وزارات

# قصة درع بشرية

♦ جانيث وينتسون ♦  
ترجمة: هناء سليمان

«هورور، هورور، هورور، ثم يا حبيبي، ثم»

انت تصرخ من الشظايا الآن، وغداً ستصير مسكاً مشوهاً.

لكنك يا حبيبي ستعرف يوماً أن إعاقتك لجمعة وستدرك أنك ممتن

لقنابل الأطفال التي أرسلها فاعل الخير جيفري هون.»

(من قصيدة لـ توني هاريسون، رداً على وزير الدفاع البريطاني جيفري هون الذي قال في حديث للراديو إن الإهبات العراقية ستسببها على استخدام القنابل العنقودية)

ناوني بالحرفين: ت د. اللاسم وقع يشبه سيارة قديمة الطراز أو عميلاً سريعاً. أنا في الزمان الخطأ بالتأكيد، وربما في المكان الخطأ أيضاً، وأشعر أنني أقرب إلى قصة مكي إلى كائن بشري. أنا من ذلك النوع من الأشياء التي يكتب عنها أنا مكتوبة بالحروف، وخلف الحروف حياة، وهي الشيء الوحيد الذي لم أستعره لهذه الرحلة.

حينما وافقنا على المجيء إلى بغداد لم تكن لديّ الملابس ولا الاتصالات أو الخبرة أو النظرية، لا المصادر ولا حتى النقود. كان لديّ شيء واحد أستطيع أن أمتحه بحرية: حياتي. أما بقية الأشياء، فهما دفعت للحصول عليها، عاجلاً أو آجلاً، شخص آخر.

الشمس تشرق، وفي كل صباح اتسامل إن كنت سأراها مرة أخرى. أنا لا أملك شروق الشمس ولا أستطيع أن أجعلها تشرق، ولكنني أشعر به هبة، هبة الضياء والدفء والأمل ويوم آخر. في الوطن لم أكن أرى الشروق إلا نادراً، وكان الصباح مجرد فرض من أصوات المنية والكورن فليكس والكلك، وأمنية أن يطول النوم قليلاً – لو لم يكن اليوم قد بدأ بعد.

هنا استيقظ قبل شروق الشمس الآن أحداث الشمس، اطلب مزيداً من الوقت. وارسم الظلال بغيرة المحب كوب الماء هذا، وفنجان القهوة المحلاة، والخبز المخبوز بالأسس، كعكة العسل هذه، كلها أشياء لم أتناولها قبل الآن؛ ولكنني أتناولها كل يوم الآن، وفي كل يوم أشعر بأنها جديدة مثل الشمس بالفسحة إلي، ومثل الحياة التي أشعر بها جديدة كل يوم.

ليست لديّ ممتلكات هنا، ولكنني أغنى من بتر بترول. حينما قلت إنني سأمتح حياتي، صرخت أقررها، وأصبح تقديراً فعلاً، جزءاً فاعلاً من الكلام لا أعتقد شيئاً الآن؛ أتسلق جبال ثروتي كشيء خرافي لأعبر قائم من أسطورة أنا كل ذهب الشرق وجواهر أنا بساطي السحري وأنشد متى كانت آخر مرة أحببت فيها الحياة؟

لم أجد صعوبة في اتخاذ القرار. أنا من الكويكرز<sup>(١)</sup> كان أبي سائق سيارة إسعاف في الحرب العالمية الثانية، وبينما كان الرجال الآخرون يشاربون ويمزقون الحبيبات في الجيوب، كان أبي يحمل صورة لكرسي من طراز الملكة آن. كان يود أن يتذكر ما كان يضيء بحياته من أجله، وكان ذلك استمراراً للحضارة، الإمكان الهش لعالم متحضر.

كل ما أعرفه هو أن الحروب تؤدي إلى مزيد من الحروب، فيما بعد. العنف يعود في صورة عف، والحرب يمكن تبريرها دائماً وجعلها ضرورية: هذه الحرب هي «الآخيرة» «آخر الحروب» ويعلمها بلن تكون هناك حروب.»

ليس لدينا اختيار، أما أنا فقد أردت أن يكون لديّ اختيار. أنا لا أستطيع أن أؤثر في العالم. لا أقود دولاً إلى مصائرها. وما الاختيار المتاح لي حينما تنهب بلادي إلى الحرب لقد قررت أن أصوت بجسدي، فذهبت إلى العراق دوماً بشرية

♦ كاتبة من لندن والترجمة كاتبة مصرية.

١ - الكويكرز طائفة مسيحية اسمها جورج فوكس عام ١٦٥٠. محور العقيدة فيها هو الإيمان بالضوء الداخلي، ويؤفض أفراد الطائفة الطريق والكثيثة للتبليغ. وقد دعمت الطائفة العديد من قضايا الإصلاح الاجتماعي، وأسهم أفرادها في مقاومة حرب فيتنام. (الترجمة)

كنت خارجة على الشرعية فور وصولي، تحولت إلى معجزة حرب. لم أقتل أحداً ولم أشارك في قتل الآلاف، لكنني أصبحت «ضد الوطنية»، «مخطراً» على نفسي وعلى الآخرين كنت شخصاً «يستحق» العقاب. لو تمكنت من البقاء، حياة، فسماعاً وأحكام وأدان ويلقى بي في السجن. عالم غريب حقاً، حيث يُعد من الشجاعة أن تموت وانت تُقتل الآخرين، ومن الجريمة أن تُهب حياتك لتقتل الآخرين.

دعوني أقل لكم. أنا لست مادة للشهادة. جان دارك والحرق على العمود والقلب المحترق لا تصلح لي. لم أؤمن أبداً بشيء إلى حد أن أموت من أجله، ربما لأنني لم أؤمن بشيء أعيش من أجله. مثل كل الناس سلكت طريقاً، راضية بمسودة خريطة، دون إرشادات واضحة ودون تعديلات كثيرة. كيف تغيرت؟ لقد تغير مسار الطائرات. كنت أسكن في ضواحي لندن بالقرب من مطار جوي يُستخدم عادة للطائرات النقل. ولكن بسبب الحرب تحولت المطار إلى مقر لقاذفات القنابل الأميركية ب- ٥٢. كانت تطير فوق سطح منزلي مباشرة، تهز الأعمدة وتهزني فاستيقظ من نومي، من نوم كان يبدو لي أنه طال سنوات. وتحت ثلاثين طناً من القنابل وقاذفات الصواريخ التي تحشرو بطن الطائرة كمنسج ولينر، استيقظ عقلي الناتج على احتمال اللقد. ماذا لو كان منزلي، إبناتي، شاعري المألوف، هي التي تنتظر كل ليلة هدير الطائرات الخفيف، مبركة أنها لن تُبهر لتهديط ببراة في مكان آخر، بل ستلد الموت الحي فوق؟ ماذا لو كنت أنا المكان الدافئ الذي اختاره؟ هذا السري، حيث يجب أن يكون كل شيء، أمناً، سيصبح فزعي الليلي لن تحمي أي غطية فوق رأسي. لن يأتي عبر الباب من يمسك يدي مطمئناً ليوطني من الظلم الشرير. لقد غيرت مسار طيراني، ذهبت إلى ركن الطيار وأبطلت عمل الطيار الآلي الذي كان يحدد مسار حياتي، وامسكت بزمام الأمور. هبطت الطائرة على الفور، لم أجد طائرة في قiel.

هل كانت السموات بهذا الأسراع حقاً؟ هل كان المشهد واضحاً إلى هذا الحد فوق مستوى السحاب؟ كنت متشعبة بالزفة كالسيدة العفراء، زرقاء كالكركب الذي يدور بين الأنجم دون أن يفتسي للسقوط.

لقد تماهيت مع حريتي لكن هذه الهبة لم تدم طويلاً؛ فقد شعرت على الفور بأنني حققاء، حققاء لا يريدوا أحد. ماذا كنت أفعل هنا، متخذة من ياس أناس آخرين قضيتي؟

بينما كنت أسير وسط شوارع بغداد، أقابل أصحاب الدكاكين والأطفال، بدأت في تعلم ماذا يعني أن تعيش بلا أمل. لن يُقتل الديكتاتور أو يفي، هل ستتغير الأشياء بعد ذلك حقاً؟ قلّة كانت تعتقد ذلك. قلّة كانت تؤمن بالتمهيد كنتيجة للتغيير. لقد بنى الناس حياتهم على ما لديهم بالفعل، وكانت تلك هي الحياة التي كانوا يريدون أن يحافظوا عليها. كان هناك الكثير من الغضب، والكثير من الاستعداد للقتال، دون تفائل بأن عالمهم سيصبح مكاناً مختلفاً. المكان المختلف ليس لهم؛ إنه للأغنياء والأقوياء، ولم يكن أحد منهم كذلك.

وهكذا رعدت الطهور وأنفط وأقشّر الخضروات وانتظر

كان هناك جندي يمين بحجرتي المستأجرة كل يوم في سيارة نقل. كان من المميزين لا الخائفين، من الصفوة لا العامة. لم يتحدث إليّ قط. فقط كان ينظر إليّ وأنا جالسة القرفصاء؛ أحضر الطعام. حتى جاء يوم أتبه فيه إليّ ويندقي على ظهره قائلاً: «يجب أن ترحلي إلى وطنك». قلت: «هنا وطني»، ودون سبب واضح بدأت أشرح له أن هذا المنفى الاختياري صار الوطن الذي لم يكن لي يوماً. لم أكن أستطيع أن أعيش مع نفسي، ناهيك عن الحياة مع أحد. وأما هنا فكانت أعيش مع نفسي ومع الآخرين.

قال شيئاً عن العرب الذي يسميه فهم كل الأشياء المهمة. سمعته «سائمة الأزمات» قال إنني فور بدء القتال ساكنين أول من يُهرب.

... كنت أقرب من قبل، ولكن هذه هي نهاية الحرب.

ضحك مني وانطلق بالسيارة، والتراب يشغل سرباً خلف العجلات. ومن خلال التراب اللتلف رأيت عربياً فوق جمل ذي سنم وإهد يشمرع عبر الرمال حاملاً حجراً ودرعاً وعلى مسافة ما خلفت العربي، كان هناك رجل يركض على صهوة جواد أبيض سألني الرجل إلى أين ذنب (العربي)، فانضرت إلى هناك. قال الرجل: «إنه يُحتمل الزمن والحضارة معه، ولكن الوقت قد فات». وبينما كان يركض بعيداً فوق جواده نظرتُ خلفه، فرائتُ مذ البحر اللتلق يتلقى صونا.

بدا القصف حوالي الثالثة صباحاً - وهي الساعة التي تخشى الروح فيها الموت أكثر من أي وقت، ويصير الجسد أشد ضعفاً. أيقظنا القصف من نومنا العميق، وشاهدنا المبني الحكومي المقابل لقلعة سحابية من الدخان الأسود.

أخذ أفراد العائلة التي كنت أقوم معها قليلاً من الملابس وبعض أوعية الطهو واتجهوا إلى القبو وقبض الولد الأكبر على ديناصور مطاطاً معاولاً ألا يبكي، وتعلق الرضيع بأمه وهو يظن إلى ملك الديناصورات يختفي ببطنه داخل فتحة أخيه

كانت تلك الليلة تشبه الليالي التالية لم نمت، ولكننا لم نستطع أن نعيش. كنا ننتظر داخل منطقة المفقودين، المسماة بالحرب

وحين سمعت أن قوات المشاة دخلت إلى المدينة عرفنا أن الوقت قد حان لترك المنزل والذهاب إلى القتال. لم أكد أبداً السير عبر الطريق الترابي المؤدي إلى الشارع حتى توقفت شاحنة، وجرّني جنديان عراقيان إلى داخلها. ضربني أحدهما على فمي وأمرني الآخر بأن أخرس، رغم أنني لم أقل أي شيء. قادا السيارة إلى معسكر خارج المدينة، وأصبحت حبيسة في غرفة للتحقيق مبنية من الإسمنت وغائصة إلى نصفها في الرمال. كان فمي متورماً، لكنني سمعتهن جيداً وهم يقولون إنهم لا يريدون شهداء أمريكيين على شاشات السي إن إن لم يكن من المجدي أن أقول إنني بريطانية - ما الفرق؟ - أو إنني جنث إلى هنا لا أعترض على الحرب. أخذوا إلياسبور ومزقوه بما أنني أحب العراق إلى هذا الحد، فإني أستطيع الآن أن أكون عراقية. كانت الطائرة الأخيرة إلى بريطانيا قد غادرت منذ أيام، وكان يجب أن أعاد: فلقد حذرتني السفارة وطلبت مني الرحيل. ولكنني، وأخبرني مثلي، بقينا. بقيت محتبئة مصعمة على الوقوف في طريق الغزو، رغم وقوفي كسجحة الآن. على الأقل كنت جديرة بالاعتصاب نساء في الحرب دائماً ينتهي الأمر مكذاً، اليس كذلك؟ كدت قد جنث إلى هنا راغبة في أن أمتح جسدي، ولكن ليس بهذه الطريقة؛ لماذا تصورت أنني ساموت جسيمة في لحظة من لحظات الحقيقة المجد يُخترع بعد نهاية الحروب لا مجد هناك في القذارة والعرق والجليل المشوه والجروح المفتوحة.

سمعت صوتاً غاضباً يصيح: نهض الرجال وأمرنا من الحجة، ممسكين بالاحزمة المفككة. كان أحد الجنود يساعدني على النهوض تعرّكاً عليه؛ إنه الرجل الذي كان يطوف كل يوم بالشارع.

- لا يمكنك أن تموتي من أجلنا. ربما تموتين أثناء القتال، ولكننا سمعتم من أجل أنفسنا.

- وماذا عن النساء والأطفال، من سمعت من أجلهم؟

لم يجب. كانت هناك أصوات في الخارج نهض بسرعة واتجه إلى الخارج. فهمت القليل من الأصوات العالية، كانوا يريدون أن يُجسم أمري سريماً، إما بإعطائي للرجال أو فتني. ثم سمعت خطوات تبتعد.

بعد مرور وقت طويل من الليل، بعد الصمت الغريب الذي قطعه عويل صفارات الإنذار والقصف المستمر، سمعت صوت باب الكوخ يُفتح. قال

- انهبي، انهبي، ولحققتي في مكان ما.

- هل ستتركني انهبي؟

- نعم

- لماذا؟

جلس بجواربي على الأرض أخبرني أنه ترّس في أميركا. كان يكره صدأها، ولكنه يحب بلده ولا يعتقد أن الحرب عادلة، لكنه سيُجدم على القتل إذا اضطر إلى ذلك. لن يستسلم. لن يخون بلده. قال: «يجب ألا يصبح العالم بأكمله ملكاً لأميركا» أخذ بيدي واتجهنا إلى الخارج. كان القصف قد توقف إلى حين، وضوء الكهرياء قد انطفأ والنجوم تتألق فوق المدينة كيف يبدو من هناك، من أعلى العالم الأزرق الجميل، والانهيار الكبرى تُدبره والبحار تغطي، ولا حدود أو قيود سوى ما صنّغ البشر. كانت الأنهار تتدفق دون إكتراث باقي بلد تمر، والغابات تنمو حيث التربة صالحة. نحن جميعاً نتشارك في سماء واحدة وكوكبٍ أزرق صغير. وفي مكان ما من هذا النجم كان العالم ينفجر.

قال الرجل:

- اسمي «دال» وحدث لو عرفتك في زمن الفضل.

وفي الخارج كان رجل يعلق بندقيته موجهة إلى كتف دال، وصوته يعلو: «أميركية أميركية» أخرج مسدسًا من الجراب الخلفي، وخطوت أنا إلى الأمام رافعة يديّ ضحك الرجل الضخم، وبدأ دال في الكلام مسرعًا غاضبًا، وزراعاه أمام صدره. لوّح الرجل الضخم ببندقيته نحونا وهو يضحك، ثم أطلق طلقتين على التراب تحت أقدامنا مباشرة. لم يتحرك دال، أما أنا فصرخت وتحركت على نحو غريزي إلى الخلف. لم يدريني أحد على أن أجن، ولكنني تصرفت تلقائيًا.

دوى انفجار ضخم. فجأة كنا ثلاثتنا متكويين على حائط الصدق، والإسمعتُ المنتشقة يخترق ظهري. كان فمي ممتلئًا بالتراب، وكنتُ أختنق. ألقي دال إليّ بقارورة ماء، وجرتني نحو سيارة نقل أصدر أمرًا سريعًا للجنود، ثم تحركت السيارة إلى الأمام، بيده مثل حيوان ثقليل يقلب العالم. كان الجزء الخلفي من السيارة مظلمًا، وثمانية عراقيين يجلسون على الكتفين المعدنيين على جانبيها وينادونهم بين أرجلهم كان الفضاء القمائي ممزقًا، والأرضية صلبة. وضع أحدهم حقيبته على فتحة في الأرضية لمنع دخول الرمال.

لم يكن أحد يتكلم بالإنجليزية. أعطاني أحدهم شوكلاتة. كانوا أطفالًا بأجساد جميلة ستسلم وتُجرح وتُترَف كنتُ قد رايتُ قبل ذلك نظرة دهشة في عيني رجل حينما اخترقت جسمه وصاحته. كيف حدث ذلك؟ كانت له زوجة وطفل وليد. وعندهما بأن يعود.

- هل تذكرين قبل معركة طروادة كيف يدع هيكتور أندرومك زوجته وابنه الصغير الذي أخافته ريشة الفؤاد، وبرقة بالغر يخلع خونه ويقلع زوجته ويظله ويغادر كيهل ولا يعود أبدًا؟

كان دال يهمس إليّ بذلك. وهو يمسك يدي برقة والسيارة تُغير الليل. وكنتُ أسمع طلقات البنادق تقترب: كنا في طريقنا إلى المعركة. انتهت الرحلة قبل الفجر. كان الجنود ثمانية، ورأس كلٍّ منهما على كتف الآخر. شعرتُ بالثياني من راحة الدبزل، فقذرتُ من السيارة وابتعدتُ قليلًا لأستريح.

كان القمر قد خبا والنجوم شاحبة جاء دال واستلقى على جانبه بجوارتي وهو يفرط بطلانية علينا كلثنا. قُبِني. كنتُ أريد أن يقبطني جسمه وجلده الدافئ كانا الحقيقة كلّ الدعاية والدعوى والسياسة والبلاغة تقتقر إلى الحقيقة البسيطة لجسدك وجسدي: نحن نريد أن نكون أحياء، أمعن. نريد مكانًا لأبائنا، وكلّ فرد في العالم يريد ذلك لا شيء أكثر بساطة من ذلك، ولا شيء أكثر صعوبة.

يبدو أنني استغرقتُ في النوم. وحينما استيقظتُ كان دال يبتسم تحت شمس ساطعة.

قال: أنا أجهك.

قلت: أنت لا تعرف عليّ شيئًا

قال: أنا أعرفك، لقد تعرّكتُ عليك

هزّزتُ رأسي موافقة الحب هو المعرفة. الحب هو التعرّف: أن تعيد التفكير في كلّ ما نعرفه، وكلّ ما هو نحن. لأنّ شخصًا آخر يقف أمامنا كالمرأة

أخذ دال الدلائل المعظمة متفحصًا الأفق الأحمر. أعطاني إيّاها كان هناك طابور طويل من الدبابات الأميركية يتحرك بيده نحو موقعنا.

قال: لقد حان الوقت، خائف؟

هزّزتُ رأسي بالنفي وأمسكتُ يده، قائلته اليوم فقط، وإن أراه ثانية غدًا. لكنّ هذه اللحظة كانت تصوي أعوامًا بداخلها، أزمنة سابقة وأخرى تجمي. إذا كان هناك عالم مواز لعالمنا، فقد يكون هناك سلام، وسفائلك هناك.

يحمل الحب كلّ شيء، يستبق كلّ شيء، يتأمل في كلّ شيء، يتحمل كلّ شيء. الحب لا ينتهي أبدًا.

لندن

لم تكن أمي تترك على نحو ما أن المسألة جد خطيرة. ربما أخطرت بكثير من الشكل الذي تعاملت به مع الحكاية حين رويتها أختي سعاد علينا فسخرت منها. حكمت ما رأيته تحديداً، دون حذف أو إضافة، فقالت إنها حين وقفت في الحمام رأت من نافذتها شيئاً يطير في منور العمارة دون جناحين. كذبتها أمي وقالت إن سعاد تحديداً لا بد وأن تكون قد شردت بالأكارها منذ تخرجت وجلست في شرفة العمارة تحصي الرؤس الطافية على سطح الشارع مثل جثث

بعد يومين اكثت مني بنت الصفتي، بنت جيراننا، أنها رأت الشيء نفسه يطير في هواء المنور دون جناحين. وأضافت أنه يُشبه الثعبان كروث أمي سخرت بها، مضيفة أن بنات العمارة أصابتهن لونه من جزاء تأخر قطار الزواج وشردت عقولهن في وهم العريس الذي لا بد أن يأتي يأتي. وما هن يُظنن النقوذ والعمر على الشيخة «صفاء» التي تُعرف الطالع، ثم يعدن إلى البيت لينمن إلى اليوم التالي وربما إلى العام التالي. عم صديقي يعيش وحيداً منذ ماتت زوجته. حكى وهو جالس على قهوة الصعايدة المواجهة للعمارة أنه رأى بعينه، وهو خارج من الحمام، شيئاً يطير في المنور بلا جناحين. لم تصدقه أمي، فهو في نظرها رجل «هلاس ويصباح» ولم يترك امرأة في العمارة بل وفي الهيكل إلا وغارلها. وليس من المستبعد أن يُركب موجة البنات ويتحدث هو الآخر عن شيء رآه يطير في المنور بلا جناحين.

الرواية نفسها أكدها أحمد بلال، الذي شاب شعره دون أن يتزوج أو يائته عقدٌ عملٍ من الخليج وأمه ما تزال تُطهره بدعواتها في النازلة والطالعة وهي تراه غيب في بئر المسلم

توالت الحكايات ولم تصدق أمي غير عم حسان، جارنا الطيب الذي يؤذن لصلاة الفجر في شرفته شقته. حكى أنه منذ أيام قلائل، وبعد أن أنزل صلاة الفجر نزل إلى المسجد، رأى في ظلمة السلم شيئاً يجري نحو أقرب نافذة تطل على منور العمارة والقي بنفسه منها وعندما لسه عم حسان رآه يطير، فتذكر ما رآه أختي وروته مني بنت الصفتي ورواه عم صديقي وأحمد بلال.

..

في ظهيرة ذلك اليوم قررت أمي أن تبحث في مسألة ذلك الشيء الذي يطير دون جناحين في هواء المنور. جمعت رجال العمارة ونساءها وأكثت على الجميع بضرورة البحث عن رفاعي؛ فهو وحده القادر على أن يخلص العمارة من تلك الكائنات. أم يفلح أحد فيما اكثت عليه أمي سوى عم صديقي؛ فهو الجالس ليل نهار في قهوة الصعايدة يَرصد حركة الرائع والغادي ويتطلع إلى النسييل الأبيض المنثور في شرفات النساء الجودات، فيفرق قلبه طرباً وشوقاً. حين رأى رفاعاً يسير في الشارع وفي يده حقيبة كتانية كالحذاء اللون، أخذه من يده وصعد به شقته.

كانت أمي تنظر إلى حقيبة الرفاعي المتسفة في تجسس، ولما طعن الرجل إلى نظرات أمي أقسم على المصحف الشريف بأن لا شيء في الحقيبة سوى بعض ما جاء عليه به الحصون: قطعة جبن رومي جافة من بئر الذي يبيع بالجملة، وزغيف خبز من فرن حمادة، وثمرة طماطم، وأخرى من الخبز، وبعض الجرجير. ولما رأى أمي ما زالت صامتة تنظر إليه والجميع يتابعونها في صمت وإنعاس، استشعر أن ثمة انقلاصاً إن يبدأ العمل. فنزع جلابيه وتحرك في العمارة وهو يُحيط على شفق دون غيرها ويردد كلمات غير مفهومة ذات مخارج غير واضحة. ثم راح شيئاً فشيئاً يُخرج ما في الشفق من ثعابين.

سادت حالة من الذعر والهلع والهرج والمرج بين البنات والبنين والرجال والنساء في العمارة. فقد أخرج الرفاعي من شقته ثلاثة ثعابين، ومن شقة الصفتي ثعباناً واحداً، ومن شقة عم صديقي ثعبانين، ومن شقة عم حسان نفسه أربعة ثعابين، ومن فوق السطح أخرج الأم الكبيرة والأب الكبير. بدا كلٌ منها عجوزين جداً.

كثاً وإقنين وكثاً نومت ببطء شديد، وكلُّ الزمن واقفٌ في مكانه وفي مكاننا. ظللنا هكذا حتى مضى الرجل يختر ثعابينه في الحقيبة الكتانية المسخنة

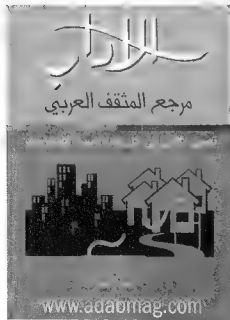
كانت نظراتُ أمي تبعثُ بسؤالٍ كبيرٍ مثلَ مطرقةٍ تدقُّ على رؤوسنا. هل نَسْكُنُ عمارةً فيها كلُّ هذا الكُرمِ من الثعابين؟ بدا وجهُ أمي صامتاً ووجوهُ النساءِ والرجالِ مكفهرَةً وملامحُهم مدموغةٌ بالذعر. لكنَّ الرجلَ كان يوجِّهُ حديثَه ونظراتَه إلى أمي التي كانت حزينةً إلى درجةٍ لم أرها من قبل.

اقتربتُ أمي من الرجلِ ونظرتُ إليه، فأقسم أن لا ثعابينَ أخرى في العمارة. لكنَّ أمي لم تصدِّقَ الرجلَ أبداً، وبدا من نظراتها الشكُّ والرغبة. كما بدا التعبُ والحزنُ ماضي الرجلِ وظللتنا واقفين، كلُّ منا يَنْظُرُ إلى الآخر. اتصوَّرُ أنه لم تمرْ لحظةٌ علينا ائْتُلُ من هذه كُنْتُ أحسُّ بأنَّ العمرَ الباقِي مثلُ ريشةٍ سريعةٍ الطيران، وأنَّ ما مضى منه مثلُ كيسٍ رملٍ ثقيل. واختلط نَحْائِ سِجَانِ الرجالِ بصوتِ أمي التي راحت تأسرُ عم صدقي وعم حسان وأحمد بلال بالبحث عن رفاعي آخر.

قبل أن تبدأ أمي في توزيعِ مسؤوليةِ تنظيفِ الشقة من آثار الثعابين أمرتُنا نحن، بناتِ العمارة وشبابِها، بأن نرافق الرفاعي حين يأتي لتتعلَّم جميعاً حرفة

كنا نُنْظَرُ بعضنا إلى بعض في ترميسٍ صارم. وكانت تلك المرأة الواقفة على مقربةٍ منا تتابعنا بحرصٍ غريب.

القاهرة



المجلة غير موجودة في سوقك؟

- اشترك مباشرة (راجع ص ٢)
- زُرْ موقع الأَدَاب الإلكتروني [www.adabmag.com](http://www.adabmag.com)

الأفكار لا تُفسد... الكبتُ هو الذي يُفسد!

## امرأة الغائب

مهدي عيسى الصقر\*

مادة البنزين شحيجة جداً، أنت تعرف هذا، وقتها أخذ المتعاملون في السوق السوداء يبيعون هذه المادة بأسعار عالية، قلتُ له إنني أتذكر ما حدث.

.. في هذا الوقت سمعتُ أنّ بعض الناس يستخرجون المقادير القليلة من البنزين التي تركت في قعر قناني الغاز الفارغة، ويبيعون ما يتجمّع منه، عملية لا تخلو من أخطار قاتلة. ولكنّ الريح الذي ياتي من ورائها كان مغرياً!

.. فنفطك الطمّح إلى أن تفعل مثلهم.

.. في البداية سار كلّ شيء بشكل ممتاز، لم أجد أيّة صعوبة في فتح القناني، ولكنّ في أحد الأيام، بينما كنتُ أحاول فتح واحدة، استعصمت عليّ، ألححتُ عليها...

.. فأنفجرتُ في وجهها!

.. بالضبط، أستاذ وجدي.

.. وهكذا فقدتُ بصرك.

.. وفقدتُ امرأتني أيضاً، إذ كانت تلقى بجواري تساعدي.

قلتُ له إنّ مثل هذه الحوادث تقع لأيّ إنسان، غير أنّه كان يرى أنّ ما حصل كان نتيجة متوقعة لسلسلة من المصادفات، وكان هو الأداة التي نفّذت المشهد الذريعاً، قال ذلك وضحك. وأدهشني إلاّ أحسن، في ضحكة الأعمى، بأيّ شعور بالمرارة، كأنّ ما جرى له كان قدراً محتوماً. قلتُ له: «وهكذا اخترتُ أن تبني الأشياء» قال إنّهُ في البداية قصّصتُ للقارب، يقرأ من الذاكرة سوراً من القرآن الكريم على أرواح الموتى، إذ إنّ ذوي الراحل يتصدّقون بسخاء

قبل أن تختلّ العلاقة بيننا، بسبب عطشي لامرأة الغائب، وملاحظاتي الأعمى للفتة والجراحة التي تُشعرني بأنّي إنسانٌ وضيع يحاول أن يعتدي على حركة رجلٍ ذهاب يدافع عن البلد - اعتدّت، عندما يتناهي الضجر، أو ينقطع التيار الكهربائي من المنطقة، ويعدّ عليّ مواصلة عملي، أن اطلب من الأعمى أن يُشعل لي شايّاً، واستبقيني واقفاً في باب المحلّ بحثكني عن حياته. وكان هو يروق له أن يتحدث عن نفسه ساعات طويلة. كان يترك مساعدته يهتّم بالزبائن، ويكرّر على طرف اللقطة الخشبي، عيانه الضاميتان تمسّحان من وراء نظارته الفضية إلى سواد الدنيا من حوله.. هذه الدنيا التي تصرّخت - كما يقول - إلى محض أصوات وروائح، وعلى وجه المحروق ما يُشبه الإحساس بالثقوبة، حتى وهو يحكي لي عن تجربة عماء.

«أستاذ وجدي، أنا كنتُ أملك عينين بصفاء عينيّ يدور في شبابه. وكنتُ أعمل معلّماً في مدرسة في إحدى ضواحي العاصمة، يهابني تلاميذي، ويحترمني زملائي الملمّون. راح الأستاذ مؤمن، جاء الأستاذ مؤمناً، وكنتُ أعيش قانعاً وسعيداً مع زوجتي. قلتُ له إنّني ظننّته أعمى من الولادة. قال لا. للعمى جسد وهو في نحو الثلاثين من عمره. لذلك هو مازال يحمل في رأسه طيف الألوان، وأشكال الكائنات، وملاحظ الوجوه التي عرفها وعاشها - زوجته وأقاربه، وبعض زملائه الملمّين - وإنّ بدأتُ هذه العالمُ تهتّ شيئاً فشيئاً، مثلما يهتّ أيّ شيء في الذاكرة عندما يهيب عن النظر. سألتُهُ إنّ كان تمرّس، قال لا، إنّما أصيب بالخيل، فعندما اعتدى الأميركان علينا، وخربوا محطات الطاقة ومصافي النفط، غدت

\* - روائيٌ وصحافيٌّ عراقيٌّ.



عندما يجدون أنفسهم ما يزالون يتنفسون الهواء وسط تلك الصمت الرهيب. لكنه فوجئ في الجمعة التالية أن المقابر سوق عمل يتقاسمه فريق من عميان العاصمة لكل اعلى مساحة محددة من الأرض، بما عليها من قبور، يُعرفون ساكنيها وأسماء الأقباب الذين يجيئون لزيارتهم في أيام الجمع والمناسبات الدينية. فراح هؤلاء العميان يسدون عليه طريق الارتباك ويشتمونه. قال: «استاذ وجدي، انت لا تعرف كم يغص الأعمى عدوانياً شديداً إذا شعر أنك تزاحمه على شيء، أو تدوس له على طرف: فهو حقود ولجوج لا يغفر ولا ينسى» سألته إن كان أصبح مثله، فقال معتزلاً:

«إذا أردت الحقيقة نعم، انا كنت متسامحاً في علاقاتي مع الآخرين عندما كنت أرى الدنيا، ولكن بعد أن انطلقت الأصوات وشبست الألواح، غدت إنساناً كثير الشكوك لا أثق بأحد. فهذه الظلمة التي تغلّب من كل جانب تجعلك تشعّر أنك معزول ومحصّر، فهذه أخطار لا تعرف شكلها ولا مصدرها، وبالتالي يتوجب عليك أن تكون متحافياً في كل لحظة للدفاع عن نفسك. في حالنا، استاذ وجدي، فإن الشراسة، والشك، واعتداء الهيلة والفساد، أحياناً في التعامل مع المُبصرين أمثالكم، وسائل دفاع مشروعة يرقها مجتمع العميان، باستثناء حالات شاذة قليلة»

تألمت متعزلاً، وقلت له: «مؤمن، انت ترعيني» ضحك وقال: «لا، فنحن صديقان، وایس بيننا ما يستوجب الريبة والعداء لا سمح الله» أما إذا نازعتني على شيء، فليرحك الله من انتقامي» سألته وماذا فعل بعد أن طرده العميان من المقابر؟ قال إنّه انضم إلى إحدى فرق المنشدين، الذين يقرآن الآيات والأدعية في مجالس الفاتحة ومجالس الذكر، لكنه وجد العمل متعباً ومهيأً. كانوا كل يوم في مكان، يُشعرون خمول الموتى. وكانوا يتعرّضون إلى الإذلال على يد رئيس الفرقة الذي كان يستغلّهم، ومن أصحاب المجالس الذين كانوا يعاملونهم مثل مجموعة من الشحاذين. قلت له: «وانتهيت أخيراً إلى عملك هذا». قال: «وجدت أن الإنسان يمكن أن يؤجل أي شيء، لكنه لا يؤجل ما له صلة بمعنونه ومزاجه» وأصاح بأني الشاي السمغ إلى الأصوات القادمة من ناحية ذلك، ليُلمّسني على ما يقرب به مساعده، ثم قال: «استاذ وجدي، انا رجل يثرثر كثيراً! قل لي حين تشعّر بالفسح» قلت له إن كلامه يسئني، وأنا لا أستطيع أن أعمل ما لم يُرجع التيار الكهربائي. قال مرتاحاً: «إنّ سلاويك لك حكاية علاقاتي الجسدية مع صاحبتي الضريبة»

#### حكاية بائع الشاي مع معشوقته العمياء

قال الأعمى يحكي لي عن علاقته الجسدية (كما يسميها) بصاحبته المكفوفة - أو بالأحرى قصة فوجره - إنّه بعد مصرع زوجته في حادث انفجار قنبلة الغاز بقي يعيش وحيداً:

«أنت لا تقدر أن تصوّر كيف هي حياة الأعمى حين يكون وحيداً! عندي أخت أكبر مني، أكلت الحرب زوجها، وباعتها تحاول أن تُغزل نفسها وبنّاً صغيرة. جئت بها وأسكنتها معي، هي وابنتها. أختي هذه لم تلبث أن تعرّفت على نساء الجيران، وكانت يبنّين بنتاً معيها، في حدود الخامسة والعشرين، بدأت تكثّر من الترتّب علينا بسبب إحسانها بالعزلة. كانت تزورنا في المساء وكنت أجدها في البيت عندما أرجع من عملي في المكان كأنها تنتظرني. وبسبب عاقبتنا المشتركة نشأت بيننا علاقة مودة. كنت ما زلت جديداً تقريباً على عالم المكفوفين، وبهمني كثيراً أن أعرف كيف تتصرف من أجل أن أهدى إلى سبيل التعاضد مع هذا الليل الأبدي الذي يطوقني. كنت أحنط بيدها الدافئة الرخوة في كفيّ ونحن نتكلّم، وكان ملمس لحم يدها الناعم يجعني أحسن بالنشوة. مثل هذا الإحساس المخل لم يكن يراوني عندما كنت أصافح يد امرأة قبل إصابتي بالعمى، كانت نظرات المرأة نفسها، ونظرات الآخرين، حماسوني وترك مشاعري. كانت العمياء تترك يدها تنام سعيدة في راحة يدي، وكنت أضغط عليها بخنان. تستطيع أن تقول: استاذ وجدي، إننا كنا نتفاجع عن طريق اليدين»

بدأ وجه الأعمى شيطانياً في ضوء الشمعة داخل المخل، ونثار الضوء المتساقط عليه من مصابيح السيارات المتخاطفة في الشارع قلّة ما مندفعاً إنّي ما كنت أتصوّر أنّه مهووس بالجنس إلى هذا الحد، والغريب أن اسمه مؤمن «كان ينبغي أن يسموّه فاسق» ضحك مسروراً وتابع سرد حكايته، قال:

«بعد عدد من اللقاءات والخطاب سرّاً بالأنامل، تمت غطام من كلمات بريئة نثرش بها على مسامح أختي وابنتها الصغيرة، طبت منها، ممسّاً، أن نلتقي في البيت في النهار، وحدنا، في أول يوم جمعة. همست متردداً، وهي تُلمّست إلى حركة أختي للمنشلة جاً بشؤون البيت: «واخنت وابنتها» قلت لها لا علينا: سوف أجعل البيت خالياً منهما، من أجل عينيها أنت! وضمتها لهذه الكلمة»

وشك متذكراً ما قاله وقتها للعمياء. سألته: «وهل أخلّيت البيت من أجل عينيها» قال: «في مساء يوم الخميس أعطيت أختي مقداراً من النقود، واقتربت عليها أن تلخّذ ابنتها وتغيب لزيارة قبور الألباء والصالحين، صباح يوم الجمعة، وأن تقضي النهار كلّها هناك في الدعاء على روح الشهيد زوجها، وأن تدعو الله أن يحفظنا من بلاوي الحروب وعذاباتها» قلت له: «ديالك من ماكراه» قال: «بعد أن غادرت أختي البيت، صباح يوم الجمعة، وابنتها معها، دخلت جاريتي العمياء، ويدون أن أضيق اللحظات الثمينة في مقعدنا، لا ضرورة لها: زعّت ثيابها عنها، وتعرّيت أنا أيضاً، وبدأنا حلفة جنس مجنونة مسرعة» البيت كلّ، بكل حجراتها وزواياه، كانت المفعلة تُهزّب منّي وتختفي في الأركان، أو وراء قطع الأثاث، في داخل الغرف وأنا أهول وراها مشتتلاً بالرغبة،

أخيه، وإنَّ الحكاية كلها كذبة خائبة من العمياء؛ تريد أن تُخسَظ عليه، كي يُقدم على حماقة الزواج منها! سألته وماذا قال لها ليخلص نفسه من هذه الروطة؟ تمسختها ألا تُفسد علينا مباحج علاقتنا! قلتُ لها دعينا نواصل رحلات الاستكشاف العذبة في مجاهل جسدنا، المعبَّين بصفوف الضبايا النادرة التي يُعجز المُبصرين عن الوصول لها، فقلتُ له إنَّ عليه، مع ذلك، أن يكون محتاطاً؛ فننَّ يدري ربما نفدَّ أخو العمياء تهديده وقتله، فاعترفت أنَّ له جازاً مدرَّساً متعادداً قال له الكلام نفسه «لكنَّه إنسان كثير الوسواس، مثلك»

ومعنا انطلقت للمصاييح فجأة، اشتعلت على جانبي الشارع، وفي المخازن والدكاكين، وامتلأ الهواء بلفظ الأجهزة وأصوات الأغاني والموسيقى، وتوجَّعت الأضواء في داخل المحل لللاعمى، وأنا أُلَفِّح على لهب الشمعة، إنَّ الكهراء عابت. قال: «شفتا قصدي، سمعتا أخيك ترجع لشغلك»، ومدَّ يده في الهواء، فوضعتُ في كفه إناء الشاي الفارغ. قال قبل أن ينصرف: «في المرة القادمة، عندما تنقطع الكهراء في السماء، سوف أضيء ليك بحكاية جاري النورس وزوجته الحسنة». كما تقول عنها أختي. «شمكتا، فهذا الأعمى يحب أن يزعج عياراته بكلمات مشرقة. سألتُه وهل لجاره حكاية؟ قال: «لكنَّ واحد مدَّ حكاية، أستاذ وجدي، لكنَّ واحد حكاية»

لكنَّ بائع الشاي لم يبر لي حكاية جاره، ولم يُخِّع لي بعد ذلك بائع سرَّ من أسرارهِ. إذ إنَّ علاقة الألفة بيننا انقلبت إلى نفور عندما تمرَّكتُ على السَّيدة رجاء وأغرمتُ بها، وراح هو يتجسَّس على حياتي، ويتعمَّد جرحي بلميمحاته القنرة. وصرتُ أُمَتُّ رؤية وجهه المروق، وأتمنى موته من كلِّ قلبي.

ولكنَّ ما الذي جعله ينقلب عليَّ هكذا؟

هذا ما يسألني!

بغداد

تُلمطني الجدرانُ من كلِّ جانب؛ لكنَّها ما كانت تطيل لحظاتي عذابي، بل تساعدني في العزوف عليها من أجل أن أفرسها! أستاذ وجدي، أنا ماريسَتُ الجنس كثيراً، قبل الزواج وبعدهِ، ولكنَّ حسدِّي إنَّ قلتُ لك إنَّ ليس هناك في الدنيا ما هو أروع من ممارسة العميان للجنس. حتى إنَّني في لحظات الذروة، ما كنتُ أحسُّ كثيراً بالأسف على نفسي لأشفي غدوتي أعمى! قلتُ له إنَّه يبالغ طبعاً. قال: «هك، أستاذ! أنت لم تجربْ هذا الانفجار الموهل والرائع للأحاسيس تصطبغ في جسدنَّ بلتهبان بالرفية، في التحام حيواني لا يعقل ميجانه أيُّ مشهد خارجي، كلَّ خاية في جسدنا المتوقدين، كلُّ ذرة في لحمنا للارتعش، تمارس للجنس محمومة»! أتذكر أنني قلتُ له: «أنت تجعل هذا التوجُّد الإنساني النبيل، هذا التزاوج الروحي، والتناغم الوجداني والجسدي العذب والشعاف، بين رجل وامرأة، يبدو كأنَّه عمل بهيمي»! قال: «هو كذلك، أستاذ وجدي، هو ذلك... إذا جرَّبتُ من كلِّ ما يحيط به من خطر الكلام» قلتُ له إنَّ كلامه غريب، وسألته إنَّ كان ما يزال يمارس الجنس مع تلك البنت. قال: «على غفرتا متباعدة»، هل ملَّها؟ لا، لكنَّها - مثل أية امرأة تظنُّ أنها رؤيتُك بسحر جسدِها الشيطاني - أصبحتُ تبالغ في توقُّعاتها. الأنسة تقول إنَّ ما نفعه يخالف الشرع - كأنَّها اكتشفتُ هذه الحقيقة الآن - وإنَّ علينا أن نترجأ! تقول إنَّ أحاسها سمع بعض التلميحات من الجيران عنها وهي، وإنَّه هُذِّ بظننا، نحن الاثنين، إذا تحفَّق من صمتة الشافعات، تصوَّنْ! أستاذ وجدي، حياتي تنتهي بسبب علاقة جسدية عابرة، على يد شاب مخبول يعتقد أنَّه يدافع عن عرضه الأعمى»

وشمكت بائع الشاي مستهتفاً بهذا التهديد، الذي ربما كان جدِّياً. قلتُ له إنَّ للمرة قد تكون صانفة. قال: «أستاذ، أنت لا تعرف بعد شيئاً عن مكر النساء! أنا سألتُ عن أخيه، وعرفتُ أنَّه شاب عاطل مستهتر، يقضي نهاره يتعرَّش بنسوان الحطة، أو يترصد المراقات عند أبواب المدارس». ولكنَّ مثل هذا المخلوق يكون أكثر خطراً عندما يُسمَع أنَّ أحدًا تجاوز شرفه. قال إنَّني أحاول أن

## الوثيقتان: ردود وملاحظات

تَلَفَّتْ الآدَابُ عدداً من المناقشات للوثيقتين اللتين نُشرَتُمَا في العدد الماضي. هي ما يلي خمسُ مناقشات تخصُ الوثيقة الأولى التي جاءت بعنوان «مشروع النهضة - مقدمة حوار»، وأما المناقشة السادسة فتخصُ الوثيقة الثانية ونداء لبناء منبر للإجماع القومي العربي داخل الولايات المتحدة، ويستشرّ المجلة مناقشات أخرى للوثيقتين في العدد القادم.

الآداب

### الحوار أولاً

أحمد الخيمسي\*

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطرح: وكيف نحرر بلادنا من الاستعمار؟ لقد برز التيار القومي باعتبارها شكلاً يستجيب لضرورة تحرير الوطن، لا باعتبارها مجرد إجابة نظرية عن ضرورة نظرية. وجذرُ مشاكل الواقع الرئيسية هو الاستعمار: الاستيطاني في فلسطين، والتقليدي في العراق، والاستعمار بأشكاله الحديثة من هيمنة في مختلف البلدان العربية. ولكني سأفترض أن كل مشروع للنهضة هو نقطة انطلاقٌ فائدةٌ للحوار بكلِّ ثرائه بشأن المآزق الذي نعيش به، ونلحظه، ولا نستطيع أن نتجاوزه بالرغم من قرائتنا الكبيرة وتاريخنا.

بدايةً أقول إنني لستُ ضدَّ «القومية العربية»، وكنتُ ومازلتُ أرى فيها مشروعاً لتطوير الفضال العربي على أساس المصالح المشتركة في التحرر ونموها على أرضية من التاريخ العربي المشترك بكلِّ روايته. لكنَّ المشروع المطروح يُشمل ملامحَ النظرة القديمة للقومية العربية في ظروف تُبَيِّنُ فيها كلُّ لباه في كافة الأنهار. لقد اختلفت الظروفُ الدولية والمحلية تماماً، وعانى التيار القومي والماركسي ضرايحاً شديدة نظريةً وفعليةً. وأخذتُ تتخلّق أشكالٌ ووسائطٌ مختلفةٌ للمقاومة. وهذا لا ينفي جوهرَ الطرح القومي التحرريّ وسلامته، ولكنه يغيّر الكثيرَ حتّى.

عرضتُ الآداب في عدد يوليو وأغسطس وثيقة تحت عنوان «مشروع النهضة - مقدمة حوار» تبدأ بمقدمة تتناول أبعادَ الطيف التاريخيِّ الراهن وتُفكِّس إلى ملاحم عامة لمشروع نهضة يندرج تحت مطلب عام: «أية قومية عربية نريد؟» يقوم المشروع على سبعة محاور رئيسية: بناء مجتمع ديمقراطي - السعي إلى الاستقلال الشامل - الوحدة العربية - الكفاية والعدل - العلم والتكنولوجيا - تجديد الذات الحضارية - باندونج جديدة. ثم تطرح الوثيقة الأياتر محددة للعمل، منها إقامة مؤسسة إعلامية قومية لإعادة إنتاج وعي عربيّ جديد، وتحويرُ لجان مقاومة للتطبيع إلى مؤسسة قومية، وغير ذلك من سبل ووسائل عملية.

ولا شك أن كلَّ مشروع هو في جوهره وجهة نظر. ونقطة الانطلاق في الوثيقة المعروضة هي «أية قومية عربية نريد؟» وكنتُ أفضل لو كانت «ماذا نريد؟» لأنَّ السؤال الأول يُفترض ضمنيّاً ومسبقاً أن القومية العربية هي ما تُشَدُّه وتُفَقُّ عليه كلُّ القوى الشعبية والوطنية في الاقطار العربية، وأنَّ «القومية» التي سنحدّد ملامحها ستتشكّل مفرجاً للمجتمع العربيّ من أزمته. كما أنَّ السؤال المطروح: «أية قومية عربية نريد؟» لا يجيب عن السؤال الواقعيّ

\* كاتب مصريّ. نشرناه في الألب المان.

\* تعليق الآداب: هذا العنوان العريض ليس من اقتراح معدّي الوثيقة بل من اقتراح هيئة تحرير الآداب، فالنقطة للتوضيح.

وسانضرب مثلاً واحداً على أن المشروع يُشمل نظرة قديمة فالتوثيقية تشير إلى حاجتنا إلى «باندونج جديدة» بالرغم من اختلاف الظروف الآن تماماً عن الظروف التي ظهرت فيها باندونج القديمة لعد كان «عدم الانحياز» أمراً مفهوماً في ذلك الوقت، إذ كان هناك مسكون كبيران، وقلنا إن علينا ألا ننحاز إلى أحدهما، وكان ذلك في حبه وظروفه موقفاً وطنياً، ولكننا الآن إزاء وجود قطب واحد، ومن هنا بنتا في أمن الحاجة ليس إلى عدم الانحياز بل إلى «الانحياز».

ويتحدث المشروع أيضاً عن أن الوحدة العربية بحاجة إلى «إقامة دولة عربية على كامل تراب الوطن العربي» وهي أمنية عزيزة أظل معها إلى النهاية، لكن هل نحن نبحث عن «وحدة عربية» ثلثي لها احتياجاتها، أم نبحث عن التحرر وعن كل ما هو قادر على تطويره؟ ثم هل أصبح مطلب «دولة عربية واحدة» أمراً مكثراً، أم أن الأكثر منطقية الآن هو أن نُحرر صيغة أشبه بالاتحاد الأوروبي... دون أن يستبعد ذلك أو يسطر صراعاتاً من أجل المستقبل؟

اللائات للنظر أيضاً أن صياغة المشروع تمت من أعلى إلى أسفل، أي انطلاقاً من فكرة «وحدة عربية» ميوماً إلى الواقع العربي الذي

ينبغي أن يتسربل بتلك الوحدة. وفي اعتقادي إن لكل بلد ظروفه الاجتماعية والسياسية التي تحتاج بداية مختلفة. أي تحتاج البدء من ظروف ذلك البلد العربي على حدة، والارتقاء بأشكال العمل التي تتولد في تلك الظروف إلى أشكال عربية أعم ملحوظة أخيرة نحن لم نجد القوى الفاعلة في كل ذلك. أمم المنقون (الأربع أمم كنك؟) وبالتالي، أي برنامج عمل يمكن أن يخدمهم؟ وكيف؟

دعونا بداية نُصدر نشرة أسبوعية إلكترونية لأن المسألة بحاجة إلى إضاءة بلورة العقل العربي وتجميع صفوفه. الآخرون لهم مؤسساتهم، وحقائبهم التلفزيونية، ونؤثر نشرهم، وجيوشهم، وشرطة داخلية، وزنازينهم، وأموالهم. كل قوتهم تلك هي من صفقتنا. نحن مبشرون، وهم مكشرون.

إننا بحاجة إلى الحوار. دعونا أولاً نتجاوز طويلاً. نحن بحاجة إلى أداة للحوار قادرة على تجميع شظايا عقولنا. دعونا، إذن، نُصدر النشرة الإلكترونية لترتبطنا بعضنا ببعض، فتتربك على قوتنا من جديد، ويُدرنا كل منا أنه ليس وحده، وأن للمقيدة وجوها الضم.

## القاهرة

### عادل سمارة\*

### ملاحظات مقترضة

الأعضاء في مجلة الأرباب، كل التقدير لجهودكم ومشروعكم.

لا يسمح الهامش الذي وفرتموه لحوار متكامل. وعليه، فالآتي هي ملاحظاتي مقترضة حول «مشروع للنهضة - مقامة حوار».

١ - إن العمل من أجل حركة عربية موحدة واجبٌ تأخرنا فيه طويلاً فإذا كان مشروع التجزئة مكثراً، فلماذا يكون مشروع الوحدة مستحيلاً؟ وهذا يعني أن الحركة المنشودة يجب أن تكون حركة قومية. فالأمة وجود موضوعي يمي وجوده القومي، والحركة عامل ذاتي يزيد بلورة الوعي القومي ويوجهه إلى حالة تحرر وتنمية ووحدة ولكن الأمة ليست كلاً منسجماً، بل هي طبقات تُجمعها الجغرافيا والتاريخ... إلخ وتتركها المصالح المادية للطبقة لذلك هناك القومية العربية للطبقات الشعبية، وهي وحدوية وتنسوية واشتراكية؛ وهناك قومية الطبقات الحاكمة للتجزئة والتأمية والمتخارجة. إذا اعتقد أن البعد الطبقي بهذا المفهوم لا بد أن يتوغل في ورككم، وإلا فلنأخذ سنكرز ثانية نلغ قيادة قومية (بالمعنى العام) لكي نقولنا إلى حالة جديدة من التنمعة، فنسحب الأمة بأفجاء قرن كامل جدير من الفترة الانتقالية دون أن ننقل فعلاً.

٢ - لا بد من نقد حذري وحارقي للتجربة السابقة لحركة القومية العربية، قوى وأنظمة على حد سواء. وهذا وحده هو الذي يُوصلنا إلى فهم موضوعنا: «قوميّتين وإيست قومية الطبقات الحاكمة».

٣ - إن تنمية الوطن العربي هي ألية شعبية داخلية، وإيست بقرار رسمي. ذلك لأن الطبقات الكمبرادورية الحاكمة أصبحت خارج هذه المعادلة، بل عدوة لها. وهذا يؤكّد «التنمية بالصعامة الشعبية» التي هي وحدوية بالضرورة وجوهريتها اشتراكية. ويؤكد وجوب تجاوز الدولة الطُورية التي تقوم بحرب طبقية «أهلية دائمة ضد الطبقات الشعبية».

٤ - تتمحور الورقة حول الناصرية عربياً، وعدم الانحياز عالمياً. وربما نحن كلنا من تفصّلات تلك المرحلة. لكن علينا الاعتراف بأن الناصرية انتهت لخدمة البرجوازية الصغيرة، التي تحولت إلى بورجوازية كبيرة، ومن ثم إلى كمبرادور. وعلينا الاعتراف أيضاً بأن عدم الانحياز انتهى لصالح معسكر رأس المال، وهو الانتهاز الذي ساعده على تفكيك المعسكر الاشتراكي «الذي ليس من بنات الفكر التاريخ العربي» القاهرة. عدم الانحياز رغائب شريفة لقادة

\* كاتب فلسطيني مقيم في رام الله، رئيس تحرير مجلة كنعان

اذاً، لكَتَه لم يتحول إلى مشروع لأنه افتقر إلى أساس فكريّ وطبقيّ موحد، فليس شرطاً أن يتعاون العالمُ الثالثُ لمجرد أنه عالم ثالث.

٥ - في نقد الغرب غيّبت الورقة، إلى حد كبير، أساسه الطبقيّ الرأسماليّ. وربما لهذا السبب يبدو مشروعُ الورقة مشروعاً لدولة رأسمالية عربية. وهذا لن يقود إلى التنمية والوحدة.

٦ - اعتقد أن العولة مرحلةٌ جديدةٌ في تطوّر الرأسمالية العالمية تجاوزت الإمبريالية التي رآها أينس «الأعلى» في تطوّر الرأسمالية. العولة ليست مجرد مصطلح؛ إنّها نظامٌ ومشروعٌ طبقيّان. أمّا الغرب الرأسماليّ فعنواني لأنّه رأسماليّ.

٧ - لم يتعامله العالمُ مع أميركا في ١١ أيلول، بغضّ النظر عن بشاعة هذا الحدث، بل كان هناك نفاقٌ رسميٌّ سمّحٌ لأميركا بحلق مبررات عديدة لما حصل.

٨ - لم تكن الأنظمة الطُوربة مستخفيةً فحسب تجاه العراق، بل كانت مشاركةً في العدوان بدرجات. فمثلت ذلك عام ١٩٩١، وقد تُرسل اليوم جيوشاً إلى بغداد!

٩ - لا اعتقد أن للاتجاهات اللبرالية دوراً حقيقياً في مشروع الوحدة المقبل، بما هي متفردةٌ ومقاربةٌ الائتلاء الفكريّ.

١٠ - لا بدّ من ربط الديمقراطية بآساسها، ألا وهو توفير الصريات. كما أن نظام الحكم لا يتّسع بالحرية ولا يصحب ديموقراطياً إلا إذا كانت هناك قاعدةٌ موضوعيةٌ تُرفعها على ذلك، وهي التنمية

١١ - إنّ موجة القوميات الجديدة في حقبة العولة هي في أغلبها ثورةٌ مضادةٌ لتحركاتها الرأسمالية للعولة، بخلاف موجة القومية للثانية لمركات التحرّور الوطنيّ في منتصف القرن العشرين، والموجة الأولى في القرن التاسع عشر.

١٢ - علينا للحرر من مخاطر الاستثمارات الأجنبية. كما أنّ مناهضة العولة هم في أغلبهم اشتراكيون.

١٣ - لا بدّ من مؤسسة فكرية ثقافية، ومن ثم إعلامية.

١٤ - علينا مقاطعةً منتجةً لكافة أعداء الأمة، وليس فقط أميركا.

رام الله

## من سلبات الوثيقة

نجيب عوض\*

١ - قد يترك الحرص الواضح، والمبالغ فيه قليلاً، على تقديم طرح شعوليّ، جامع مانع، يستمير المصالح (أو الدارج) من أكبر قدر من الطروحات السياسية والثقافية التي تماثل الشارع ماضياً وحاضراً... قد يترك تأثيراً سلبياً وبمفعولاً عكسياً يُؤثّر الطرح في مخطّات مفاهيمية وفكرية عديدة ويقدم وثيقةً يبيها التناقض والتفكك.

تُظنر الوثيقة، مثلاً، إلى «عدم الانحياز» على أنّه افتراض الخلائع القومية على/ وتخالطها مع الفرقاء الآخرين (ص ١١٦). إلّا أنّ «عدم الانحياز» يُتّرض أيضاً بنزّ العداء ورفض الصياد الموجه وغير الموجه، خلا للقرارات القومية والسياسية، وهو ما لا يبدو منسجماً مع اعتبار الصراع مع إسرائيل وأميركا هدفاً قاعدياً كلياً وحده بجمع العرب وتميز استقلالهم (ص ١١٦). كما أنّ من الضروريّ توضيح المخط الذي يتّسع بجمع البلد الخاص بـ «عدم الانحياز» مع البلد الثاني الذي يدعو إلى تعزيز التسلّع وبناء

الترسانة العربية وتوريد الحرب والقتال مع عدو صهيونيّ أيدي من جيل إلى جيل.

ما هو، كذلك، المخط الذي يتّسع للوثيقة بالبدء بنقد شديد للأنظمة العربية والإقرار بعجزها السافر عن حمل لواء مشروع قوميّ عصريّ (ص ١١٧). ثم المطالبة بإعطاء تلك الأنظمة دورها القياديّ لتُشرف على فئاليات الأمة والتكاتف على دورها الضروريّ اليوم (ص ١١٤)؟ كيف يُمكن قولُ هذا دون أن تُهمّ الوثيقة أولاً بنزّ صريحاً يدعو إلى تغيير الأنظمة التوتاليتارية التي، بسبب سيطرتها على فئاليات الأمة العربية، زوّت الفساد والتخلف والتأخّر الشامل على مدى عقود طويلة؟ اليس الأجدي أن تدعو الوثيقة إلى كلّ يد الأنظمة عن مؤسسات المجتمع المدنيّ كي تقوم تلك الأخيرة بدورها الوطنيّ، فترافق في فئاليات ومؤسسات البلدان العربية حرصاً على الشفافية والمحاسبة العادلة؟

\* كاتب سوريّ.

\* تعليق الآداب. جاء في الوثيقة أن «دور الدولة القياديّ في تحقيق التنمية المستقلة أصبح مطروحاً أكثر» وشكّان ما بين الدولة والأنظمة.

٢ - إنَّ الشروع بتأسيس مشروع نهضة قومية عربية جديدة يستدعي، في رأيي، إعادة النظر جديداً، ودائماً بمصطلح «عربي». أول وأهم مسألة واجهت القوميين في الشرق واستنفدت للكثير منهم فكرياً هي تحديد إجابة منصفة وموضوعية وشمولية لسؤال من هو العربي؟ وهل مقومات العروبة دينية أم عرقية أم جغرافية أم ما؟<sup>٩٢</sup>

برأيي إنَّ تأسيس وجودنا القومي على «هويتنا الحضارية العربية الإسلامية المنفتحة على الحضارة الإنسانية والمتشوقة إلى اللحاق بالعصر» (ص ١١٢) قد يُلحظ منصرفاً أنثروبولوجياً وثقافياً عربياً جامعاً صحيحاً، إلا أنَّه لا يجيب حقاً عن سؤال ماهية العربي - وهو سؤال لا يُمكن تجاهله مادام للمشروع يبغي تأسيس قومية عربية. كما أنَّه حتى وإنَّ كان لصانُّ كلمة «إسلامية» بكلمة «حضارة عربية مصيِّباً، لكون الدين أحد مكونات الثقافة القومية

الأساسية، كما يقول إرنست غيلنر في كتابه **الأمم والقومية** (١٩٩٩، ص ١٥٩)، غير أنَّه لصانُّ يحتاج إلى توضيح ودراسة جادة حين نفسه على التوازن مع نهضة قومية عربية تُعَلِّط بوضوح التعددية والاقليات وتُتَرَفِّف بالتنوع العرقي والديني والثقافي في الوطن العربي الفسيف

٣ - يبقى سؤالٌ أخير يثيره الإكثار من استخدام اصطلاح «مقاومة». لماذا لا تشدُّ الوثيقة، بالقدر نفسه على الأقل، على تسميس قومية جديدة على قاعدة «الحوار» لماذا التشديد على «المقاومة» على حساب «الحوار» وكلاهما طرفاً نقيض (مع أنَّ العنوان يدعو إلى الحوار)؟ اليس غريباً أن يفيب مفهوم الحوار عن بنواتلُحظ الديمقراطية والمجتمع المدني؟ أم أنَّ علينا الاعتقاد أنَّ تحت اللغة إيديولوجيا صدامية قديمة تعيد تقديم نفسها في هيئة طروحات شائعة اليوم؟

اللاذقية

بسام شفيق أبو غزالة\*

محمودة... ولكنْ

أبعث إليكم بلطيف تحياتي واحترامي، وأشير إلى عدد تموز/أب من الأرباب، حيث نشرتم ص ١٠٩ وثيقةً للنقاش بعنوان «مشروع للنهضة - مقدمة حوار» داعين القراء إلى الإدلاء بملاحظاتهم حولها. واستجابة لدعوتكم يشرفني أن ألي برأيي التالي:

لم يسقط العربُ في تاريخهم في مثل هذا الانحطاط الذي مُث فيهِ اليوم. وما أسماه المؤرخون «عصر الانحطاط» كان قياساً على عصر الازدهار السابق. ولعلَّ هذه التسمية ظهرت في بداية عصر النهضة الحديثة التي انتكست إلى ما نحن فيه اليوم.

والحقيقة أنَّ المستوى الحضاريَّ للمجتمع العربي في عصر الانحطاط لم يكن أسوأ، أو أسوأ كثيراً، من مستوى العالم. أما اليوم فقد تطوَّر العالمُ الغربي بعد الثورة الصناعية من أن يتطوَّر المجتمع العربي بما يواكب ذلك التطوُّر. حتى باتت الفجوة الحضارية بيننا وبين تلك المجتمعات بصيِّت يظنُّ المرء أنَّ من المستحيل أن تُلَمَّح بها من غير معجزة ربَّانية. ولو تُلَمَّح المرء ما حوله مما لا يستغني عنه في حياته اليومية لما رأى ما يصنَّعه العربُ إلاَّ الفزَّر اليسير. وإذا اتفاننا على أنَّ الصناعة هي سمة

الحضارة الحديثة، أؤكدنا مدى تطلُّعنا عنها - والحقيقة أنَّ الصناعة هي التي أسست للبناء الذي قامت عليه الحضارة الحديثة في أوروبا، إذا لم تعد علاقات المجتمع الإقطاعي تُصَلِّح لأهل العصر الصناعي. أما المجتمع العربي فقد بات حائرًا بين عادات محلية قديمة لا تُصَلِّح للعصر الصناعي، وعادات تُطرَّضها الاتصالُ بالغرب الصناعي دون أن تجد في مجتمعنا بناءً تقوم عليها. ذلك أنَّ مجتمعنا مازال مجتمعاً رعوياً أو تجارياً متخلِّفاً في أحسن أحواله، يكتسب على استهلاك منتجات الصناعة الغربية وما تُورِّثه من عادات جديدة، دون أن يتجشَّأ إعجاباً، إنجذاباً، بما يقتضيه ذلك من علم وثقافة، وما يورِّثه من تطوُّر فكري واجتماعي.

لا شك أنَّنا ككنا هدفاً من أهداف الهيمنة الاستعمارية التوسُّعية التي واكبت الثورة الصناعية في أوروبا، فأنقضَّ علينا الفرنسيون والبريطانيون بعد انهيار الدولة العثمانية. وكان لا بدَّ لهم من تقنيات وعقلنا لتسهيل سيطرتهم عليه، فكانت معاهدة سايكس - بيكو التي قصَّلت العراق عن بلاد الشام، وقسمت هذه أربع دول، أقامت في واحدة منها، وهي فلسطين، دولةً يهوديةً لتتشكَّل حاجزاً بين الشام ومصر وليكون أداة استنزاف اجتماعي وإقتصادي وسياسي للعرب كافة. وهذه هي الصورة التي نراها اليوم بعد سبعة وثمانين

\* كاتب فلسطيني، عضو المؤتمر القومي العربي.

عاماً من توقيع المعاهدة المشؤومة: أمة مفتتة في وطن مجزأ إلى ٢٢ قطراً، على كل قطر حاكمٌ يسعى جاداً إلى ابتداع «خصوصية» مقنّسة لقطره، تحسباً لوحدة شئب الكرسي من تحت.

لقد خلّقت الدولة الإمبريالية هدفها البعيد بإقامة الدولة الصهيونية في خاضرة الوطن العربي. ذلك أنّ استنزاف العرب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي اليوم حقيقة واقعة. كذلك، بعد انهزام الجيوش العربية عام ١٩٤٨ في فلسطين، كان لا بدّ لكلّ نظام فطريّ عربيّ من تضخيد شعبه بالزمع أنّه يحضّر لمعركة استرداد فلسطين. فكان لا بدّ من تليفق شعاراتهما الوطنية وباطنهما خداع الشعب، كشعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». فبدأت معركة استرداد فلسطين كأن الاسترداد واستنزاف موارد الدولة على تسليح عيشي للجيش، وظهور طبقة فاسدة من النخبة الحاكمة.

أمام استبداد النظام الفطريّ العربيّ نهافت العمل الحزبيّ الجاهل بطلت محطّة احزاب التلطيل للحاكم، وتحوّلت مؤسسات المجتمع المدنيّ لحسّاً مقدّداً مطوّفاً في لأجّة النظام. ولا شكّ أنّ للبيئة القبلية المتخلّفة دورها في ذلك نهافت، ولكنّ جهود النظام الفطريّ العربيّ في تشجيع القبيلة والمشائرية – بدوى الحفاظ على «مبادئنا الأصلية» – زادت الأمر سوءاً. ولم يكن عصباً تجنيد الطليّين من المثقفين الذين باعوا آلائهم وفسادتهم للنظام الفطريّ المستبدّ، بدوى «الحكمة» والواقعية».

لا بدّ لهذه الأمة، إذن، من أن تتضافر جهودها في عمل منظمّ قادر على العمل. وكلّ عمل منظمّ محمود مدام يسعى إلى تحقيق

أهداف الأمة، وعلى رأسها توحيدها، لأنّ قوتها في وحدتها، وخصتها في قوتها. ولقد قامت على المستوى القوميّ مؤسسات مدنية هدفها توحيد الأمة، لعلّ أبرزها «المؤتمر القوميّ العربيّ» و«المؤتمر القوميّ الإسلاميّ». كذلك، في غياب الأحزاب الفاعلة، نجحت النقابات في بعض الاقطار العربية في فرض نفسها في التعبير عن طموحات الشعب وبواجبه، ولعلّ أبرزها النقابات المهنية في الأردن، التي باتت الحكومات الأردنية المتعاقبة تعقّرها شوكة في خاصرتها.

لكنّ لا بدّ لنا من القول إنّ لا تنظيم يُقدّر على فعل التغيير كالأحزاب. ذلك أنّ العمل في مؤسسات المجتمع المدنيّ الأخرى عملٌ تطوعيّ غير إلزاميّ. أما عضو الحزب فإنّ عليه أن يقوم بما يكلفه به حزبه أو يُخصّل من الحزب. لذلك فإنّ كلّ دعوة إلى إنشاء حزب قوميّ عربيّ يعمل في كامل الوطن العربيّ دعوةٌ محمودّة. ولا بدّ لكلّ هذا الحزب من أن يترك الهبات التي كُيّت الأحزاب القومية السالفة، وأمعها حزب البعث وحركة القوميين العرب. وهذه الهبات تنظيمية وفكرية، لا مجال في هذه العجالة للخوض فيها.

لذلك أؤيد بقوة الدعوة التي جاءت بها مجلة الأراب «تمهيداً لإطلاق حركة عربية جديدة». لكنّ لي تحفظان على هذه الدعوة: (١) إنّ تصبح حركة فكرية كحال «المؤتمر القوميّ العربيّ». وهنا أسارع إلى القول إنّ لا اعتراض على مثل هذه الحركة. لأنّ الفكر أساس العمل السياسيّ، لكنّ المؤتمرات المذكور وإبرهها الغرض، وقد لا يكون هناك مجرّد منافسة. (ب) أنّ مثل هذه الدعوة قد لا تستطيع إنشاء حزب صلب، غير متفرّق من مفابرات الدول الطامعة في تقويضه.

عمّان

## مساهمة في الحوار حول مشروع النهضة العربية — إبراهيم مكايي

إنّ الحديث عن مشروع قوميّ عربيّ في هذه المرحلة باتي كمدخل أساسيّ للخروج من حالة التجزئة والتخلف والتبعية المستفحلة، ومن ثمّ فهو للمحلّ الصمّيح إلى التنمية وللصالح بتطورات العصر. بمعنى آخر، التمسك بالقومية العربية كمشروع تحرريّ تنمويّ تقنيّ أصبح ضرورةً أساسيةً في ضمه الهجمة الإمبريالية الرأسمالية وتقدّر البوص الأميريّ بالهزيمة على مصادر الثروة والسوق في العالم وفي وطننا العربيّ. ومن هنا أهمية وضورة المبادرة القومية التي بين أيدينا.

تأتي المبادرة للنهوض بالمشروع القوميّ العربيّ في مرحلة تتعاظم خلالها شراسة الهجمة الإمبريالية الأمريكية على كافة مقومات وجود الوطن العربيّ. فقد أصبح واضحاً بما فيه الكفاية أنّ الاستمرار في التعامل بشكل فطريّ منفرد مع القضايا لمحورية (مثل احتلال فلسطين واحتلال العراق والتخلف الاقتصادي في كل قطر على حدة) هو ممكن نجاح المشروع الرأسماليّ الغربيّ في الحفاظ على تجزئة الوطن العربيّ وتبعية ونهب خيراته والحيولة دين تقمعه.

♦ – استاذ في علم النفس التربويّ كاتب فلسطينيّ من فلسطين ١٩٤٨.

على ضوء ما تقدّم، وبعد مراجعتي الوثيقة المطروحة للنقاش، ومن سرقتني في فلسطين الاحتلال الأول، أيّ تحت الاستعمار الصهيوني منذ عام ١٩٤٨، أودّ أن أشارك بملاحظتين حول الوثيقة علّهما تساهما في إغناء الحوار الجاري

أولاً، يغيب عن الوثيقة بشكل واضح التحليل الطبقي، وحقيقة أنّ الهدف الأساسي هو الهيمنة الاقتصادية وعودة الاستعمار الامبريكيّ إلى المنطقة لا «مسبّ مفاهيمها» [الولايات المتحدة] الحضارية وثقافتها على مجمل البشرية، كما تقول الوثيقة. ولأنّ كان صراعنا هو مع رأس المال الغربيّ تحديداً، ولأنّ كان الاستعمار هو الذي خلّق الدولة العنصرية بهدف الاستغلال الاقتصاديّ أساساً ويتصالح بشكل استراتيجيّ مع الكومبرادور والبرجوازية العنصرية التابعة، فلماذا لا يرتكز مشروعنا القوميّ على مواجهة رأس المال بما هو نقيضه أيّ بمشروع اشتراكيّ تنمويّ يُعتمد بالأساس على الطبقات الشعبية العربية التي تُطغنها - نابعة عن رأس المال الغربيّ - البرجوازيات الماكدة من المحيط إلى الخليج؛ لماذا لا يرتكز إلى مشروع لاشتراكيّ قوميّ يُلخّص في الحساب مصالح الطبقات الشعبية التي تشكّل الأغلبية في الوطن العربيّ ويتكامل ويتسهم مع الحضارة العربية والثقافة العربية والانتماء القوميّ لما يقارب ثلاثمائة مليون عربيّ يعيشون في بقعة جغرافية متواصلة من المحيط إلى الخليج؟

ثانياً، (يغيب عن الوثيقة) موقف فلسطيني الاحتلال الأول من المشروع القوميّ العربيّ. انسجاماً مع مشروع التجزئة، وعلى أرضية التوسيع ومحاولة فرض وجود الكيان الصهيونيّ لكونه

العقبة الأساسية في طريق تحقيق الوحدة العربية، تبلّور لدينا خطابٌ ليبراليّ ما بعد حداثيّ إصلاحيّ يُخدّص مفهوم «الوطانة» والحقوق للتساوية في دولة الكيان الصهيونيّ مرجعيّته الأساسية في ما يخصّ هذا الجزء من شعبنا، وكلّ ذلك من خلال العمل داخل البرلمان الصهيونيّ مروراً بالإقرار المسبق بشريعة وحقّ وجود هذا الكيان في قلب الوطن العربيّ. الخطير في هذا الخطاب هو أنّه يتشكّل بـ «الهوية القومية» العربية للفلسطينيين داخل دولة الكيان الصهيونيّ، في حين أنّه في الحقيقة يطبّق قسراً ويشكّل التوائيّ مفاهيم «الهوية الثقافية» التي يستعيرها من تجربة الأقليات الإثنية التي هاجرت بصورة إرادية وتعيش في مجتمعات متعدّدة الثقافات.

نحن الفلسطينيون في الداخل لم نهاجس إلى دولة الكيان الصهيونيّ. وبالتالي فإنّ الحديث من هويتنا القومية الثقافية بمعنى نحن هنا وانتم هناك ليس مساهمة في شرعنة وجود الكيان الصهيونيّ فحسب بل هو محاولة التواء على مفهوم الهوية القومية بحث ذاتها. إنّ الدور اللصوف فلسطيني الداخل، والذي يجب النظر إليه كجزء أساسي من هذا المشروع القوميّ، هو الحفاظ على هويتنا القومية من خلال مقاطعة مؤسسات الكيان الصهيونيّ وعلى رأسها البرلمان، على أمل الالتحام مع باقي شعبنا وأمتنا حين تصبح الوحدة القوميّة واقعاً. إذ لا يكفي التغلّي بهويتنا القومية من بعيد، في حين نؤخّل في التكيف والتعايش على هامش الكيان الصهيونيّ الذي لا يُمكن أن يستوعبنا كأصحاب حقّ شرعيّ في الوطن أساساً.

فلسطين الاحتلال الأول ١٩٤٨

## ملاحظات على «نداء لبناء منبر... داخل الولايات المتحدة» ————— مسعد عرييد\*

القضايا، فإنّها تبقى مشروعاً ديمقراطيّاً وديناميكياً يسعى دوماً إلى الارتقاء.

٢ - يتطلب الإجماع أرضية مشتركة ورحبة في المفاهيم والأهداف، إذ أنّه يُبقي على فسحة للاجتهاد والحوار وترتّبم التجارب والإنجازات.

٣ - القومية العربية هي قومية الطبقات الشعبية ومصلحتها خالصة من الشؤونية العرقية. تُرفض الانفلاق وتدعو إلى الانفتاح على المجتمعات والأقليات الإثنية الأخرى وإلى الإسهام معها في بناء مستقبل أفضل.

في ما يلي بعض الملاحظات التي أرى أنّ الوثيقة الثانية، الخاصة ببناء منبر للإجماع العربيّ داخل الولايات المتحدة، لم توضحها أو لم تادر على ذكرها. ونظراً إلى ضيق المجال، أقتصر على بعض المفاهيم الأساسية لأيّ مشروع يتصدّى لمهام الجالية العربية في الولايات المتحدة.

### الجالية والوثيقة

١ - يجب فهم الوثيقة على أنّها مبادرة جدية وجريئة لتنظيم واستنهاض جهود الجالية. وهي، وإنّ لم تقم بالإجابة عن كافة

\* طبيب وكاتب عربيّ مقيم في الولايات المتحدة.



٤ - يقوم المجتمع الأميركي على التعددية العرقية والثقافية والدينية. وعليه، فإنّ الانتماء والتعايش المشترك داخل المجتمع الأميركي وبين الأقليات لا يعينان ولا يتطلبان الانسلاخ عن الانتماء العرقي والهوية القومية والثقافية.

٥ - علينا أن نساند النضالات العادلة للطبقات المستقلة والمهشمة والأقليات الإثنية الأخرى في الولايات المتحدة، إن شئنا أن نطالبها بمساندة قضايانا.

٦ - لا يكتمل هذا النقاش دون فهم مادي وطبقي للجالية العربية يشتمل قطاعاتها والتي تصطف، كالأقليات الأخرى، في مواقع طبقية داخل البنية والنظام الأميركيين.

### الخلاص: طبيعته ومرجئاته

١ - إنّ الغاية المنشودة من النضال بكافة أشكاله هي إلغاء الاستغلال. ولما كان النظام الرأسمالي يحل في تشكيلته الاجتماعية وطبيعياً علاقات الإنتاج التي يقوم عليها أسباب الاستغلال، فإنّ نضال الشعب الأميركي وكافة الأقليات في الولايات المتحدة يجب أن يتجه نحو مناهضة الرأسمالية.

٢ - ليس النظام الرأسمالي ظاهرة طبيعية ولا إجابية ولا حتمية في مسيرة التطور البشري. كما أنّه ليس تعبيراً عن الطبيعة البشرية ولا نتيجة لحمايتها. على التقدير، فقد أدّى هذا النظام بالبشرية إلى هابوة سمجية من الفقر والاستغلال. أما إنجازاته التكنولوجية فقد خسرت جل فوائدها في شريحة رفيعة من أثرياء المجتمعات الرأسمالية. وعليه، فإنّ الجماهير والطبقات المسحوقة تشبّتت بالحق والقدرة على رفض هذا الشيار السير في درب اخر.

٣ - تهدف الحروب ضدّ الشعوب الفقيرة إلى السيطرة على مواردها، وتحقيق الربح الأقصى، وتغذية السوق المحلية في المجتمعات الرأسمالية. وإلغياً بصاحبات النظام الرأسمالي وحلّ أزمته البنوية ويسري هذا أيضاً على الحرب الأهلية (الداخلية) التي يشهدها النظام الرأسمالي ضدّ الفقراء والمهشمين والمؤنّين في المجتمعات الرأسمالية. وعليه، فإنّ الإمبريالية والعنصرية هما إفران حتميان للنظام الرأسمالي.

٤ - ليست العولة مجموعة من المفاهيم والاتساق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب، بل هي حقيقة في تطور النظام الرأسمالي. أما الإمبريالية فهي المشروع السياسي والاقتصادي للرأسمالية. ويناءً عليه، فإنّ الفكر المعادي للمهيمنة والعولة هو بالضرورة معاد للرأسمالية والإمبريالية والعنصرية. ولا يكتمل نضالنا، إن، من دون الربط الحكم بين العولة والإمبريالية والعنصرية.

٥ - يتغنّ التحدي، إذن، في النضال ضدّ الرأسمالية والإمبريالية والعنصرية، إذ ترتبط كافة القضايا التي عالجتها الوثيقة [الثانية]

بالظروف المادية التي أفرزها هذا النظام. ووفقاً لذلك، فإنّ شات الجالية العربية أن تحمي حقوقها وأن تتخذ موقعها الطبيعي في النضال المشترك مع الجاليات الأخرى، فعليه أن يتخبط في النضال من أجل محو الرأسمالية.

### النضال: طبيعته ومرجئاته

١ - يتوجب على الحركات الشعبية دمج نضالها (الاجتماعي والسياسي) من خلال تطوير الآليات السياسية. فالمطالب التي دعت إليها الوثيقة تعبر عن مطالب العديد من الأقليات الإثنية الأخرى (اللاتينية والسوداء والآسيوية... إلخ) إضافة إلى التقدميين والاشتراكيين الأميركيين.

٢ - لم يعد ممكناً، في سياق النظام الحالي وموازن القوى الراهنة، النظر إلى نضالات الشعوب المستقلة والأقليات المضطهدة منعزلة ومفتككة بعضها عن بعض. ففي هذا انتماءها المؤكّد. وعليه، يتجمل على الجالية العربية أن تتناهل مع طبقات الفقراء والمهشمين والأقليات الأخرى المؤنّة والمضطهدة. ولا تقوم هذه المشاركة على أساس التضامن والمناشدة الأخلاقية فحسب، بل هي ضرورة تاريخية تنمّض في المصالح المشتركة وأمية النضال.

٣ - يُجسّم الكثيرون من التقدميين على أنّ الصديق المذنب والديموقراطية والديمقراطية، في الولايات المتحدة إنما هي حكر على الرجل الأبيض. أما المؤنّون فأن يلقوا إلا التمييز والقمع. وعليه، فإنّ إمكانات النضال لن تتوافر إلا من خلال مشروع وقيادة يميّزان بمصادة الرأسمالية والإمبريالية والعنصرية أي الأركان الأساسية للنظام الحاكم في الولايات المتحدة.

### حول المفردات

١ - «الطف الأميركي» - الإسرائيلي، تظل هذه المفردة المؤلمة من الدقة العلمية والسياسية. فالحالف يقوم بين أطرف نظيرة أو متساوية. أما الولايات المتحدة وإسرائيل فليستا طرفين متساويين وإن جمعتهما أهداف مشتركة وأحياناً متطابقة. فالولايات المتحدة هي المهيمنة في المركز الرأسمالي، وأما إسرائيل فلا تعدو كونها إحدى دول المحيط الرأسمالي وذات وظيفة إستراتيجية ومميز، إلا أنّها تظلّ خاضعة لإملاءات المركز الرأسمالي ومصالحه

٢ - هل نحن «عالم» أم «وطن»؟ في حين تكثر الترجمة العربية للوثيقة مفردة «الوطن العربي»، فإنّ الأصل الإنكليزي يخلو منها ويكثر مفردة «العالم العربي». وتنبع أهمية التمييز بين «العالم» و«الوطن» هنا من أنّ الوثيقة جاءت لتوحيد الجالية العربية ويفترض أنّها قد حسّنت مسألة القومية العربية ووحدة الانتماء والهوية والوطن. ليس العرب عالمًا بل إنّا وطن. لسنا شرقًا أو غربًا ولا شمالًا أو جنوبًا، بل نحن عربي.

لوس آنجلوس

لأن لا أفق عربيًا من دون اتحاد عربيّ

## أفكار في تجديد القومية العربية

الأداب ١٢/١١، ٢٠٠٣ - ملف من إعداد: سماح إدريس ومحمد جمال باروت

### من محتويات الملف:

- الطاهر ليبب: الخطاب و القومي
- عبد الإله بلقزيز: المثقفون والقومية العربية - فريضة المراجعة
- شمس الدين الكيلاني: الفكرة العربية بين إخفاقات الماضي وتطلعات المستقبل
- أحمد فائز الفوّاز: المشروع القومي العربي - مراجعة من أجل بداية جديدة
- أحمد صالح الملا: النظم القومية وتهشيم المجتمع السياسي العربي
- جاد الكريم الجياي: من الإثنية المذهبية إلى القومية الديمقراطية
- ياسين الحاج صالح: سجن الشعوب - الشرق الأوسط والاجتماع السياسي الشرق أوسطى

### تتمة الافتتاحية ص ١

## دع المزاح جانباً... يا رفيق!

٤ - كتاب مايكل مور، رجال بيضٌ خَمَفَى (صَدَر عام ٢٠٠٩ وتُرجم إلى العربية مؤخراً). جدير بالذكر أن ملايين من النسخ بيعت من هذا الكتاب في الولايات المتحدة وبريطانيا، حليفتي العراق الجديد. فلن يكون ثمة مانعٌ لدى قوات التحرير، كما نأمل، من أن تباع بضعة آلاف منه فقط في العراق اليوم. يتحدث مور في هذا الكتاب عن الديمقراطية داخل الولايات المتحدة، وبشكل خاص عن نزاهة الانتخابات التي أوصلت بوش الابن إلى الرئاسة (بعد أن تم إسقاط ١٧٣ ألف أميركي من حق التصويت في ولاية فلوريدا، معظمهم من السود). ويُقدّم مور فصلاً كاملاً للتحديث عن نجاح الولايات المتحدة في القضاء التام على العنصرية، وهو ما قد يشكل نموذجاً يُحتذى لحل مشكلة الأقليات القومية في كافة أرجاء العالم، ولاسيما في العراق المخزّر.

لا يتسع المجال لذكر كتب مفيدة أخرى تعزّز لفة الحكومة العراقية ومجلس الحكم بالديمقراطية الأميركية وبالاستراتيجية الأميركية الإنسانية الباهرة. وتعلم علم اليقين أن الأولوية عند وزارة الثقافة العراقية الجديدة، وعند رفيقنا الشيوعي، هي تحرير العراق... من البعث وفلول النظام المبقور. ونعرف أيضاً أن الجزائية المخصصة للثقافة قد لا تتحمل شراء هذه الكتب ونسخها من الولايات المتحدة أو بريطانيا أو العالم العربي، وأن قوات التحالف لن ترى في نشر هذه الكتب داخل العراق أولوية من أولوياتها. فإذا كان لا بد، يا معالي الرفيق الوزير، من شيء واحد، كتكوت ورخيص، وقد لا نحتاجون إلى شرائه أصلاً لأنه موجودٌ في كثير من بيوتكم، ولا يتطلب إلا نسخاً بالآلة الناسخة عند الضرورة... فليكن مختارات من كتاب لينين، الثورة الاشتراكية وحق الأمم في تقرير مصيرها (كُتب عام ١٩١٦ وترجمته إلى العربية دار التقدم في موسكو ضمن المجلد السادس من مختارات لينين). وإذا تعذّر ذلك أيضاً، فلتنشدوا في أرجاء العراق المقطع الجمّال التالي من الكتاب:

«يترتب على الاشتراكيين الإيطاليو فقط بحريز المستعمرات، فوراً، وإطلاقاً، ودون أيّ تعريض... وإنما ينبغي عليهم أيضاً أن يؤيدوا ويساندوا، بأشدّ العزم والتصميم، العناصر الأكثر ثورية... ضدّ الدول الإمبريالية التي تُضطهدها».

سماح إدريس  
بيروت

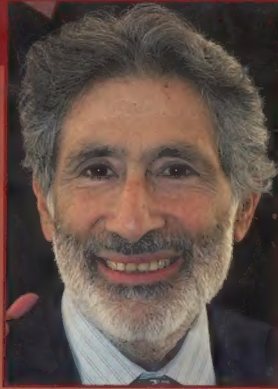
رواية

ميرال الطحاوي

# نقرات الظباء

دار الآداب





برحيل إدوارد سعيد تَخْسِرُ الشَّجَاعَةُ الأخلاقيةُ واحداً من أبرز أبنائها البررة. فلم يكن إدوارد سعيد مناضلاً في سبيل فلسطين والمظلومين في العالم كافةً وفي الوطن العربيّ بشكل خاصّ فحسب، بل كان أهمُّ ما فيه جرأته على قول الحقيقة غير هيّاب في وجه جميع السلطات السياسية والعسكرية والدينية والاجتماعية والنقدية الأدبية. كان حاضراً دائماً، يخافه العنصريون والمستسلمون ومسأحو الجوخ. لسأنه أسلط من كلّ السلطات، وقلمه لا ينفكّ ينكأ في الأورام الخبيثة، وكلُّ ذلك بفضل ثقافته الموسوعية وحسّه النقديّ الإنسانيّ.

عزّأونا في مجلة **الألواب** ودار الآداب أنّ الشعب الفلسطينيّ لن يَخْذَلَ انتفاضته، وأنّ أفكار إدوارد سعيد ستظلّ مشعّة في ملايين العيون والأفئدة ضدّ الاستعمار والاستيطان و«السلام» المزيف، ومن أجل عالم لا يفتّرف بحدود ولا موانع.

يَصْغُبُ القولُ لمحبيّ إدوارد وقرّائه «العوض بسلا متكم..» لا عوض عن إدوارد بشيء ولكن أقرب ما قد يكون إلى «العوض» هو أن يسعى كلّ منا إلى ممارسة شيء من المثلّ والقيم التي دعا إليها ومازسّها حتى اللحظة الأخيرة.

**الألواب**

**إدوارد سعيد باق... بشجاعته وقيمه**